المركز الوطني للترجمة
تونس

هنري بينا-رويز

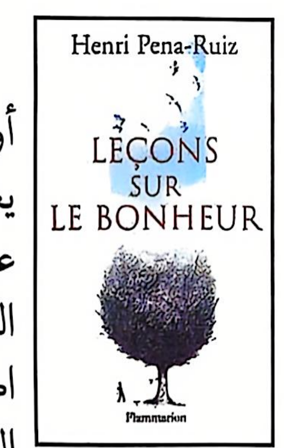
دروس في السعادة

ترجمة :
محمّد نجيب عبد المولى



دار سيناترا

دروس في السعادة



إنّ الموقف البارز في ثنايا الكتاب هو أنّ الفلسفة عمليّة أو لا تكون، بمعنى أنّ منتهى التّفلسف هو بالأساس أن يعلّمنا كيف نعيش، يقول الكاتب: «الفلسفة لا تستحقّ منّا عناء ساعة إن هي لم تعلّمنا كيف نتصرّف في الحياة.» وهذا الكتاب، بدروسه الثلاثة عشر، يهدف إلى مساعدة القارئ على اكتشاف سبل الاستمتاع بالحياة؛ ويذكّر، بلطف، أنّ شروط السّعادة قائمة في عالمنا، محيطة بنا، تنتظر منّا نظرة أو لفتة ننتبه فيها إلى ثراء الأشياء البسيطة والمألوفة.

هذه الدّروس هي دعوة إلى النّظر في الأشياء، لكن بعيون تبصر التّفاصيل وتضفي على ما هو مألوف معنى وقيمة. هي تنبيه يشير إلى تهافت الموقف الباحث عن سعادة لا تأتي، إذ السّعادة هي في هذا الإحساس بثراء أشياء العالم وتفاعلنا معها. إحساس بقيمة الماء، وقيمة الهواء، وجمال الزّهور، وبهاء طلعة الشّمس، وعذوبة هبّة نسيم عليل، وفسحة مع صديق، ولقاء بحبيب. ثروات وثروات لا ننتبه إليها إلاّ عند فقدان القدرة على الإحساس بها.

هنري بينا-رويز 1947

فيلسوف وكاتب فرنسي، عرف بالدّفاع عن قيم التّضامن والحرّية. أصبح مختصّا في مسألة اللاّئكية بما هي أساس للفكر الكوني. هو من بين الحكماء العشرين الّذين كوّنوا لجنة اللاّئكية بفرنسا سنة 2003. قاوم في كتاباته التّوظيف السّياسي للدّين واعتبر المعتقد شأنا شخصيا، وجعل من الالتزام بقيم الجمهورية سبيلا لتحقيق حياة كريمة للإنسان.

محمّد نجيب عبد المولى

متفقّد عام للتّربية، درّس الفلسفة في المعاهد الثانوية، وفلسفة التّربية وحقوق الإنسان في المعاهد العليا لترشيح المعلّمين. ساهم في تأليف الكتب الفلسفية المدرسية.



10 د.ت. أو ما يعادلها

دروس في السعادة

المركز الوطني للترجمة

هنري بينا-رويز

دروس في السّعادة

ترجمة:

محمّد نجيب عبد المولى

مراجعة:

عبد العزيز العيّادي

دار سيناترا

بينا-رويـز، هنـري - **دروس في السّعادة** - ترجمـة عبـد المولى، **محمـد نجيب** -
الحجـم: 15,5x24 سـم - عـدد الصفحـات: 220 صفحـة - منشـورات دار
سـيناترا - المركـز الوطني للترجمـة، تونس 2010 - سلسـلة : **ديوان الفلسـفة**

ر. د. م. ك. : 0-75-084-9973-978

فلسفة - ايثيقا - سعادة - ترجمة - بينا-رويز، هنري - عبد المولى، محمد نجيب -
العيادي، عبد العزيز.

الأفكار الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن آراء يتبناها المركز الوطني للترجمة.



9 نهج المنستيري - 1006 - تونس
الهاتف: 377 567 71 (216+) الفاكس: 308 567 71 (216+)
الواب: www.cenatra.nat.tn
البريد الالكتروني: tarjamah@cenatra.nat.tn

تنبيهات بدئيّة

كتاب دروس في السّعادة مكتوب في لغة شعريّة، فيها تنغيمات وإيقاعات تفرض أحيانا تنقيطا خاصّا، قد يَستعصي تحويله، كما هو، إلى اللّغة العربيّة: جملة بلفظ واحد، ومتابعة الفكرة الواحدة في عدّة جمل. لقد مثّل هذا الجنس من الكتابة بعض الصّعوبة، ممّا اضطرّني أحيانا إلى التّصرّف في هذا التنقيط، بعد موافقة المؤلّف، بما يساعد على تبليغ المعنى وإيفاء القصد.

وهذا الأسلوب ليس جديدا في كتابات المؤلّف، فقد اتّبعه في سائر مؤلّفاته، ومنها بالخصوص كتابه **قصّة العالم**، الّذي قدّم فيه الأفكار الفلسفيّة في حكايات وأقاصيص من التّراث الأدبيّ العالميّ وظّفت لخدمة أغراض فلسفيّة بالأساس.

لقد استهلّ المؤلّف عدّة دروس بحكايات فيها رمزيّات ثريّة بالمعاني، تبلّغ فكرة فلسفيّة، أو تقدّم لطرحها في بقيّة الدّرس. وقد رأيت أن أسلّط الضوء على بعض المعاني أو الأحداث لتيسير فهم سياقات الأفكار التي أوردها الكاتب، فوضعتُ هوامش تفسيرية أو تعريفية بالعربية؛ أمّا الإحالات الواردة باللّغة الفرنسية فقد وردت في متن الكتاب، وقد حوّلت موقعها في الهوامش حتّى يعود إليها من هو راغب في ذلك.

إنّ الموقف البارز في ثنايا الكتاب هو أنّ الفلسفة عمليّة أو لا تكون، بمعنى أنّ منتهى التّفلسف هو بالأساس أن يعلّمنا كيف نعيش، فهو يقول: «الفلسفة لا تستحقّ منّا عناء ساعة إن هي لم تعلّمنا كيف نتصرّف في الحياة.» وهذا الكتاب، بدروسه الثلاثة عشر، يهدف إلى مساعدة القارئ على اكتشاف

سبل الاستمتاع بالحياة؛ ويذكّر، بلطف، أنّ شروط السّعادة قائمة في عالمنا، محيطة بنا، تنتظر منّا نظرة أو لفتة ننتبه فيها إلى ثراء الأشياء البسيطة والمألوفة.

هذه الدّروس هي دعوة إلى النّظر في الأشياء، لكن بعيون تبصر التّفاصيل وتضفي على ما هو مألوف معنى وقيمة. هي تنبيه يشير إلى تهافت الموقف الباحث عن سعادة لا تأتي، إذ السّعادة هي في هذا الإحساس بثراء أشياء العالم وتفاعلنا معها. إحساس بقيمة الماء، وقيمة الهواء، وجمال الزّهور، وبهاء طلعة الشّمس، وعذوبة هبّة نسيم عليل، وفسحة مع صديق، ولقاء بحبيب. ثروات وثروات لا ننتبه إليها إلاّ عند فقدان القدرة على الإحساس بها. لقد أجال المؤلّف بصره في العالم المحيط به: عالم الطبيعة وعالم الإنسان، واستلهم منه محاور ليتحدّث عن الأشكال الممكنة للبحث عن السّعادة وتذوّق طعمها. لكنّه تَفَسَّح أيضا في عالمه الباطنيّ، واستمع إلى ضجيج عالمه الحميم، فأخرج ما يعتمل في داخله من تساؤلات وإحراجات، واجتهد في تقديم أجوبة نهلت من منابع الفلسفة والأدب ويسّرت المرور بين ضروب الوعي المختلفة.

الحديث عن السّعادة هو حديث عن الطّفولة وبراءتها وثراء نظرتها، وحديث عن الذّاكرة ودورها في تخزين السّعادة وتصريف الأحزان، وحديث عن النّحس وحسن الطّالع، وعن الحياة والموت، والممكن والمستحيل. وهو رسم لمقتضيات السّعادة، أوّلها الحرّيّة، وثانيها الفعل، وثالثها العدالة. ثلاثيّة تنسج إتيقا السّعادة، وتربط بين ما هو فرديّ خصوصيّ وما هو كونيّ.

لقد وظّف المؤلّف الإرث الفلسفيّ في كلّ الدّروس الّتي بناها، ففكّر مع الفلاسفة واستحضر أقوالهم، وأحكم الرّبط بين مواقفهم وما يقتضيه الوجود السّعيد من وعي وإحساس وحضور في العالم.

كتاب دروس في السّعادة مدارات تفكير، في كلّ مدار قضيّة وحكمة. وفي كلّ حكمة وعدٌ بالفعل. وفي كلّ فعل إنشاء لقاعدة سلوك تنير التّجربة الإنسانيّة وتغنيها، وتوسّع من كونيّة الإنسانيّ، لكي يكون منبعا غزيرا تنهل منه الفرديّات. الحديث عن السّعادة هو حديث عن الإنسان والعالم وما

يُنتجه اللّقاء بينهما من أفكار وقيم ومشاعر ومعتقدات. هو حديث عن شواغل الإنسان، وعن ضروب الحيل في دفع الأحزان، أملا في الرّضا والطّمأنينة، وسعيا إلى بناء عالم من الفرح، هو عالم الإنسان.

محمد نجيب عبد المولى

إلى أصدقائي:

«بيار غينينسيا»
«ريني بلوت»
«جون بول سكوت»
برونو ستربيف

«نحن سعداء، وخطاباتنا صيغت على نحو يجعلها تبدو، وكأنّنا لا نشكّ في ذلك... يجب إقناع البشر بالسّعادة الّتي يجهلونها، في اللّحظة عينها الّتي بها ينعمون.»

‹مونتاسكيو› : **أفكاري**
Montesquieu, *Mes pensées*

«مهما قيل عن تيولوجيا كئيبة أو فلسفة سوداويّة، فإنّ إنسانا يعرف كيف يستمتع، حتّى وإن لم يجد هناءً تامًّا في هذا العالم، يستطيع، على الأقلّ، أن يلاقي فيه طائفة من الملذّات وجزئيّات من الأحداث تجعل الوجود سعيدا، أو تصرف نظره صرفا عن أحزانه.»

‹هولباخ› : **النّسق الاجتماعيّ.**
Holbach, *Système social*

«لا يجب الحكم في شأن سعادتنا إلّا بعد مماتنا.»

‹مونتاني› : **المحاولات.**
Montaigne, *Essais*

«حُبّ العيش لا يكون بمعزل عن اليأس من العيش.»

‹كامو› : **أعراس**
Camus, *Noces*

الديباجة

معرفة جذلى

إنّ توصية ‹رونسار› Ronsard[1]: «عيشوا، لا تنتظروا غدا... إن كنتم تثقون فيما أقول»، هي دعوة إلى السّعادة. الشّاعر ههنا، يتحدّث عمّا هو عاجل بالنّسبة إلى كائن مآله الفناء. الزّمن يمرّ، ولا يمكننا إرجاء **السّاعة السّعيدة**، السّاعة الّتي ستعلن عن الحياة، مثلما نفعل ذلك بالهبة. حينئذ، سيكون لحدث الوجود مذاق عجيب إلى حدّ مّا، وسيمتلئ الزّمن. إنّه مذاق السّعادة... وعلينا أن نسعى، حقيقة، إلى ملاقاتها، ووضع الألفاظ، هنا وهناك، في خدمة النّاس المشغولين المتغافلين، في الغالب، عمّا يمكن أن يسعدهم. إنّ فلسفة السّعادة هي إذن، تذكير بسيط بطرائق الوجود السّعيد. وهذا يعدّ كثيرا.

يتعلّق الأمر بتحقيق الاكتمال، انطلاقا من الوجود المعطى المعيش، بدءا في تحسّس اكتشافات أولى الملذّات والآلام. إنّ تجربة اللّذّة الأولى توجّه البحث. هي جُدَّةٌ[2] داخليّة، وذكرى غير واضحة الملامح، لكنّها عذبة ولا تمّحي. إنّها تنزع بالكائن في اتّجاه تمامه. تأتي أيضا تجربة العذاب الأولى. إنّها صدمة أصليّة، تشوّش الأشياء والحضور في العالم. تتعقّد المنظوريّات. إنّها حيرة. سيكون الحضور في العالم، من الآن فصاعدا، غامضا: أَوُجِدْنَا ههنا لنتعذّب أم لنتمتّع؟ يبدو السّؤال

1- ‹رونسار بيار› ولد سنة 1524 وتوفّي سنة 1585. من أشهر الشّعراء الفرنسيّين في القرن السّادس عشر. لقّب بـ«أمير الشعراء وشاعر الأمراء»، واعتبر وجها بارزا للأدب الشّعريّ في عصر النّهضة. تميّزت أشعاره بتأثّره بالأبيقوريّة.

2- جُدّة: Repère ما يُستدلّ به للاتّجاه في وجهة سليمة أثناء السّير. تُجَنِّبُ الجُدات التّيه. وقد فضّلنا هذا اللّفظ على «علامة» الذي يستعمل عادة لترجمة اللّفظ الفرنسيّ Repère، حرصا منّا على إبلاغ معنى الإرشاد وتلافي الضّياع.

ساذجا، وهو لا يصاغُ عن وعي، لكنّه يكبر باطّراد ليسكن الوعي القلق. [سؤال] قلق الحياة الّذي لا بدّ من إيجاد إجابة عنه، بالتّأكيد. يمكن حينئذ، أن تُرسَم ملامح مسلك مّا، شريطة إزاحة الهواجس وإدماج المجازفة بالحرّيّة. لكنّ هذه الهواجس تعاند وتخز وخزا. هل سينتصر الخوف من الألم إلى درجة أنّه يحجب رسالة الأفراح الأولى؟ إنّ أوقات التّرحال، وحتّى الحزن، تدفع أحيانا إلى اليأس، بل وحتّى إلى حبسِ الوعي، داخل حدودها. حبس من هذا القبيل هو الذي ينبغي تجنّبه، في البدء. ويتّضح أنّ للإنسان وسيلة رائعة تسمح له بذلك: إنّها الفكر، الذّي هو ليس سوى حياة الوعي. إنّها حياة، في الغالب، لا مرئيّة، مجهولة ومهملة: اليوميّ يفتن ويأسر في السّرّاء والضّرّاء. إلاّ أنّ الفكر هذا، هو انعتاق، إذا ما انتبهنا إلى قوّته واستعملناها. هي ذي المعرفة الجذلى لهذا الكتاب، والّتي علينا بيان كلّ مخزونها. لنقف قليلا لكي نتعلّم رفض الضّغط العتيّ للمعطيات (اليوميّة) المباشرة. ولنسافر. فالخيال يحرّرنا، والأمل الدّاخليّ يخلّصنا. الذّاكرة وقد نميّناها، تذكّرنا أنّ الحاضر ليس سجنا. على هذا النحو، تتأكّد لدينا القدرة على اتّخاذ مسافة. إنّها معرفة جذلى.

الفسحات الدّاخليّة

الفكر، هو الإحساس والحلم معا. وهو الفسحة الدّاخليّة، والتّفكير وقد فُكّ وثاقه. هو **حوار داخليّ للنّفس مع ذاتها**، كما كان يقول ‹أفلاطون›. هو دهشة وقدرة ثمينة على الانشطار والبقاء على مسافة من الذّات، لكي نكتشف أنّنا لا نُخْتزل فيما نعتقد أن نكون عليه في لحظتنا الرّاهنة. الحياة الدّاخليّة الّتي أمرها بيدنا مباشرة، حتّى إن نزعنا إلى نسيان ذلك، تتمظهر هنا. إنّها تُحَرِّرُ. ها نحن أقوى من أيّ عذاب قاسيناه، ومن أيّ غمام أتى ليشوّش نور الصّباح. ستشرق الشّمس من جديد. هكذا يعلن الفكر، في هدوء، عن تذكير بسيط. وإذا بالمشهد الدّاخليّ يكذّب العالم الآنيّ، لكي يرسي المستقبل، أو بكلّ بساطة [يعلن] عن وعد الزّمن. الفكر سفر، خارج ضغط الزّمان والمكان. لأجل هذا، لا بدّ من الانتباه إلى الإمكانات واتّخاذ قرار لاستخدامها. يُكْتشَفُ الوعي إذن، على أنّه أثرى ممّا يهوسه، هنا والآن.

«في شيء آخـر». وهو لا يعتقد كثيرا فيما يقول. ستنشـأ قريبا، عن الفكر الّـذي يحرّر، حياة أخرى، وزمن آخر. سـتكون السّـاعة السّـعيدة تلك التي نكتشفها ونحبّها. تلك التي تهب اسمها إلى حلم كلّ واحد منّا، عندما يُلقي على العالم نور انتظار وأمل: إنّها السّعادة.

يمكـن أن يبـدو عسـيرا التّملّص مـن الهمّ الّـذي يتملّكنـا، لكنّ هذا ممكن. تكفي معرفة ذلك، حتّى يحصـل الانعتاق من ضغط اللّحظة. يتعلّق الأمر، حينئذ، بالدّخول في فسـحة ذاتيّة، لتذوّق الانفراج [الّذي تحدثه] المسافة، والكفّ عن الاستسـلام. الـشّروع في هذا التأمّل هو تذكـير للذّات، وتحرّر إجمالا. فالحياة حرّيّة. واتّخاذ مسافة من هذا القبيل، يُؤكّد ذلك.

لننشّط الذّاكرة كي نستحضر لحظات أخرى من الحياة، فنعرف أنّ المحنة الحـاضرة ليسـت نهاية المطاف. لننشّـط الخيـال، حتّى تذوّق قدرتنـا على إعادة تركيـب العالم؛ وربّما الفعـل فيه، في يوم من الأيّام، حتّـى يكون أقرب إلينا. لننشّـط التّفكير الّذي يجرّد الأشـياء المكبّلة من لغزهـا، ويحيل ما يحدث إلى أسـبابه. لنقرن بين الذّاكرة والخيال وبين التّفكير والحساسيّة. لننتبه إلى الزّهرة الطّريّة، وإلى تحليقة العصفور الّذي يجيل نظره في السّـماء، وإلى الظّلال الّتي تعيد رسـم الواجهات. وباختصار، علينا أن نعرف كيف نتذكّر الحضور في العالم، بـدل أن نغرق في الهوسَ الّذي يخزنـا وخزا. لكن علينا أن نعرف أيضا كيف نتذكّر قدرتنا العجيبة على الغياب فيه.

ومهما اعتقدنا أنّنا تعسـاء، فإنّنا حينئـذ، نخوض تجربة مصيريّة. فحتّى حزننا وكآبتنـا يصبحـان بمثابة نظرة [نلقيها] على الأشـياء، نظرة متحـرّرة ومنعتقة من كلّ شيء. مشـاعرنا هي لنا، ولكنّنا لسـنا لها بكلّيتنا. وهكذا، تكون ذكرى سـعيدة قائمة على النّقيـض من يأس الحاضر، تُذَكِّـرُ بأنّه لا يمكن أبدا، للحظة مّا، أن تلخّص وحدها الحياة برمّتها. وهكذا ترسم ابتسامة شخص نلاقيـه في الطّريـق وَعْدًا بلقاءات جديدة. أن يعرف المـرء كيف يفكّ وثاقه، لينفتـح على مـا يمكن أن يحدث مجدّدا، معناه أن يكون العيش وعدا – أو هو يصبح كذلك من جديد – ويقتضي نظرة طفل جديدة للاستفادة من ذلك.

فإذا لم يتحرّر الوجود من عاهاته الظّرفيّة، تفيض حياة الوعي باستمرار عن حدودها. إنّها تُعِدُّ على هذا النّحو، القوّة للوثب. الخيال والذّاكرة والتّفكير الشّريد، يتصرّف كلّ واحد منها، على نحو يسمح له بالتّخلّص من الهوس المفروض من ضغط اللّحظة. زد على ذلك أيضا، أنّه لا يجب أن يغيب عنّا أنّ قدرةً من هذا القبيل موجودة فينا. وفي حال تعذّر عليها إعادة فتح سبيل السعادة لوحدها، فإنّها تُذَكِّرُ بوجودها. وهذا يستدعي أيضا تعلّم كيفيّة الاستمتاع بهذه القدرة عند الاعتناء بها، فتصبح عندئذ متاحة، بما في ذلك ساعة يبدو الوجود المباشر، وكأنّه غمر كلّ شيء.

[يتعاقب] زمن الفرح وزمن الألم. ولا بدّ من حسن استثمار التعاقب ذاته على الوجه الأمثل. ألم يكن «سقراط» يقدّر متعة الانفراج، والطّابع النّسبيّ جدّا للآلام الّتي كانت تكبّله، وقد تحرّر من القيود الّتي كانت تجْرَحُهُ. إنّها لمعرفة ثمينة لساعات الألم الآتية الّتي قد يعيشها المرء، دون أن تغمره تماما. إنّ الإنسان ليبذل قصارى جهده لكي يستعدّ للصّبر على الحياة، ويُهيّئ القدرة على التّخطّي. ففي الأيّام السّعيدة أشياء عدّة تستدعي إنجازا. تقوم الأيّام السّعيدة شاهدا [على السّعادة] فيغتني الخيال وتُصقل الذّاكرة الّتي تخزنها. على هذا النّحو، تُبْنَى الثقة الدّاخليّة التي تتدعّم بفتوحات الحياة. عندما يحلّ الحزن، في صورة ما إذا أتى، يجد المرء بحوزته عالما داخليّا ينقذه من الغرق.

إنّ اتّخاذ الوعي لِمَسافة لهو نقطة ثبات يقاوم الملل والضّعف والعلق في دوّامة العواطف. لقد كان «مارك أورال»[1] (Marc Aurèle) والرّواقيّون يتحدّثون في هذا الشأن عن قلعة داخليّة. هنالك شيء منيع لا بدّ له أن يتشكّل، ويسمح بالمواجهة، ويعطي الفرصة من جديد لاستعجال السّعادة. بهذا الشّكل يتأكّد طعم الحريّة ويعلن عن أفراحه.

1- «مارك أورال» : إمبراطور وفيلسوف رومانيّ. عاش ما بين 121 و180 ميلاديّا. تقلّد الحكم وهو في سنّ الأربعين واستطاع أن يدير شأن الإمبراطوريّة بكثير من الحكمة والصّبر. وما يبعث الإعجاب في شخصية هذا الإمبراطور هي قدرته الفائقة على إنقاذ الإمبراطوريّة في أحلك الفترات وأعسرها. عرف بتبنّيه للفلسفة الرّواقيّة وتخصيصا فلسفة «إبيكتات». جعل من التّواضع والدّفاع عن قيم العدل والصّدق والوفاء قاعدة لتصرّفاته الشّخصية والسّياسيّة، بحيث لم تمنعه عباءة الإمبراطور من الذّهاب للاستماع إلى دروس في الفلسفة والأدب.

إذا كان للفلسفة بعض القيمة، فإنّ ذلك يكمن أساسا، في ما أسهمت به من إذكاء للوعي. على هذا النّحو يتأكّد الفكر ههنا، بما هو فنّ العيش ودربة على الحرّيّة وممارسة فرحة بالطّاقات الإنسانيّة. إنّها تعطي للخيال والذّاكرة ولسحر الإدراك الشّعريّ ونزهات التّفكير الدّاخليّة كلّ قواها الخاصّة. إنّها فرحة متعدّدة الشكل لنزهات داخليّة ممكنة للجميع. أجل. لنتذكّر كتاب نزهات داخليّة، نزهات تغذّت بأفضل ما في الحياة.

تأمّلٌ في الحياة.

هل كانت الفلسفة تستحقّ منّا عناء ساعة واحدة، إن هي لم تساعدنا على أن نكون سعداء؟ لقد تفشّت كراهيّة، صوّرت لنا الفلسفة على أنّها محض نظريّة مجرّدة وعويصة، لا صلة لها بالحياة العمليّة، في حين أنّ معظم الفلاسفة، إن لم يكونوا كلّهم، فهموها وفكّروا فيها على أنّها فنّ حياة، وحكمة بالفعل. وهي لا تكتفي بتنمية النّظر المتبصّر للعالم والفعل، بل تضطرّ إلى ضرب من ضروب التّصرّف، لكي تترجم ذلك عمليّا.

أقود تصرّفاتي ولا أكون خاضعا. يتعلّق الأمر ههنا، بالحرّيّة على وجه التحديد. فالكائن الحرّ يتحكّم في أفكاره، ولكنّه يتحكّم أيضا في مشاعره، من ألطفها إلى أعنفها في حدود الإمكان. تحكُّم من هذا القبيل يجعل بالإمكان أيضا التحكّم في الأفعال بتسليط الضّوء عليها. إنّه صفاء فاعل، لا يلغي الكروب والشّكوك والرّيبة وضروب القلق، وكأنّه ضرب من السّحر؛ وإنّما يجعل القدرة اللّامتناهيّة تقريبا للوعي بيّنة، عندما تُقرّر أن تتأكّد. يتعلّق الأمر إذن، بعيش الفكر على أنّه تحرّر، لا على أنّه ملاذ. إنّ وطأة الواقع لن تخضع هذا الفكر إلاّ لكي تقضي على إنسانيّة الإنسان. ههنا، جرّبت المحاولات القمع. إنّ سياسة السّعادة ليست الإكراه الذي يفرضه نموذج موحّد للاكتمال، بل هي، على عكس ذلك، رهان الحرّيّة الذي يقرّر إحياء ثراء الممكنات.

يمكن للفكر ذاته أن يكون بالتّأكيد، طريقة من بين طرائق ممارسة اتّخاذ مسافات بين الأشياء والحياة، لا لشيء سوى لإبراز ما يشهد بالسّعادة، سواء بما

هي خطاطة أو بما هي وعد. الفكر فَرحٌ. وهو كذلك بطاقاته الخاصّة التي لا يمكن لأيّ كان أن يسلبه إيّاها. فأن يفكّر المرء، أو أن يعيد النّظر في عواطفه وصوره الدّاخليّة لكي يتّخذ منها نظرة رصينة، فيحاول إعادة تملّك ضرب من المعيش لكي يفهم فيه معناه ودوافعه، أن يتردّد إزاء تصرّف يقوم به، وأن يتّخذ خيارا، هي جميعها ضروب من أفعال الفكر. ويعسر على المرء أن يتصوّر حياة إنسان، دون هذا الفعل الدّاخليّ الذي يغطّي بعدُ شكلا من أشكال الوجود، في الوقت نفسه الذي ينظّم فيه القسم الأكثر جلاء للفعل. إنّها سعادة التفكير، سعادة تحقيق السّلم الدّاخليّة التي لا تلغي المشاعر القويّة، وإنّما تنمّي القدرة على التحكّم فيها. وهذا يعني أنّ ملكة التّفكير تعرف كيف تهب لنفسها أفراحها الخاصّة و«عواطفها الدّاخليّة». لقد كان ‹ديكارت› يسمّى «نفسا» ما يسمح بالتّفكير، على مسافة من الانطباعات والانفعالات التي تولّدها الصّدمة مع الأشياء الخارجيّة، وقد كان يؤكّد أنّ لهذه الملكة التي للنّفس القدرة على استحثاث أفراحها الخاصّة باستعمال سلطة، هي سلطة النّفس دون سواها.

في عالم ممزّق، أين يبدو الرّجاء في السّعادة مصطدما باستمرار بالأشكال الجديدة للألم ونكد العيش، وأين يكون الثّراء المادّيّ الموزّع توزيعا سيّئا بالتأكيد، غير قادر على تحقيق أيّ وعد من الوعود التي اقترنت به، كما يظهر ذلك للعيان، آن الأوان لإذكاء الطموح إلى السّعادة. سيكتمل الفكر بما هو تأمّل في الحياة. الحكيم ‹سبينوزا› هو الذي تحلّى بالشّجاعة العاديّة لهذا المشروع، وهو في عزلته القاتلة. إنّه تأمّل في الحياة لا في الموت، ولا في التّعفّف الذي يولّد الرّؤية المتطيّرة فيها. لنحمل لفظ الدّعوة على معناه الحرْفيّ، ولنتأمّل الحياة بما هي قوّة متعدّدة الأشكال للسّعادة.

اختراع الحِكَم

لا توجد بحقّ وصفات للسّعادة. هناك، على أقصى تقدير، نصائح، أو ضرب من التّذكير، لما يقدر كلّ شخص على فعله لكي يكتمل. أشياء عدّة، هي للوهلة الأولى، ليس أمرها بيدنا، بحيث تقف الرّغبة في الحياة منكسرة أمامها. هكذا تكتشف الطفولة الأولى عالما يفوق قدرتها، وتحاول السّكن فيه بسحر

النّظرة إليه. غير أنّ مجرى الأحداث يواصل مساره ويقاوم الرّغبة. على المرء أن يتعلّم كيف يحيا على نحو مّا، دون أن ينسى الأفراح الأصيلة، أفراح الحضور البسيط في العالم.

إنّ نصائح الحكماء المحرّرة في قواعد عمل لا قيمة لها، دون إرادة حرّة. لا أحد يقدر أن يفكّر نيابة عنّي، ولا أن يحيا حياتي. إنّ هذا الوجود المُهْدَى إليّ هو وجودي، لا وجود إنسان آخر. إنّها تجربة فريدة مبتكرة، مع انسياب الزّمن وتتابع الأيّام. إنّ اللّغة الخرساء للمشاعر الحيّة تنسج عالما، وملايين العوالم تتقاسم الوجود في لقاءات لا محدودة.

هل بإمكاننا تخيّل فنّ عيش شبيه بمهارة تقنيّة؟ الوهم يغري، إذ هو يسمح بالهروب من الرّيبة والقلق الذي يقف على عتبة الفعل، عندما يتنازع الأمل والخشية الوَعْيَ. لكن لا بدّ من الاحتراس ههنا، فليس لفنّ العيش أن ينتج أثرا خارجيّا، كما يفعل الحِرَفيّ عندما يشكّل أثره. فأن يفعل المرء هو أن يكون، وأن يكون على نحو مّا. فالأسلوب، ههنا، هو الشّخص البشريّ، وقد كان «سارتر» يذكّر بأنّ المرء يصنع نفسه وهو يعمل. ومع القلق القائم في قلب الفعل، يكون ذلك شاهدا على ما يكونه المرء. دوّار إلى آخر نفس. أكون حرّا في إعادة تعريف ذاتي، وفي صنعها وإعادة صنعها، إذا كانت الحياة تفهم، على الأقلّ، بأنّها نزوع دائم نحو ممكنات، لا يمكن نفادها في أيّ وقت كان. إنّ فنّ العيش لا يعدّل نفسه على أيّ نموذج يحاكيه في تبعيّة، حتّى وإن قامت أمثلة حياة مقام جُدَّات على الطّريق وبلورت الطموحات. فنّ الحياة هو أن يعرف المرء كيف يختار وجهته ويتّجه نحو ذاته، بما هو كائن مستقلّ لا يتبع أحدا. إنّه فنّ حرّيّة، يكتفي بذاته، كما رأى ذلك الرّواقيّون. وليس يعني ذلك أنّه يستبعد العلاقة بالغير وملذّات الحبّ أو الصّداقة. إنّه بالعكس، يحملها إلى الأحسن، عندما يخلّصها من كلّ مقاربة نفعيّة وغَرَضِيّة.

فنّ الحياة بناءٌ للذّات واكتمال حرّ، إلّا أنّه لا يتوافق مع أيّ يقين يخصّ الأشياء التي لا ترجع بالنّظر إلى المبادرة الإنسانيّة. إنّ عجلة الحظّ تدور، دون مراعاة انتظاراتنا، فإمّا أنّها تغمرها أو تخيّب ظنّها. ولا شكّ أنّ علينا قبول ذلك. أن يحيا

المرء هو أن يجازف. والحكمة هي أن يتحمّل مسؤوليّة ذلك، قبل كلّ شيء. لا يمكننا أن نعرف، أبدا، إن كانت المبادرة ستحقّق مأربها بسهولة، حتّى وإن أنعمنا فيها النظر. إنّ فنّ العيش يتضمّن الوعي بإمكان الفشل ويتوقّعه حتّى للتّحسّب من الأخطار. أمّا الحرفيّ فهو ليس كذلك، إلّا لأنّه يؤمّن فعله وينتج أثرا متطابقا في كلّ جزئيّة مع ما كان يريد. فلكي يملّس خشبا يستعمل مِنْجَرًا في نفس اتّجاه ألياف الخشب، وما يحصل عليه من سطح أملس جميل يضع في الميزان تقنيّة متحكّما فيها جيّدا، هي «لمسة يد ماهرة»، اكتُسِبَتْ بالمراس والعادة. لكنّ الحياة متخشّبة، ولا شيء يقدر على تمليسها. وما من عمل يقدر على إخضاعها وتشكيلها لمقاس، كما يفعل الحرفيّ بالخشب. فنّ العيش ليس تقنيّة، ولا يمكن صنع سعادتنا كما نصنع أثاثا أو منزلا.

تجّار السّعادة مشعوذون: فهم يزعمون إعفاء من يغدقون عليهم المال، بدافع الضّعف أو الجهل، من جهد التّفكير. يسقطون هذا الجهد باسم الحياة العمليّة والعينيّة. إنّه رفض ظلاميّ، يحوّل الشهادة العفويّة للّحم الحيّ والمشاعر زاعما أنّ ذلك كاف، وأنّ المرء غير مؤهّل للتّفكير. «هذا صحيح نظريّا وليس عمليّا.» إنّ هذا العماء مثمّن ومتّسع الانتشار. لديكم عيون، لكن حذار أن تستعملوها. يّذكّرنا أوديب أنّ عيني الوعي العقلانيّ لا يمكنها، مع ذلك، أن تلجأ إلى عيني اللّحم. وكلّ ما فعله ليهرب من قدره ساهم في تجسيم هذا القدر، رغما عنه. المظاهر هدّامة، وكذلك الشّأن بالنّسبة إلى دوافع الرّغبات الفجّة. المأساة هنا تقوده إلى الرّعب: سيفقأ عينيه. يقول «ديكارت»: إنّ الرّافض لممارسة الفلسفة هو كمن اختار العيش في العمى. إنّ من يجعل من التّجربة الحميمة للفكر حجّة على الوجود - فأن نفكّر هو بالضّرورة أن نكون- ليس له من قصد سوى الحكمة، تلك التّي تغمر الفكر وتحقّق الإنسانيّة. إنّه لا يعتبر التّفلسف ضياعا في تأمّلات. يتعلّق الأمر باستعمال المرء عقله ليحسن التّصرّف، ويفعل ذلك على أفضل وجه. محبّة الحكمة، وهي تطبّق في الحياة اليوميّة، تعطي للفلسفة معناها ومبرّر وجودها. لقد رسمت على رخام الثّقافات الأقوال الحيّة التي يحسن بالمرء أن يتغذّى بها. حكم مبتكرة لنعطيَ السّعادة حظوظها.

كمة هي أن يتحمّل مسؤوليّة ذلك، قبل كلّ شيء.
ـدا، إن كانت المبادرة ستحقّق مأربها بسهولة، حتّى وإن
نّ العيش يتضمّن الوعي بإمكان الفشل ويتوقّعه حتّى
أمّا الحرفيّ فهو ليس كذلك، إلّا لأنّه يؤمّن فعله وينتج
جزئيّة مع ما كان يريد. فلكي يملّس خشبا يستعمل
ياف الخشب، وما يحصل عليه من سطح أملس جميل يضع
كما فيها جيّدا، هي «لمسة يد ماهرة»، اكتُسِبَتْ بالمراس
متخشّبة، ولا شيء يقدر على تمليسها. وما من عمل يقدر على
ا المقاس، كما يفعل الحرفيّ بالخشب. فنّ العيش ليس تقنيّة،
ادتنا كما نصنع أثاثا أو منزلا.

عوذون: فهم يزعمون إعفاء من يغدقون عليهم المال، بدافع
من جهد التّفكير. يسقطون هذا الجهد باسم الحياة العمليّة
ظلاميّ، يحوّل الشّهادة العفويّة للّحم الحيّ والمشاعر زاعما أنّ
المرء غير مؤهّل للتّفكير. «هذا صحيح نظريّا وليس عمليّا.»
ن ومتّسع الانتشار. لديكم عيون، لكن حذار أن تستعملوها.
أنّ عيني الوعي العقلانيّ لا يمكنها، مع ذلك، أن تلجأ إلى
لّ ما فعله ليهرب من قدره ساهم في تجسيم هذا القدر، رغما عنه.
كذلك الشّأن بالنّسبة إلى دوافع الرّغبات الفجّة. المأساة هنا
: سيفقأ عينيه. يقول «ديكارت»: إنّ الرّافض لممارسة الفلسفة هو
يش في العمى. إنّ من يجعل من التّجربة الحميمة للفكر حجّة
فأن نفكّر هو بالضّرورة أن نكون- ليس له من قصد سوى
د التّي تغمر الفكر وتحقّق الإنسانيّة. إنّه لا يعتبر التّفلسف ضياعا
لّق الأمر باستعمال المرء عقله ليحسن التّصرّف، ويفعل ذلك على
حبّة الحكمة، وهي تطبّق في الحياة اليوميّة، تعطي للفلسفة معناها
. لقد رسمت على رخام الثّقافات الأقوال الحيّة التّي يحسن بالمرء
جيرة لنعط... ـظوظها.

القسم الأوّل

صبرُ العيشِ

حكاية

الطّفل والتّكهّنات

ينتظر الطّفل الطّيور. سماء رحبة مقسّمة تستقبل نظرته. على يسار شجرة الحور، رسم الأمل زخارفه. من المفروض أن تظهر من هنا. وإذا به يتخيّل، بعدُ، رفرفة أجنحة وارتجاجا موزونا يؤثّر في السّماء برمّتها. يراهن الطّفل. يدخل في ضرب من اللّعب مع ذاته، مثلما يقصّ المرء على نفسه حلم الحياة، بكلّ ما يحتويه من أمنيات متحقّقة. هكذا يُجرّب المرء حظّه ويعلن تحدّيه للمستقبل. على يسار الشّجرة الشّبيهة بخطّ أسود غليظ على صفحة السّماء، يَتدفَّقُ منظر الأمل. ستطلع الطّيور من الأفق، وتنبعث الحياة في السّماء، وسيكون الرّيف جميلا بكلّ ضروب الحياة النّاشئة فيه. على اليمين، لا شيء غير الرّيح والصّحراء. ومع ذلك، أليس [تحديد] مواقع الأشياء والكائنات هو محض صدفة؟ لقد حدّدت الرّغبة البشريّة قسمتها، وهي تنتظر عالما على مقاسها. هي سعادة مبهمة، دون ملامح بيّنة. حضور خالص يشعر به المرء ويتذوّقه. سعادة متخيّلة، دون جُدَّات ولا مسالك مضبوطة، ولكنّها حقيقيّة، على قدر ما يكون اللّعب الذي يخترع الطّفل فيه القواعد فعليّا. عالم البشر ههنا يبحث عن ميلاد وسيستجيب للرّغبة. ننتظر... سيكتشف اشتداد الأمل واقعا يقاوم، غير متلائم منذ البدء مع ضمإ العيش. الطفولة هنا تنعكس على أوّل منظر طبيعيّ: إنّه سحر عالم مقدّس، بواسطة حلم اليقظة سيخوض اختباره الأوّل.

الأمل. ستأتي الإشارة. ضربات جناحين بسيطة، ارتعاشة الهواء تُرْجِع صدى ضجيج الشجرة السّوداء. أصبح الانتظار ارتعاشة لذّة استباقيّة. نعم. ستظهر

العصافير بالتّأكيد من هذه الجهة. الطفولة الدّائمة لا تشكّ. ههنا يكمن سرّ الثّقة الأصيلة. تبدأ الذّاكرة حياة داخليّة، ترتجف كلّها لمشهد الأشياء، ذاكرة جاهزة تماما أيضا لاستقبال ما سيأتي. وترتسم الابتسامة على شفتين جاهزتين، لإطلاق صرخة فرح، لحظة الإشارة المنتظرة. من يفسّر سحر نظرة مندهشة أقام فيها الضّياء منبعه السّاطع؟ إنّ هذا الانتظار المصطنع لهو بالتحديد، شبيه بلعب الطّفل مع نفسه. تحليق العصافير لا يرجع بالتّأكيد، إلى النّظرة التي تحدّق في السّماء. ومع ذلك، لولا هذا الرّهان الدّاخليّ المتشكّل في أولى صوره، هل كان للحضور في العالم أيّ معنى بالنسبة إلى الإنسان؟

إن جاءت الطّيور من هذه الجهة من السّماء، كان الفوز بالسّعادة! الانتظار انتباه. ملامح الأشياء تصبح مألوفة: ينبثق عالم مّا. والسّماء المقسّمة هي، من الآن فصاعدا، موجّهة، لابدّ لها أن تجيب، بالتأكيد، عن السؤال الذي يتفحّصها في صمت وعناد. عطالة الأشياء مطلوبة. معنى ذلك أنّ نظرة إنسان تبرز ههنا.

هنا، في الأسفل، تستيقظ الأعشاب ويكثّف الماء المنزلق إلى عمق الأوراق [نور] الشّمس. ألف نفس للحياة تتداخل بغرابة. الوردة، أحاديّة الشّكل بغشائها، تجعل المشهد الطّبيعيّ ملتبسا. بين السّماء والأرض، يأخذ الانتظار مساحة مجاله. النّفل[1] ذو الأوراق الأربع يلعب لعبة التّخبئة [الغمّيضة].

ما الطّفولة؟ إنّها نظرة مّا، تعرّي تماما الصّدفة أو الحظّ. وهذا يدلّ على أنّ نظام الطّبيعة ينكشف قبالة الرّغبة الخامّ، العفويّة. وبحكم إجلال الإشارة المنتظرة، يضفي المرء معنى على مشهد الأشياء. إنّ تحليق الطّيور ليخرج عن المألوف. تتخلّص الحياة من تكرارها. ألا يكون الانتباه هو الشّكل الأوّل للحكمة، وقد تشبّعت بأمل رصين؟ لكن علينا ألاّ نخطئ. فالإنسان الذي ينعكس على هذا النّحو، في سيناريوهات المنظر الطّبيعيّ، لا يمكنه أن ينسى بأنّ لذّته تحوّلت إلى وعي، وأنّه خلق لنفسه عالما. لقد حدّدت اللّذّة ببساطة قاعدة

1- النّفل: نبت سنويّ أو معمّر، ثلاثيّ الأوراق، من فصيلة القطانيّات؛ زهره بعضه أبيض وبعضه الآخرورديّ أو أصفر. طيّب الرّائحة ورحيقه غذاء جيّد للنّحل. لكن الطّريف أنّ الكاتب يتحدّث عن نفل رباعيّ الأوراق، ممّا يدلّ على أنّه يعني نبتا خياليّا استثنائيّا

اللّعب، وقاسـت، على هذا النّحو، قوّة طراز من الحرّيّة إنسـانيّ صرف... يتعلّق الأمر، بالتأكيد، بفهم ما هو كائن، مع رسم الممكن فيه، هذا الممكن الذي يستجيب لظمإ العيش. تجلب لعبة اللّذّة للوعي جُدّة أولى. وإذا بالأفق جاهز.

لقد طلعت الطّيور من الجهة الملائمة؛ فكانت السّاعة السّعيدة. فما الحظّ؟ إنّه توافق غريب بين الزّمان والمكان، أعطى الحقّ للّذّة. يكتشـف الطّفل عصافير حسـن الطّالع. تعلن الحياة عن نفسـها. إنّها بهجة، بهجة اللّعب ورهانها السرّيّ، بهجة الرّبح، ومجازفة الخسران. ولا بدّ بالتّأكيد من قبول هذا مع ذاك. الطّفل يغتبط. سـعادة تقوم برمّتها في اللّحظـة الرّاهنة، تجعل الكون يضحك برمّته، وقـد أضحى شريكا. ومع ذلك، لم يكن هذا سـوى لعبـة. لعبة الوعي مع نفسه.

طيور حسن الطّالع استقْبِلَتْ وكأنّها السّعادة الحقيقيّة، لأنّها تحيل ولا شكّ إلى سرّ الأمل الذي يحرّر ويكتشـف. الإنسـانيّة الحرّة تستيقظ، إذن، إلى ذاتها. إنّها تقدّر هنا مجالها الخاصّ، وهو مجال شاسع. إنّ الفأل ليضاهي الوعد والدّعوة إلى بذل الجهد: إنّه يرسم اكتمالا. وهذا يعني أنّه يوحي بحظّ لا يرجع فيه الأمر إلاّ إلينا، إذا عقدنا العزم على فعل ما بالإمكان، وإذا ما اضطلعنا بما نريد، دون ضعف.

الدّرس الأوّل

لعبة الحلم والصّدفة

طفولة النّظر

الطّفولــة ضرب من النّظــر، ولا يجب أن تبارح البشر، بــل ولا يمكنها أن تفعــل ذلــك. إلاّ أنّ المرور بالمحن يبدو أنّه يواريهــا أحيانا. يجب إذن، ذكرها وإعــادة ذكرها، حتّى تُعيدَ إليها الكلماتُ الحيــاةَ على الأقلّ، وتدبّ الحياة في الوعي المغتال.

أثنــاء الطفولة الحالمة، تبدو القــدرة على تجاوز حــدود اللّحظة الحاضرة، بل والمحنــة الرّاهنة، أمرا لا شــبهة فيه. فالحلــم بعينين مفتّحتين، والدّهشــة من أن تكون الأشــياء على ما هي عليه، هو الاستعداد لاســتقبال أفضل ما في الحياة، أي البقــاء مفعما بالفضول. القدرة على السّــعادة تتجذّر في هــذا الفضول الّذي كان «أرســطو» يعتبره الاستعداد الفلسفيّ بامتياز. يكفي النّظر إلى طفل، وهو يكتشــف تُوَيْجَ زهرة، وهو يأخذها بين أصابعه والظّهور بمظهر المتأمّل تقريبا أمامها، لكي يتذكّر بأنّ كلّ شيء يمكن أن يكون هبة، تمنح المتعة وتجلب نفعا. تســتمدّ السّــعادة منبعها من هذا الاســتعداد للمســك بثراء الواقع فتطرد الملل، حتّى وإن كان المرء وحيدا. يتشكّل نوع من صبر العيش في الصّبر إزاء الأشياء والكائنات التّي نلاحظ، حينئذ، وكأنّ واقعها كان فريدا. إن تباطؤ النّظر يتشــبّع بالموضوع فيرســم فيه ملامحه، دون انقطاع. وشــيئا فشيئا، يكون العالم برمّته هكذا قد اكتُشــف وأعيد اكتشــافه على شاكلة مشهد. الطّفل

يلعب. واللّعب لا يحشد.[1] إنّه يترك كلّ شيء لذاته يلمسه، لا لكي يأخذه، وإنّما ليألفه ويفكّ لغزه.

أن يعرف المرء كيف يلعب، ما بعد سنّ الطّفولة، معناه تذكّر ميزة لضرب من العلاقة مع العالم. فالرّغبة عينها في اللّعب لا يمكن أن تبحث عن الاستئثار بالأشياء. إنّها تستمتع بها في اللّعب، دون أن تستعملها. وهكذا تستخدم الرّغبة نفسها بنفسها بلا حدود، في حالة من ضبط النفس، هي أيضا انخراط عفويّ، متعة صافية. فالتّملّك أو الاستهلاك ليس إلاّ الثّروة الدّونيّة للحياة البشريّة، في تأمّل لوحة وفي نشوة صامتة أمام مشهد طبيعيّ يكتمل ضرب من تجربة استمتاع حرّ. ألا يكون ربط الرّضا بملكيّة الأشياء الخارجيّة استعبادا؟ حينئذ، يجب من الآن، تعلّم النّظر إلى الأشياء بما يتهيّأ لنا فيها متوافقا مع انتظاراتنا، واعتبارها بمثابة عطايا غير منتظرة. ومع اليقظة الّتي تحبط الوهم تكون الأشياء غير موجّهة إلينا، فهي لا تخدمنا، لكنّها تُعْرَضُ عَلَيْنَا ببساطة بفضل شفافية أشكالها وانسجام ألوانها وملامحها وبداهة حضورها الحسّيّ. فأن يعرف المرء كيف يتأمّلها لا غير، معناه أن يكون حرّا وينمّي حرّيته. وهذا يعني أيضا اتّخاذ جمال العالم شاهدًا، قصد مقاومة كلّ ما يسعى إلى القضاء عليه لاحقا. العديد من المناهضين للبربريّة كانوا يحملون في داخلهم شيئا من الشّعريّة. على قدر رفعة الإنسان، تُعِدّ طفولة النّظر لمعارك العدالة.

الحلم بالعالم

الحلم بالعالم ليس، إذن، استبداله بآخر خياليّ تماما، وإنّما السّكن فيه كبشر، وممارسة الحقّ في إحساس بكر وصاف، إحساس يستكشف العالم، قبل أن يَسكنه الوسواس، وبمعنى مّا، قبل أن يشوَّه بأحزانه واستتباعاتها الوعي. الإحساس، حسب «أبيقور»، لا يخطئ أبدا. المهمّ، فقط، ألاّ يخطئ المرء نفسه في شهادته بجعلها مشوبة بانفعال مُغرض ضرورةً. سيثمّن المرء [هذا الإحساس]، حينئذ، عاريا، وسيعرف كيف يتجنّب ما يسبّب الضّيق، ويحثّ عمّا يمثّل مصدر

1- حَشَدَ: بمعنى جنّد، أو دفع شخصا مّا، إلى الانخراط في حزب، وما يستتبع ذلك من فرض لنمط من التّفكير والسّلوك، وهو أمر معارض لوضع إنسان يمارس أفعاله وفق إرادة حرّة.

المتعة. إنّها متعة حسّـيّة ثمينة لاحتلال موقع في المشـهد. الماء العذب يروي. والنّور السّـائل الّذي يجري في باطـن الكفّ هو، قبل كلّ شيء، هـذا المذاق العذب. شمس الصّباح تعمل على إشاعة الإحساس بالدّفء على البشرة المكشوفة، وليس هذا بأمر مبتذل. عذوبة الخريف تحفّز على هدوء كئيب، وهي الطّريقة الّتي تسمح للوعي أن يستغرق في التّأمّل فيما هو نادر، على الرّغم من الصّور المتوافقة.

لكنّ الحياة لا تنتظر. الشّـكل الحـرّ للّذّة والمتعة لا يكفي فيه اللّعب. فهو يحدّد أولى منابع السّـعادة، منبع اكتشف قبل كلّ المغامرات الاجتماعيّة. ويأتي سريعا زمن اكتشـاف حقيقة تقاوم بفرض تأجيل إرضاء الدّوافع العفويّة، على أقلّ تقدير. لقد أكّد «فرويد» أنّ الدّور الّذي يقوم به ضرب من الوضعيّة الأصليّة يمكنـه أن ينحو منحيـيْن متعارضين: إرضاء الرّغبات ومـا يتبعها من متعة، أو كبت، والعذاب الّذي يصاحبه. إنّها جُدَّات فريدة، ومتفرّدة، ترسم قريبا التّاريخ الدّاخليّ لكلّ شخص، فتنزع العلاقة بالعالم إلى أن تكون بمثابة انتظار.

ما أمره بيدنا

سـواء لبّى العالم رغبتي أم لم يلبّها، فإنّني سأكتشـف الواقع المستقلّ، مجهّزا بقوانينه الخاصّة والغريبة، بهذا المعنى. صبر آخر يجب، حينئذ، أن يسـتجيب إلى مثل هذا الاكتشاف. ثمّة أشياء أمرها بيدنا، وأخرى خارجة عنّا. يجب علينا أن نتعلّم احترام هذه القسمة، دون رفض لإعادة تعريف مداها العينيّ، متى أتيحت الفرصـة لذلك. فكم من ألم كان بالأمس، لا مناص منه، أصبح اليوم مخفَّفا بالطّبّ: إنّ مجال الأشياء الّتي أمرها بيدنا يمكن أن يتّسع، والوضوح الضّروريّ للتّمييـز، في كلّ ظرف، لا يمنع البتّة من اسـتدعاء الحدود المرسـومة. القبول الهادئ ليس إذن استقالة سلبيّة، ولا قدريّة مُحْبَطة. إنّ هذا الانضباط الصّارم هو الّذي يشـكّل كلّ عظمة الرّواقيّة. إنّـه يجلب الفرح الّذي لا يُتجاوز لمجاهدة النفس، أو، بالأحرى، الانتصار على كلّ ما يُؤدّي إلى الاعتداء على قوّة الذّات، بما هي مبدأ الحرّيّة. إنّ تنظيم التّطلّعات، وضبط الرّغبات، لا يعني تنحيتها جانبا، ولا الإعـداد لرفضها، بل، بالعكس، هـو أن يكون المرء قادرا على تلبيتها في اكتمالها. فالّذي يركّز اهتمامه، اليوم، على ما هو تحت تصرّفه، يتجنّب الإرهاق

الّـذي لا طائـل من ورائه، والإحبـاط الّذي يشـكّـك في كلّ مبادرة. يمنح نفسـه حبورا مضاعفا في حركة واحدة: ذلك الانتصـار الدّاخليّ على اندفاع أعمى، وذلك التّصرّف النّاجع الّذي سيأتي في الوقت المناسب. في هذه الطّريقة الّتي يرسـم بها مجال الممكن، لا توجـد قدريّة بتاتا، ولا انتظاريّة على الإطلاق. المهـمّ ألّا نخطئ في تقدير مجاله الممكن. إنّ الفكر السّـياسيّ والنّظريّة الإتيقيّة وغيرها، هي أشـياء تحت طائلتنـا. وفعلا، فَمَنْ غير الإنسـانيّة يفكّر في المدينة وينظّمها، ويعرّف قواعد الحياة فيها؟ «افعل ما يجب فعله وليحدث ما يحدث»... إنّ خطاب الوعظ الشّـهير لا يعـير النتائج أيّ اهتمام. إنّه لا يفعل سـوى إعادة تأكيد القسمة، قسـمة ما أمره بيدنا، وما يعود أمره لحتميّة أوسع، مكوّنة من سلاسل من الأسباب تكون السّيطرة فيها خارجة عن نطاقنا.

لننتظر حتّى تتغيّر الأحوال

بالنسـبة إلى الأشـياء الّتي أمرها ليس بيدنا اليوم، علينا أن ننتظر حتّى تتغيّر الأحـوال. ذلك هو أيضا صبر العيش. صبر الفكر الّذي يعرف كيف يتّخذ مسـافات، صبر الشّجاعة الّتي تتحمّل. وفي الحالتين، يتعلّق الأمر ببقائنا أحرارا، إزاء الظـروف. فـإذا ما شـدّتنا المشـاعر في الغالب بقيود إلى المعيـش، فإنّ على الفكـر أن يحرّرنا منه قدر الإمكان، والنّظر بعيـدا. يتعلّق الأمر بالحفاظ على الأمل، وحتّى يكون ذلك، لا بدّ من مقاومة الانجراف [في مجرى الأحداث]. الذّاكـرة الحيّة لـضروب الاكتمال والمُتَـع، وقد تمّ إعدادهـا في أجمل أوقات الحياة، هي تشجيع لهذا الصّبر الّذي يحرّر، بقَدر ما يداوم. إنّه ينهل من الدّيناميّة الخاصّـة بالحياة، وحتّى من لا صبرها. يقول «نيتشـه» : أن نحيا هو أن نعمل على إيجـاد شيء يريد أن يموت. قوّة الحكيـم، هنا، لا علاقة لها البتّة بتمويه الجبان، ولا باستسـلام ينقلب في حالة الضّعف إلى فضيلة. إنّ مثل هذه الحرّيّة هي تعهّد بالسّعادة بشـكل من الأشكال؛ فهي تتمثّل في الإفلات من الأحكام المؤقّتة للزّمـن، باللّعب على تغيّر الأوقات. «سـيأتي يوم». الدّيمومـة الدّاخليّة للوعي تتابع، على هذا النّحو، تحرّرها. يذكّر «سـبينوزا» بأنّ من يعرف الحقّ يسـتمتع. ويـترك هذا الفرح أثرا يـدوم، يتقابل مع الأوقات العابرة لمـا نعانيه في الحياة. سـتنتصر التّجربة لفضائل الصّبر، وستكشـف فيها الحكمـة الّتي هي بصدد

الإعداد. يكفي أن يتعلّم المرء كيف يحتفظ بأفضل ما في الحياة، حتّى يكون أكثر فرحا. وهكذا، يعزّز القسط الإيجابيّ للوعي، كما يعزّز الوجود أيضا. تتغذّى الذّاكرة بأفراح يثبّتها انتباه حيّ. [أفراح] لا تُنسى.

مشهد العالم

لقد كان الرّومان قديما، يلجؤون إلى السماء، قبل اتّخاذ أيّ قرار حاسم. فكان كهنتهم يوجّهون قصبة نحوها، ويرسمون حدود مستطيل: ضلع أيسر وضلع أيمن، وثالث أماميّ وآخر خلفيّ. هكذا كانوا يبتدعون ضربا من المعبد السّماويّ، مقاما مقدّسا رسمته نظرات بشريّة. وهذا شبيه بالمعبد الأرضيّ. هذا المشهد الفضائيّ كان جاهزا لاستقبال حركة العصافير البرّيّة، المثقلة بالمعنى، من الآن فصاعدا. لم يكن يعني ذلك التّنبّؤ بالمستقبل، أكثر ممّا كان يعني تقدير موافقة الآلهة على العمل الذي يعتزم البشر إنجازه. وهكذا، كان نظام الواقع برمّته هو المطلوب. هل كان متوافقا مع مبادرة السّاعة ؟ لقد كان السّؤال يعبّر عن محدوديّة العلم الحاضر للبشر، فهو علم منحصر في الأسباب القريبة، الاحتماليّة لما يمكن أن ينتج حقيقة عن مجموع الطّبيعة وعن سلاسل الظّواهر المتعدّدة التي يقاطع، ههنا، بعضها البعض الآخر. لقد كانوا يتشبّثون إذن، بفحص مشهد العالم، واكتشاف إشارات فيه قادرة على أن تلعب دور علامات، وأن توفّر جُدّات في مجهول الزّمن والأشياء. لقد كان يقال إنّ العصافير طالع خير، أو نذير شؤم، حسب ما كان يرسمه مسار طيرانها.

لقد كانت نظرة البشر تتضمّن الانتظار نفسه. إنّها معركة غير مأمونة العواقب يجب خوضها. هو قرار مليء بالمجازفة ينتظر من يتّخذه. إنّهم يحاولون كسر الغموض ولا شكّ، للحفاظ على الشّجاعة. السماء المتفحّصَة ستقدّم إجابتها. كان الكاهن يقف مستقيما، في اتّجاه الجنوب أو الغرب، بل وحتّى الشّمال. إنّ المعتقد السائد حول دور الفأل كان قد تحوّل، هكذا، إلى مرتبة المقدّس. وكلّ ظاهرة غير مألوفة كانت تفهم على أنّها إشارة: فأحلام البشر الغريبة، التي يقال إنّها نذير شؤم، كانت ترتبط بحدوث ظواهر سماويّة شاذّة، ظواهر مثل برق، أو وابل من المطر المفاجئ، أو ومضة مذنّب أو كسوف.

كانت تقول بكناية لغة المستقبل، وقد كان القلق على قدر وقع المفاجأة. فظهور نسر في السّماء، أو صيحة عقاب، أو الانعراج السّهميّ لطيران عصفور، كانت تبدو وكأنّها تعلن عن تمظهر بارز للقدر.

إنّ طيور نذير الشؤم، أو حسن الطّالع كانت، هناك، مختبئة في الأفق. فأيّها كانت ستشرع في الطّيران؟ إنّ التنبّؤ بذلك معناه أن ينصّب المرء نفسه عرّافا، ويحذّر... لقد كان مصير الجيوش والإمبراطوريّات يتحدّد عند تقاطع الأفعال البشريّة، عند الحرّيات الفعليّة. لكن لا أحد من بني آدم كان يمكنه معرفة ذلك مسبقا، إلاّ إذا كان يشدّ الكون والسّيناريو الذي يحدث فيه، تحت أنظاره، في عتمة الرّبط بين الأعمال والمبادرات. وحتّى يستبعد المرء قلق الصّدفة، كان يفترض أنّه قادر على التنبّؤ وممارسة الكهانة. كان الرّومان يحملون الإشارات الآتية من اليسار محمل الفأل الحسن، وتلك الآتية من اليمين على أنّها نذير شؤم، على عكس ما كان يراه الإغريق. إنّها قسمة اعتباطيّة، دون يقين مؤكّد. وكانوا يقلبون الأمر أحيانا. كان يحلو للعقل أن يحاول التّنبّؤ بالممكن، ولم يكن عامل الصّدفة أقلّ حضورا، في هذا المجال، ضاربا بذلك كلّ شيء لا يقينيّ. إنّه غثيان الممكنات، والخشية من المفاجئ، خشية إلى حدّ الشّلل أحيانا. لقد حكى «هيرودوت» (Hérodote)[1] في الكتاب التّاسع من **تواريخه**، أنّ معركة بلاتاي[2] (Platée) كانت قد توقّفت، لمدة عشرة أيّام، إذ أنّ الإغريق والفرس كانوا قد شاهدوا إشارات تدعوهم إلى البقاء في موقع المدافع، لحظة استعدادهم للنّزال، وإلاّ كان مآلهم الهزيمة على ما يبدو.

1- «هيرودوت»، أو «هيرودوتس»: أشهر المؤرّخين القدامى في بلاد اليونان. ولد في بلدة هليكرناسوس سنة 484 ق. م. نُفِيَ إلى جزيرة ساموس، وهو في العشرين من عمره، على إثر مشاركته في انقلاب فاشل ضدّ السّلطة الحاكمة في بلده. وصف في مصنّفه **تاريخ هيرودوتس** أحوال البلدان التي زارها حول حوض البحر الأبيض مثل ليبيا وأوكرانيا وإيطاليا، على إثر انتهاء مدّة نفيه، كما أنّه تحدّث عن مقابلات أجراها مع أناس لاقاهم في رحلاته ورد الكتاب في تسع مجلّدات. إلّا أنّ الموضوع الأساسيّ لتاريخ «هيرودوت»، هي الحروب التي جرت بين الإغريق والفرس. ولعلّ الوجه الأسطوريّ القائم على التّخييل هو الذي جعل الكاتب يستدعي هذا المؤرّخ. توفّي «هيرودوت»، سنة 425 ق. م.

2- **معركة بلاتاي**: هي معركة بين الفرس والإغريق، جرت سنة 479 قبل الميلاد، انتصر فيها الجيش الإغريقيّ تحت قيادة الجنرال الإسبرطيّ «بوزانيوس»، الذي كان قائدا حربيّا محنّكا، تمرّس بالمعارك وعرف بقدرته على رصد نقاط ضعف الخصم والاستفادة منها. في المقابل، كان الجيش الفارسيّ يقوده «ماردونيوس»، وقد كان قائدا شهيرا، لكنّه قتل في المعركة، وكان ذلك سببا من أسباب هزيمة الفرس الذين تقطّعت بهم السّبل أمام جيوش من إسبرطة وأثينا ومدن إغريقيّة أخرى. إنّ التّاريخ الذي كتبه «هيرودوت»، في شأن هذه المعركة لم يكتف بالمعطيات الموضوعيّة المحدّدة للنّصر بل أدخل معطيات سحريّة تدخل السّعد والنّحس والفأل في الاعتبار.

الحياة انتظار، إنّها أمل. وعليها أن تتعلّم الصّبر. لا يبدو نظام العالم، قبل كلّ شيء، أمره بيدنا، بما في ذلك الفعل. الحكم هو من باب الحكمة. وحتّى في حالات الشدّة، يبقى الوعي، أو يكاد، هذه الذّاكرة الطفوليّة التي تلعب مع الأشياء وتراهن عليها. إنّ الرّغبة في العيش توجد جيّدا ههنا، وتستدعي العالم وتقدّسه. يقول «فرويد»: إنّ مبدأ اللّذّة يعبّر عن الشّكل الأوّل للوجود في العالم. لا تكون الأشياء لا مباليّة. فالنّظرة الّتي تتوقّف عند زهرة، تجعل من اللّون المرهف لبتلاتها جمالا واعيا. ومن طلعة الفجر الّتي تكتشف الأرض مجدّدا بالتزايد الوئيد، تجعل الاستيقاظ المندهش يلقي بالتّحيّة. سيركض المرء في الحياة، وسينظّم لقاءات، سينسج صداقات. إنّه نفاد الصبر على العيش. لقد حلّ زمن الأحلام، زمن أعلن فيه العالم عن ثرائه. فنظرة طفل لن تكون في القريب، هي نفسها ربّما. إنّ أولى خيبات الآمال ستثقل عليه بالحنين، لكنّه سيعيش على عذوبة الأمس.

سعادة التّفكير

كلّ هذا معلوم جيّدا، بل قد يكون معلوما أكثر من الّلازم، إلى درجة أنّه لن يشدّ الانتباه. لكن هنالك أشياء كثيرة نغنمها بالتّفكير في التّجربة التي ذكرناها، هنا. لنتوقّف عن الخضوع دون فهم، حتّى لا نكون، إلى حدّ ما، لعبة في حياة نتقبّلها أكثر من أن نغزوها. لنأخذ الرّيادة كي نتعلّم كيف نستقبل ما يحدث. يتعلّق الأمر، بدءا، باكتشاف ما يسمح بالمبادرة في ذواتنا، وما يحملنا على الانتباه إلى المنابع الدّاخليّة، وإلى كيفية استعمالها الّلا مشبوه من أجل العيش.

انظروا إلى الوعي، وهو يجوب هكذا، ذاكرته الخاصّة. في كلّ هذا تجاهد السّعادة لكي تتأكّد بما هي حالة دائمة. إنّنا نحلم بها، دون أن نعرف بالضّبط ماذا تعني. إنّنا نكتشفها، بعد أن تحصل، عندما تكتمل لحظة سعيدة مّا. «أيّتها السّعادة، لقد تعرّفت إليك في الصّوت الذي أحدثته وأنت تغادرين.» لقد عشنا إذن، دون أن نعرف شيئا أساسيّا. فبداهة العيش الرّغيد لا تضاعف بأيّ وعي مؤكّد. الأيّام السّعيدة هي مثل الهواء الّذي نتنفّسه. إنّنا نحياها بملء رئتينا،

ونتحـرّك في اتّجاهها، دون أن نفكّر فيها. إنّه ضياع يحـول دون هذه الفرحة التي نشعر فيها بالرّغبة في تذوّق حضور الخيرات، والتّعرّف إلى كوننا سعداء، واستبقاء هذا الملمح من الحياة لكي نتغذّى منه. إنّ الكائن ليَنمو ليَغْتَني؟؟ بما يعيشه، وفي هذا النموّ شيء أساسيّ. إنّه صفاء البصيرة، أي نور مسلّط علَى الآتي، وكأنّه أثر الشّمس، وقد ارتسم على تُوَيْجِها الذي سطع فجأة بلونها.

إن الامتناع عن التّفكير وعن مساءلة التّجربة المعيشيّة، معناه أن يُحْكم على المرء بالخضوع. يقال إنّ النّظريّة رماديّة في نظر ألوان الحياة حديثة المولد. لكنّنا نحكم في شأنها بمقتضيات ليست مقتضياتها. لا يمكن لفهم رصين أن يتشكّل أبدا، طالما لم ترسم مسافة دنيا. يمكن أن تغمرنا العاطفة، مثلما تعمينا الشّمس. وحتّى يتحرّر من القلق المتولّد عن تداول الخشية والأمل، لابدّ للإنسان أن يعرف الأشياء التي أمرها بيده. وهكذا ينعتق من الشّعور بالعجز. كلّ هذا لا يتعلّق بالحظّ السّعيد، ولا بسوء الحظّ. تفتح الاستقالة من التّفكير طريقا إلى هذا الاستعباد الّلا مرئيّ الّذي نسمّيه تطيّرا، أي أن نكون محظوظين أو لا نكون. الحياة تصنع لنفسها انتظارا بسيطا، أو بمعنى آخر انتظاريّة.

أن نتفلسف معناه أن نتعلّم كيف نأمل بمعقوليّة، أي أن نتعلّم كيف نأمل ضمن الوعي الجليّ بما نقدر عليه. لم يعد ثمّة مجال للتّقابل بين نضارة الحياة ورماديّة النّظريّة، ضمن رومنطيقيّة أسيء فهمها، بل علينا الأخذ بحرفيّة رهان الصّفاء الّذي يؤدّي كلّ اختبار إلى استخلاصه.

الفلسفة هي بحث عن الحكمة في العمل والتّفكير، سواء بسواء. الفلسفة هي اعتناء المرء بأفكاره، قدر اعتنائه بجسده ومظهره. والرّابط الحميم بين الحياة والتّفكير يتمّ هنا، وهو عينه منبع مجهول للفرحة، إن أردنا أن نعي جيّدا هذا الأمر. إنّه يُعدّ إلى تفاعل خصيب بين إرادة الفهم وإرادة الفعل، كما كان يقول «سبينوزا».

لقد أثار «ديكارت»، هذه البهجة، التي هي من نوع خاصّ، والتي تنبثق عندما تُنتج النّفس، موطن التّفكير، بـ«أسلحتها الوحيدة»، معرفة تضيء

الوعـي بصفته بؤرة حميمة. وها هـو نور جديد ينعكس عـلى خيارات الحياة. عندئـذ، تحتلّ «عاطفة داخليّة» موقعها في نبع النّفس، وتجلب إليها رضاء مفعما. ويمكـن لهذه العاطفة أن تعوّض، أو حتّى أن تسـتبعد انفعالا حزينا أو تقضي عليه، انفعالا ينشأ عن تضارب الظّروف الخارجيّة. العقل قادر إذن، على الأفراح المتأتّيـة عنه وحده. ففهـم الواقع، حتّى عندما يحرج، هو أيـسر على هذا النّحو. ولهذه الجسارة جزاء يكافئها.

الدّرس الثّاني

مخيال السّعادة

تقلّب الرّوح بين الأمل والخشية

تترجم الملذّات عنفوان الحياة. فلا يمكن البقاء على حياد إزاء مشـهد العالم. فالإحساسات تنتظم، حسب ما تجلبه من متعة أو ألم. ومن العسير، للوهلة الأولى على الأقلّ، تثمين مجرّد الحضور لذاته، إزاء الأشـياء. إنّ الشّـعر، هذه الطّريقة الحـرّة والمجانيّة لعيش الوجود، لا يمكـن أن يتأتّى إلاّ لكائن رصين، منعتق من ضغوط الحاجة أو الرّغبة.

العنـاصر المادّيّة تكثّف، في ذاتها، متخيّل الانتظارات، جذبا كان أم دفعا. إنّ شـعلة شـمعة تبعث على الحلم، لكنّ طقطقة النّار المشتعلة في الموقد تجذب وتدفع، وسـحرها الملغز يخلّف في الذّاكرة آلاما ومتعا: دفء أو احتراق، حياة فيّاضـة أو دمار. الماء الصّافي والرّقراق يلقط النـور ويعزف فرحة الحياة. أمّا الماء العميـق والقاتم أين يمكث اللّيل فله أصداء الموت. هواء الصّباح يهبّ نسـيما عليلا. أمّا ريح المساء فينفخ عاصفة كونيّة. القشعريرة تحدث متعة حينا، وخوفا، حينا آخر. أمّا عن الأرض، التي مازالت تحتفظ بحرارة الحياة التي تحضنها، فهي تحثّ على مغامرات الحبّ، لكنّ برودة الشّـتاء أثقلتها، فإذا بها تستحضر نفسها مقبرة: سـكونٌ وغبار. لقد عرف «غاسـتون باشـلار»، العالم والشّاعر، كيف يستحضر قوّة هذا الخيال المادّيّ الّذي يغيّر وجه الأشياء.

السّعادة طموح بالنسبة إلى الإنسان، وبالنسبة إليه وحده. وهي أيضا مشكل بالنّسبة إليه، [مشكل] مرتبط بأصالة الوضع الإنسانيّ. معنى ذلك أنّ السّعادة تقوم في حياة الوعي عينها، إحساسا وعقلا، تجربة حيّة، ومسافة في آن. إنّها حياة متعدّدة الأوجه. الحياة، وهي سجينة مشهد العالم، تجعل من نفسها دهشة، ولكن أيضا جزعا ورجاء. مأخوذة بتجربة المتعة، تحتفظ منها بذكرى حيّة تسجلها في داخلها: الرّغبة تمدّد ههنا، سحرها بصورة محمومة. الحياة، وهي جريحة العذابات الأولى، تكون أحيانا مهوسة بها، إلى حدّ نكران ما سواها : يُوَلِّد الخوف الوسواس، ههنا. رجاءٌ وخشية. تأرجحٌ. وبإيجاز، لا يبقى الوعي أبدا في حدود الحاضر. وإذا استطاع أن يستمتع به، فمعناه أنّه يحدث رجع صدى لتاريخه الدّاخليّ بشكل من الأشكال. إنّه استباق، تذكّر واختراق دائم لحدود الآنيّ...

متعة عارمة، امتلاء معيش، ينبثق الرّجاء ليجعله يعود. وإذا بالرّغبة في العيش تصبح، حينئذ، بحثا مفعما بالحماس. يحلو للمرء أن يرغب، كما يحلو له أيضا أن يحبّ، لأنّه يعرف ما عساه يأتي ويعود مجدّدا، إرضاءً للانتظار، واستجابة لنشوة المتع الأولى.

يولّد التّعرّض للألم، وما يحدثه من رضوض صامتة، خوفا من بقية الآلام. يخاف المرء من العذاب، وإذا بالحياة تصنع كآبة خرساء. يتكوّن، حينئذ، شبه خوف من العيش، انفعال حزين يقطع الطّريق تماما أمام فرصة السّعادة. بين الرّغبة في العيش والخوف من العيش، يبدو إمكان السّعادة ملتحفا بالضّباب، مثل نور خافت يضيء الطّريق بعيدا، نور يمكن أن ينطفئ إلى الأبد، كما يمكن أن تشتعل جذوته فجأة، فتتغلّب على كلّ ظلمة وكلّ انكسار.

تُحَسُّ الحياة إذن على أنّها انتظار، وهي تُسْتَقْطَبُ بين الأمل والخشية. يتحدّث «سبينوزا» عن تقلّب النّفس، ليذكّر بهذا الضّرب من الكآبة الذي يسكن الوعي. إنّ الشّكل الأول للّذة يهوّل المستقبل، ويدعوه لكي يستجيب لضروب من اللّهفة المفترسة. كيف السّبيل إلى التّأقلم مع هذا النّمط من الوجود؟ إذ لا يتعلّق الأمر، فعلا، بمحاولة إلغائه، فسيكون ذلك ضربا من العبث، وإنّما بالاضطلاع به بوقار. وهو كذلك طالما أنّ نمط الوجود هذا، هو مصدر

للحيويّة والفعل والمبادرة والمداومة الخلاّقة، شريطة أن يجعله العقل جليّا ومن ثمّ هادئا. يرسم برنامج الحكمة ههنا، وجهته الأولى. لا بدّ لمسألة السّعادة أن تنعتق حينئذ من دوامة الكروب، وأن تأخذ معنى بعيدا عن التّجربة العمياء التي لا تحدث سوى الإخضاع. لنغيّب فكر السّعادة، وهذا القول يرسم، بتواضع، ذكرى وعود تتضمّن مجرّد حدث العيش.

فكر حيويّ

من لا يرغب في أن يكون سعيدا؟ لكن، من يستطيع أن يعرّف بدقّة الهدف المطلوب بلوغه، والظّفر بالسّبل المؤدّية إلى ذلك؟ إن هذه المسألة لجديرة بالنّظر، إذ أنّ غُنْم الوعي هو نماء للكينونة. فأن يفهم المرء، وأن يسلّط الضّوء على ما هو مشتبه فيه، وما يقاوم الرّغبة في الإقبال التّامّ على الحياة، يمثّل كلّ هذا، في حدّ ذاته، تغييرا للأشياء، إلى حَدٍّ انبثاق فرحة خاصّة بنظرة صافية. التّفكير، والحالة هذه، هو الحياة بعدُ، الحياة الدّاخليّة التي تضع المرء على مسافة وتحرّره. قبس من نور ينبعث من الأسئلة المطروحة: يستعيد الحياة وكأنّها مشهد طبيعيّ للاستكشاف، أو لغز للحلّ، أو معين حيّ يُستردُّ، تحت سُمْكِ الأزمنة والأمكنة. إذا لم توجد وصفات للسّعادة، هنالك، على الأقلّ، جُدّات تذكرنا بوعدها، وبالسّبل التي علينا ألاّ ننساها، وبالممكنات التي علينا أن نحدثها. ليس لنا أن نحيا وكأنّ الفكرَ غير ذي جدوى، وكأنّ تعاقب الأيّام هو من المقدّر الذي علينا الخضوع له.

السّعادة. تَمْخُضُ الفكرة لكي تطفح على اللّفظ. من سيقدر على قول ما يفهمه من ذلك؟ السّعادة، هي قبل كلّ شيء، ساعة زهو وطالع خير. هي لحظة حظّ ونعمة خاطفة، ووديعة تعطي الحياة بسمتها الأولى. إنّنا نعاود الكرّة مرّتين للمسك بها، وإذا بها قد توارت بعدُ. «السّعادة هي في ما قبلُ. لنسرع العدو. لنسرع العدو. ستفلت منّا.» ينساب الزّمن الذي يتخيّل التّحيّر البشريّ، وكأنّما ليهرب من لحظة الزّمن العابر. لكن، هل ذلك ممكن إذا كانت الحياة صدفويّة؟ لا مجال للفوز بصيغة تامّة لرضاء دائم، إذن. فهل السّعادة شبح؟

يمكـن، كما يقال عـادة، «أن يكـون لدينـا كلّ شيء لكي نكون سـعداء»، وألاّ نكـون كذلـك. إن الرّابط مـع الزّمن ومع الحيـاة، بما هي مغامرة، ولكن أيضا مع كائنـات فرديّة ومتنوّعة، يجعل تصوّر تعريف وحيد للسّـعادة، قادرًا على تجميع صيغ مختلفة لها، أمرا عسـيرا. من هنا، يأتي اضطراب لفـظ يغنّي بصوت ملتبس، وينفتح على ضروب مـن التّرحال المهموم للمخيّلة. علينا أن نعطي للوعي زمنا للتّفكير، وصبرا منتبها للفهم.

المثل الأعلى للتّخيّل.

إنّ بداهة تطلّع تكثّفت في لفظ. ومن العسير تعريف هذا الأخير. لقد أكّد «كانـط» ذلك في القسـم الثاني من **تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق.**[1] «من سـوء الطّالـع أن يكون مفهوم السّـعادة هو من اللّا تعيّن، بحيث يسـتحيل على أيّ كان، أبدا، أن يحدّد بحقّ ما يأمله بطريقة مسؤولة ومتماسكة، وما يريده، رغم أن كلّ إنسـان يرغب في أن يكون سـعيدا...» صعوبة من هذا القبيل، تعلن عن تصوّرات شـديدة التّباين. وهذا يعني أن مسألة السّعادة تطرح على مستوى الفرد، فهو الوحيد القادر على اتّخاذ القرار، اللّهمّ إلاّ إذا كان صبيانيّا، مشدودا إلى تصوّر أبويّ يبقيه في تبعيّة. إنّ هذا اللّا تعيّن يشهد، فعلا، بحرّيّة كلّ واحد في أن يختار نمط تحقّق سعادته: فلا وجود أبدا لنمط ضروريّ، يمكن أن يصلح في هذا المجال. وهذا أمر مطمئِنٌ.

إنّ صعوبـة تعريف السّـعادة، وإعطائها صيغـة مقبولة قبـولا كونيّا، هو إذن، خـبر مفرح. فالسّـعادة توافـق **مثلا أعلى للمخيّلة**، كما يقـول «كانط»، وتتغيّر بحسـب الأفراد، وهي، في هذه النّقطة، حليفة الحرّيّة، بحيث إنّ أيّ نمط سَيُقْتَرَحُ، في هذا المجال، سيكون مدعاة للرّيبة. فإذا لم يكن المثل الأعلى لتحقّق الكائنـات الإنسـانيّة بقادر على أن يكون خاضعا لمعايـير، فهذا يتطلّب، على الأقلّ، جُدّات تصلح أن تكون مرجعا للتّحرّر من الحدود الخاصّة بالوضعيات المعطاة. يمكن للفلسفة، حينئذ، أن تتدخّل، لا لكي تقول ما يجب أن تكون

1- Kant, *fondements de la métaphysique des mœurs,* édition Delagrave p. 47.

عليـه السّـعادة وكيف يتحقّق فيهـا الوعد، وإنّما لكي تسـهم في صفاء، وفي اقتضاء مثل أعلى، يحرّر من كلّ تصوّر ضيّق، وكلّ رفض غير مناسب.

لكـنّ ذلـك لا يعـني، بطبيعة الحـال، أنّ كلّ مخطّط إجمـاليّ لشروط التّحقّق أو لسبله العديدة، هو محلّ ريبة. يمكننا أن نقدّم فكرة عن التحقّق، دون أن نفرضـه، مع ذلك. فيمكن التنكّر تماما للمتعة الفنّيّة على سـبيل المثال، في بعض حالات الضّيق الوجوديّ. وبمجرَّد اقتراحه، على أنّه منبع أصيل للمتعـة، يخلّـص، من الحدود الحـاضرة، الفكرة التي يمكـن أن يكوّنها الإنسـان عن تحقّقه الخـاصّ. إنّ المثل الأعلى ليؤثّـر، إذن، لا على أنّه نموذج اعتباطـيّ مفروض، بل عـلى أنّه ضرب من الذّاكرة لأفضل ما للإنسـانيّة، ولتنوّع سجلاّت إمكان التحقّق.

إنّنـا نحلم، والرّغبات المنتظر تلبيتها ليسـت محدّدة على الإطلاق، لحظة يبدع الأمل المسـتقبلَ. إنّها كثيرة ومتنوّعة، إلى حدّ يمكنهـا أن تتوالف على أنحاء عدّة، بحيث يتعذّر علينا رسـم صورة بسيطة على قدر بداهتها. لا يوجد نموذج فريد، سهل التّقديم، لسعادة هي تناسق لمختلف سجلاّ ت الانشراح. يمكن أن نصف جيّدا أوقاتا سعيدة، لا أن نُعيّن السّعادة، بما هي شيء بيّن الحدود. فالمخيّلة الإنسـانيّة هي التي يرجع إليها وضع خطاطة أوّليّة للسّعادة. وهي التي تؤلّف في هـذه الخطاطة المثـل الأعلى، أكثر ممّا تؤلّف الفكرة الدّقيقة عن السّـعادة. إنّ اختيار شـكل تحقّق بمعزل عن الآخرين سـيكون أمرا معيقا. فمن المستحيل تحديد ما يجب أن تكون عليه حياة سعيدة، طالما أنّ المثل الأعلى المتعيّن سيظهر نسـبيّا عن قريب. سـيبقى مثلا أعلى لكلّ المتع الممكنـة المتآلفة في حياة تامّة. إلاّ أنّ مثـلا أعلى من هذا القبيل لا معنى لـه إلاّ من جهة أنّه جُدَّة، أو بالأحرى ذاكرة، لما تقدر عليه الإنسـانيّة. وهذا مهمّ، عندما يمنع العالم القائم البشر من مثل هذه الجُدّات، بتشويه ضروب الوجود المفتقرة لأفق. الأمل والخشية... لا بدّ من نزع الرّتاج عن الأفق، وريّ الواقع بينابيع نديّة من المثل الأعلى.

السّـعادة. من يبيّن صعوبة تخيّلها ؟ قد تَكون لفظا مثاليّا. وليس، من باب العبـث، أن تنوّعت تعريفات الفلاسـفة حول المقتضيـات التي تتضمّنها: كما

أنّهم تصوّروا، بأشكال مختلفة، السّبل المؤدّية إليها. لقد أسدوا، بذلك، معروفا لكلّ إنسان يرغب، يوما مّا، في البحث عن أكثر أشكال العيش تلاؤما مع أنغام الأفراح، ومع الضمانات التي تطمئن والتّجارب التي تدعم. لا يتعلّق الأمر بقراءة وصفات بما تتضمّنه من حِكَم، ولا البقاء أيضا في مستوى جزء طرح تساؤلات لا حدّ لها، وقلق شكّ يغمرُ الوعي عن قريب. يجدر بنا، فقط، إن جاز لنا القول، أن نذكّر، حينا، بكيفيّة الاستعداد، لكي نكون قادرين على السّعادة، وبكيفيّة استعادتها، حينا آخر، عندما تكون تعرّضت للخطر في اختبارها.

عناصر السّعادة

تُعْطىَ السّعادة، للوهلة الأولى، على أنّها ضرب من المعاينة، في صيغة كشف لما يشعر به الوعي الإنسانيّ. فمن أفراح الوعي وآلامه، وضروب اكتماله، وأشكال حرمانه، تنتصب ضمنيّا قائمة جرد، نعرف، من خلالها، إلى أيّة جهة تميل كفّة الميزان. سيكون من السّذاجة الاعتقاد بأنّ عمليّة، مثل هذه، تؤدّي إلى علم حسابيّ اختياريّ ومتحكّم فيه. إنّها تتأكّد عادة بطريقة غامضة، وتترجم إلى إحساس بالانبساط أو الضّيق، تعسر في البداية صياغته. أن يكون [المرء] سعيدا، هو أن يشعر أوّلا بالسّعادة، ودور الوعي أساسيّ هنا. لذلك أكّدت الحكمة الفلسفيّة على الطّريقة التي نتقبّل بها أحداث الحياة، داخل ذواتنا، هذه التي لن يكون بإمكاننا أن نفعل حيالها شيئا يذكر، بادئ الأمر. «أن يكون المرء رواقيّا...»، «وأن يتقبّل ما يحدث بروح فلسفيّة»، صِيَغٌ كهذه لا تأمر السّكينة، وإنّما تشير إلى الوجهة التي تتّخذها مجاهدة النفس القادرة على إيصالنا إلى ذلك.

كلّ جرد يعدّ نسبياً. والحنين إلى الماضي لن يتأخّر في الإيحاء إلينا بأنّ سبلا أخرى ممكنة، كانت ولا شكّ، موجودة بالقياس إلى ما فعلناه، أو ما قدرنا على فعله. فهل نحن على يقين من أنّنا لم نخطئ طريق الاكتمال الذي كان بإمكاننا النّدم عليه، لو كانت لدينا، على الأقلّ، فكرة واضحة ومتميّزة عنه؟ يمكن للمسألة أن تصبح واخزة، وما تجلبه من كآبة يلقي بظلاله السّرّية

على الحياة التي تعاش واقعيّا. من هنا، يكون المثل الأعلى لمجموع الاكتمالات وتحقيق الرّغبات المتاحة للإنسان. وإذا تعذّر على المعيش معانقته أبدا، يمكن للمخيّلة أن تدبّره، فيحضر في صيغة انحراف مثاليّ لكلّ السّعادات الممكنة. لنقل إنّها طوباويّة، ونحن نؤكّد، في الوقت نفسه، قسوة الواقع وتنوّع الكائنات البشريّة، حيث يحكم كلّ واحد من وجهة نظره الخاصّة. بقي أنّ هزّ الكتفين، في هذا المقام، ليس دليلا على نفاذ البصيرة، ولا على موقف محرِّر. فمن لا يرى في هذا الموضوع أنّ مستويات التطلّع هي في غالب الأحيان مملاة من المستويات الأصليّة؟ فهل نريد أن يتحوّل الميلاد والوضعيّة المفروضة إلى قدر، بحيث يعاد إنتاجها لدى البشر على حساب شجاعتهم وإرادة الحياة لديهم؟ إنّ متخيّل السّعادة لهو بمثابة رافعة للتّحرّر. وهو قادر، بالتّأكيد على توليد مشاعر كبت، بمفعول عكسيّ، ليست هيّنة التأثير في التّعاسة. لكن، هل علينا أن نمتنع عن الحذر، خوفا من اكتشاف واقع يحرج؟ كأن نرمي بمقياس الحرارة، حتّى ننفي الحرارة. الضيق الذي يسبّبه الفارق لأكْرَمُ للبشريّة من وفاق أعمى مع وجود مبتور.

بقي أنّ الكلّ المستهدف لا يأخذ معناه إلاّ بالنّظر إلى مجموع الميولات والتطلّعات الخاصّة بالإنسانيّة. إنّ الإشباع المتوازن لكلّ هذه الميولات، الذي لا يبقي شيئا، هو ضرب من الحدّ الأقصى الذي يصلح مرجعا أو أفقا، حتّى لا يصيب البحث الشّخصيّ عن السّعادة أيّ شكل من النّسيان. وهكذا، يمكن أن نكتشف، يوما، في غمرة الفرح بموسيقى غير معروفة، أو حذق رياضة جديدة أو مقابلة باهرة، بأنّنا كنّا نحيا، دون مستوى إمكانيّات ازدهارنا. فنعود، حينئذ، عودة صحّيّة، على حدود لم نكن واعين بها، ولم نكن نتألّم منها. لكن، هل كان ذلك مبرّرا لكي نُحْبَسَ داخلها ؟

إنّ سجلاّت اكتمال الإنسانيّة متعدّدة فعلا. فكلّ الملذّات الحسّيّة هي أمثلة على ذلك، لا فقط من جهة الرّضا الفوريّ الّذي تجلبه، وإنّما بالإغناء الدّائم للذّات الّذي تولّده. فمن إتيقا اللّذّة إلى أنطولوجيا البهجة، تكون النّتيجة جيّدة. إن فرحة الفهم، وسعادة الفعل، والرّقّة الواثقة للصّداقة، والانتشاء السّاطع للحبّ، تمثّل جزءا من المثل الأعلى للسّعادة، ويمكنها أن تتضافر

بطرق مختلفة، حسب مشيئة الفرد وتأكيده الحرّ. إنّ الرّوح والجسد، والحساسيّة والعقـل، وذكاء القلـب وجسـارة المخيّلة لفي تبـادل دوريّ لـلأدوار. لوحة مفاتيـح، كهذه، للملكات سـتكون عن قريب أجدى للسّـعادة من الحظّ وحسـن الطّالع. ستنكشـف، بما هي مَعِينٌ يمسـك به الإنسان بوجه خاصّ، وهي تفلت من أعراض وجود متقلّب.

إنّ متخيّل السّـعادة لا يتصالح مع مسـتويات التّطلّع، إلاّ أنّه لا يسـتتبع أيّ نموذج مفروض. وهكذا الشـأن كذلك بالنسـبة إلى الإنسـان الشّـامل أو الـكلّيّ الّـذي كان الثوريّون يحلمون به، وما كانت لديهـم أعذار يقدّمونها لأشـكال الظلم والتشـويه الّتي كانت تولّدها طموحاتهم. فبدل تعجّل النّظر إلى مـشروع بالضّرورة كلّيانيّ، ههنا، يجب التّشـبث بفكر مُحَرِّر من مثل هذه الأوطوبيـا الّتـي لا تصبح خطرة إلاّ بالنّظر إلى أطماع الهيمنة الّتي تسـتولي عليها وتتّخذها ذريعة.

البحث عن الذّات

من الأكيد أنّ مسـألة السّـعادة تطرح في مسـتوى كلّ شـخص من جهة قيمتـه الفرديّة. إنّها ابتكار فريد ومسـتحدث، طالما أنّ الوجود يأخذ شـكلا ومعنـى لـكلّ كائن. فكيف لنا أن نعـرف، منذ البدء، ما نريـده، وما ننزع إليه؟ إنّ الوضعيّة الأوّليّة، الّتي لا نختارها، يبدو أنّها تضغط بكلّ حملها علينا. فسـواء كنّا شـابّا أو فتاة، عائلة غنيّة أو فقيرة، وسـواء أكان الظرف مرحا أو كئيبـا، والمظهر جذّابا أو خشـنا... فـإنّ الحرّيّة الّتي نضطلع بهـا، ليس لها أيّ شيء من التّجريد. إنّها تتجسّـد، هنا والآن، في ظروف دقيقة التّحديد. وعلى الأنا الّذي ترتسـم ملامحه أن «يساير ذلك». الرّغبة في السّعادة تبحث، ضبابيّا، عن متخيّلهـا لكـي تتخلّص من الحـدود الأوّليّة. يرجع الأمـر إلى الوجود ليتحلّى بأشـكال الانفتاح واللّمحات المحرِّرة. الإحسـاس البسـيط بأنّنا موجودون، الفارغ من كلّ مرجع ومن كلّ محتوى ملموس، يضع إرث الخضوع، إلى حدّ مّا، بين قوسـين. إنّه سَـيُفهَمُ قريبا على أنّه بحث عن تجارب قادرة على أن تجعله

أكثـر امتلاء بالعواطف والعذابـات. إنّ الأنا ليبحث عن ذاته، بوجه مّا، إلى ما بعد ذاته، خارج حدود الدائرة المألوفة.

ليست فلسفة السّعادة خارطة طريق بعلامات توصل إليها بسهولة. إنّها تبيّن، بأكثر تواضع، ثراء التّجارب الممكنـة، وطرائق العيش والمعرفة العمليّة الّتي يمكـن لأيّ امرئ أن يتملّكها. إنّها تعلّـم الصّبر في الحياة، الّذي هو من باب الفنّ اليوميّ. هي تتذكّر الرّواقيّين، عندما كانوا يؤكّدون هذا الفرح الوقور للإنسـان الّذي اسـتطاع أن يهزم الجزع من العـذاب، وأن يتحكّم في الانفعال الّذي كان يسـحبه من ذاته، ويضبط حكمه على الأشـياء. إنّها تذكّر بوعد ‹أبيقور›، فيلسـوف لذّة الحياة، الّذي يعتق الحضور في العالم من ضروب الرّعب العبثيّ. الفكر، والحكمة العمليّة الّتي تطبعها، تجلبان شعورا لا نظير له. المتعة الزّاهيـة الّتي تتولّـد عن ذلك لم تكن الغاية المنشـودة، لكنّها تصحب حياة الاكتمال، مثلما يزن انتشـاء السّـكر المترنّح خطوات الرّاقص فلسفة السّعادة تنعطف صوب تأمّل ‹أرسـطو› للشـكل الّذي تتكوّن منه سـعادة إنسان مّا، مدمجـا في ذلك كمالات الحيـاة، إلى الحدّ الذي يُحقّق [المـرء] فيه أفضل ما في الإنسانيّة ويجعلها تختبر طعم ما هو فريد. فأن ينتشي المرء بذاته وبالينابيع الأكثر ثراء لديه، معناه أن يشـعر بامتلاء تامّ أنّه إنسـان، وأنّ بحوزته كلّ ما يستطيع أن يفعم كائنا. سـعادة الفكر، والحكمة العمليّة الّتي تطبعها، تجلبان شعورا لا نظير له. المتعة الزّاهية الّتي تتولّد عن ذلك لم تكن الغاية المنشـودة، لكنّها تصحب حياة الاكتمال، مثلما يزن انتشاء السّكر المترنّح خطوات الرّاقص.

الدّرس الثالث

البخت الغامض

الحاجة إلى المعنى

تعقّب السّعادة يبدأ بالأفراح المتوفّرة، عندما تسري الحياة في العالم بالملذّات الّتي تسكنه. إلاّ أنّ كآبة أصيلة لا تتواني في الإلقاء بظلّها. إنّنا نواكب عدّة سيناريوهات نجهل معناها. فكم من منطق غريب يفعل فعله في الأشياء الّتي لا تكفّ عن الحدوث؟

هذا نزوع ينبلج : يقع اللّجوء إلى الله العليم الّذي بيده أسرار ما سيحدث. وهو سبب كلّ شيء. فهو الخالق، العلاّم بالغيب، وهذه العناية الإلهيّة تظهر، بلا حدود، قدرته. نتخيّل أنّ علمه بكلّيّة الأشياء والكائنات وبالتاريخ المعيش وبطريق الكروب، دون مخرج مؤكّد، لا يمكن أن تكون إلاّ لقوّة قادرة على خلق ما هو كائن، وعلى توقّع تطوّره الذي يضاهي اليقين الّذي يكون لدى صانع آلة، بالنسبة إلى كيفيّة تشغيلها. لقد خلقت ديانة الخوف، في العصور الغابرة، العذاب الضّروريّ. وكأنّه كان من اللّازم أن تأخذ تراجيديا الموت والألم منحى آخر، غير المجازفة بالحياة، الذي هو مصدر السّعادات والعذابات. وهكذا الحال مع هذا التّكرار الّذي يبحث عن معنى ويبرّر، يرى الفضيلة هنالك حيث لا وجود إلا للحظة ضعف وألم لا غير. فلماذا على البشريّة أن تتدارك؟ ومن أيّ شيء؟ خطأ جماعيّ، تقول الأسطورة. إلاّ أنّ الحقّ يدحض كلّ قيمة لهذا المعنى البشع الّذي يكبّل البراءة. فهل يجب، حقّا، تعويض

المغامـرة المـتردّدة، والذّاكـرة المثبّتة لعلاماتهـا، وعنفوان الحيـاة الّذي يجاسر ويبتكـر؟ هل يجب تعويض، كلّ ذلك، بهـذه الحكاية الكبرى، حكاية اللّعنـة الّتي تفتري عـلى الوجود وأحقابه، الّتي تؤكّـد مصير الانحلال وأفول القـوى الحيّة، وكأنّها تفعـل ذلك من باب التّلـذّذ ؟ إنّ قبول ذلك لهو من باب إرسـاء شـتاء الأجسـاد والأنفس في ربيع الرّغبات. إنّ حشر الشرّ المحتوم والقاتـل ليفعل فعله. فهو ينشر الرّيبة على موجة لا توصف للذّة، تمدح وتغذّي، على ارتعاشـة هذا اللّحم، وقد فوجئ، عندما اختلطت الأجسام وقدّمت بداهة بهجتها. فإذا كان المسـار يراوح بين الأفراح والأتراح، فلماذا التّنصيص هكذا على الوجه السّيّئ؟

تصوّر آخر يتمثّل في ما نسـمّيه القدر، ليوحّـد في فكرة قوّة معتّمة ومعقّدة التّداخل اللّا مرئيّ، لضروب الوجود المتعدّدة، وحتّى الآلهة لا يمكنها حينئذ، إلّا أن تكون صانعة لقدر من هذا القبيل. الطّبيعة اللّا مخلوقة تنتج، منذ الأزل، آثارها الّتي لا حصر لها. لا وجود لغاية في هذه المحابكة اللّا محدودة للأسباب والنّتائـج. الطّلاق بين النّوايا الإنسـانيّة، وما يحدث جرّاء هذه المحابكة، يعطي للحيـاة بعدها التّراجيديّ، حياة مختومة بالموت النّهائيّ الّذي يظهر، دون سـابق دعـوة، ويُظهر الطّابع المفزع لما حدث. وضعيّة قصوى، لأوديب البائس، في قمّة انتصاراته المؤقّتة. لم يكن يعرف أنّه كان ينسُـج بأفعاله أتعس مصير يجمع بين قتـل الأب وارتكاب المحارم. لقد كان يسـلك، وجهة في عماء مطلق، دون أن يعلـم ذلك. فما كان نفع عينيه العضويتين، بما أنّ العماء العمليّ كان يتمّم التّراجيديا؟ ستتوالى المآسي، وسترسل مبهمة، بالنّسبة إلى من كان فيها اللاّعب الأساسيّ، مع ذلك.

إذا لم يكن البشر جزءا من الكلّ الأعظم، لا يمكنهم التّملّص، حتما، من وضعيتهم الخاصّة، ومن آثار منظوريّتهم، وما يصحبها من كروب. إنّهم ينزعون إلى اصطياد علامة دالّة على النّظام العامّ في الطّبيعة، وكأنّها تستطيع أن تحادثهم لتوحـي إليهـم بشيء عن أنفسـهم. هكذا تحيي عاصفة ومطـر وتحليق خطاف وطيران سرب من العصافير مسرح السّماء. فلا بدّ من فهم هذه الّغة الغريبة. لابدّ من تأويلها. لابدّ من الكشـف عن النّسيج الخفيّ ونظام الكون الّذي يُحكى

فيها. إنّها سذاجة البشر الّذين ينسون أنفسهم، إلى درجة يعتقدون فيها أنّ أعمالهم قابلة للقراءة في مشهد الطّبيعة. فـ«شيشرون»، رغم أنّه كان يلعب دور العرّاف، إلّا أنّه أقام الدّليل، في مصنّف فلسفيّ، على **خطإ العرّافة.** لقد استطاع تفكيك سحنتها الانفعاليّة والذّعر الّذي تترجم عنه، أحيانا، أمام مجريات الأحداث الّتي تفهم على أنّها مسار خارجيّ تماما، ليس للبشر أيّ سلطان عليه. ومع ذلك، فنحن بحاجة، أحيانا، إلى حذق فنون اللّعب، لتغذية الأمل والاقتناع بأنّ الحياة تحتفظ بمفاجآت سارّة.

التطير

التّطيّر. هل يمكن للطّبيعة أن تتحدّث غير لغتها؟ سحب ملبّدة تنبئ بعاصفة أو أمطار، لا بأحداث بشريّة. لكنّ الإنسان الضّعيف، شأنه شأن الطّفل، ينتظر دائما من الطّبيعة أن تتطابق مع رغباته:نفس المطر هي نقمة على السّائح ونعمة للفلاّح. العلامة لا تخطئ: ذلك ما تقوله الحكمة الشّعبيّة المستقاة من التّجربة والخالية من كلّ إلغاز. لقد انبثقت الإنسانيّة، إذن، من الطفولة. ستأتي الطّيور في ساعتها السّعيدة أو التّعيسة، وهجراتها، أيضا، هي داخل نظام الطّبيعة، شأنها شأن القدرة على اتّخاذ قرار الحرب أو السّلم.

لكنّ البشريّة تأمل وتخشى. ففي فترة الهلع، أين؟ تبدو غير واثقة من نفسها، أو حتّى ناسية قدرتها الذّاتيّة، فإنّها تخضع لمشهد العالم، بما هو نظام لا رادّ له، يستحيل فهمه، فما بالك بالسّيطرة عليه. إنّنا نترصّد بقلق العلامات، ولم يعد الأمر لعبا إطلاقا. اعتقاد مريض... فهل هذه قوّة قائمة فوق العالم، أو بالأحرى، ثانويّة فيه، ستنظّم الأشياء، بحسب البشر، وستتابع الأهداف المجهولة لهؤلاء؟ إنّ الخوف ليأخذ مصدره في جهل المشاهدين الأغبياء وهلعهم، هؤلاء الّذين كفّوا عن الفعل واكتفوا بالانتظار.

هل ستأتي الطّيور من جهة السّعد؟ سيكون زمن الأحلام قريبا، هو زمن اللّايقين. ستختلط مياه الأمل والخشية، وستشهد قنطرة ميرابو[1] (Mirabeau)

1- **قنطرة ميرابو** : هي قنطرة قائمة على نهر السّان بباريس، بنيت ما بين سنة 1895 و1897، إلّا أنّ حديث

سـيلان هذه المياه، في لون رماديّ يحتفظ ببهرة شـمس. الحياة تعد. الحياة تهدّد. والحلم الأوّل يتأخّر فيها، دون أن يفهم جيّدا ما يحدث فيها. صبر ونفاد صبر. أن يتعلّم المرء انتظار العجلة، حتّى تدور، عندما يحلّ الشّقاء، تلك حكمة صعبة تجد تجسيدها في عدم الاكتراث بالأشياء الّتي نعيشها في عجلة، على أنّها عداوة. لقد أصبح زمن الأحلام ذاكرة نظرة حرّة، لم تكدّرها ذكرى أوّل خيبة أمل، وأولى الآلام. إنّنا نتصيّد الحركات الّتي تحيي السّـماء. فهل ستأتي طيور الشّؤم؟ هل سـتظهر مرّات ومرّات؟ وهل سـتظهر عصافير السّعد من جديد؟ غموض الحظّ يغيّم السّماء.

الكاتب عن سـيلان مياه النّهر تحت هذه القنطرة يفيد إنّه يشير إلى قصيدة الشّاعر الفرنسيّ أبولينار تحت عنوان قنطرة ميرابو ذكر فيها:

"Le Pont Mirabeau"

Sous le pont Mirabeau coule la Seine
Et nos amours
Faut-il qu'il m'en souvienne
La joie venait toujours après la peine
Vienne la nuit sonne l'heure
Les jours s'en vont je demeure
Les mains dans les mains restons face à face
Tandis que sous
Le pont de nos bras passe
Des éternels regards l'onde si lasse
Vienne la nuit sonne l'heure
Les jours s'en vont je demeure
L'amour s'en va comme cette eau courante
L'amour s'en va
Comme la vie est lente
Et comme l'Espérance est violente
Vienne la nuit sonne l'heure
Les jours s'en vont je demeure
Passent les jous et passent les semaines
Ni temps passé
Ni les amours reviennent
Sous le pont Mirabeau coule la Seine
Vienne la nuit sonne l'heure
Les jours s'en vont je demeure

Guillaume APOLLINAIRE

حسن الطّالع وسوء الطّالع

إنّ البخت، اسم أسطوريّ، أصبح متداولا في لغة البشر المهمومين بمعرفة مآل حياتهم. كانت فورتونا (Fortuna) ربّة الوفرة المفاجئة والإفلاس، دون سابق تنبيه في روما. وبتقديمها معصوبة العينين، كانت تجسّد صورة قوّة خارجيّة، تقرّر مآل التّطلّعات البشريّة، فقرن الخصب الّذي لديها يطلق الذّهب المبعثر في أكداس منتشرة، وكأنّ الإفراط يعلن، بعد، وبالضرورة، عن الطابع الاتّفاقيّ لهذا الأمر. أمام هذه الآلهة، تقوم عجلة البخت حيث يغيّر دورانها، فجأة، الوضعيّات البشريّة، فإمّا أنّها ترسّخ الإفلاس، أو أنّها تهب الثّروة، إمّا أنّها ترفع الصّحّة أو ترسيها، وإمّا أنّها تمنح أرقى أشكال القدرة أو تلغيها. لقد أنصت ‹قارون›[1] (Crésus) يوما، وهو في قمّة ثرائه الّذي يعود الفضل فيه إلى الرّمال التبريّة لنهر البكتول، (Pactole)[2]، إلى تنبيه ‹صولون›[3] (Solon) الذي كان يقول: «لا يمكن القول عن شخص إنّه سعيد قبل موته». وبالفعل، فقد انهزم أمام ‹سيروس الأكبر› (Cyrus le Grand)، وحكم عليه بالإعدام حرقا. لقد كان يشير، حينئذ، إلى ملاحظة الحكيم التي كان قد احتفظ بها.

1- ‹قارون›: ملك ليديا حكم ما بين 561 و547، ولد سنة 596. عرف بثروته الفائقة التي يرجع أمرها إلى الرّمال التّبريّة. كان ولوعا بالحروب والفنون والملذّات. كان بلاطه قبلة للفلاسفة وأهل الفكر والأدب. ويذكر أنّ الفيلسوف اليونانيّ ‹صولون› قد زاره إلى بلاطه، فأخذه سيروس في جولة إلى قصوره بما تحمله من خزائن ذهب؛ وكان في اعتقاده أنّه سيبهر الفيلسوف بهذه الثّروة وبهذه السّعادة التي يعيش فيها. وقد كان يعبّر بذلك عن زهوه بها. لكنّ ‹صولون› اكتفى بالقول: «لا يمكن القول إنّ إنسانًا مّا هو سعيد، قبل مماته». وفعلا، فسعادة ‹قارون› لم تدم؛ إذ قتل ولده الوحيد في حادث صيد، ثمّ هزم أمام القائد الفارسيّ 4 ‹سيروس الأكبر› ففقد بذلك مُلكه. ولمّا أعدّ سيروس المنتصر محرقة لإحراقه فيها صاح ‹قارون› «آه يا ‹صولون›، آه يا ‹صولون›»، فانتبه سيروس إلى ذلك فاستفسر ‹قارون› عن الأمر، ولمّا أخبره بما حدث بينه وبين ‹صولون› في السّابق، صُدِمَ سيروس بهذه الحقيقة وبقانون تبدّل الأحوال، فراجع حكمه بحرق ‹قارون› وعفا عنه، بل وقرّبه إليه ومنحه ثقته.

2- **البكتول**: هو نهر في بلد ليديا رماله تبريّة. ويذكر التّاريخ أنّ الذّهب الذي وجد في أتربة هذا النّهر هو مصدر ثروة ‹قارون› العظيمة

3- ‹صولون›: حكيم يونانيّ من بين الحكماء السّبعة، عاش ما بين 640 و560 قبل الميلاد، هو أيضا شاعر وسياسيّ محنّك ورائد من روّاد الدّيمقراطيّة اليونانيّة. وكان له الفضل في إلغاء نظام الرّقّ الذي يسمح باسترقاق الفلّاحين في صورة عجزهم عن سداد ديونهم إلى النّبلاء. وهكذا أدخل أوّل إصلاح دستوريّ، في تاريخ اليونان يحمي جزئيّا الحرّية الشّخصيّة للبسطاء ويضمن كرامتهم. وقد عرف ‹صولون› بكلّ أساليب إذلال الأغنياء للفقراء، رغم أنّه كان من أشراف القوم.

يُقَالُ عن البخت إنّه حسن أو سيّء، حسب الأثر الذي يحدثه، بالنّظر إلى الانتظارات البشريّة. ليس لأحد أن يغترّ على الإطلاق، إذن، بالخيرات التي يغنمها من الصّدف التي خدمته، حتّى وإن استطاع، من جهة أخرى، أن ينسبها شرعيّا إلى جهوده الخاصّة. هذه الأمور، وإن كانت ضرورية، فهي ليست كافية دائما، فالبعد العرضيّ للمغامرة الإنسانيّة يبقى عصيّا عن النّسيان. بعد الثّراء الفاحش يكون الإفلاس، وبعد الإفلاس، يكون الصّعود المذهل. من أعالي القمم إلى الهوّات السّحيقة، ومن الكابيتول (مقرّ السّيادة) إلى صخرة تاربينيا[1] (Roche Tarpénienne) أين كنّا، لزمن غير بعيد، نلقي بالمحكوم عليهم من [الأعالي] إنّ هذا التّذكير ليس من باب إحباط المبادرة، وإنّما هو لاستعادة الأحداث. وفعلا، لا يتعلّق الأمر بالتأكيد على بؤس الإنسان، دون إله، مثل ما فعل ذلك «باسكال»، وإنّما لكي نأخذ في الحسبان ما ليس تحت طائلة الإنسان، في اللّحظة التي يتّصرف فيها، وأن نحرّر، في ذلك، قدر الإمكان، السّبيل إلى السّعادة. بهذا ستتمكّن من الامتلاء بالحرّيّة، دون تقدير المصير الذي يحتفظ به نظام العالم للإنسان.

واجهْ البخت السّيّئ بقلب طيّب. معاينة تبعث على الإعجاب، لها بعض الجرأة لتتحوّل إلى حكمة، خصوصا بالنّسبة إلى من يرى أنكى المصائب تنهال على رأسه، فيخامره الشّكّ، جذريّا، في الجدوى من الحياة. إنّ خيرات، مثل المال والشّرف، والنّصر والنّفوذ والملذّات التي أصبحت متداولة، تبدو على قدر من الأهمّيّة لتحقيق الكمال، بحيث ننزع إلى جعلها مطلقة، مهما قال عنها الوعي المتبصّر الذي ينبّهنا دوريّا، إلى عرضيّتها. إنّها التّجربة [عينها] التي خاضها «سبينوزا»، وتحدّث عنها، كما فعل غيره من الفلاسفة. هي تجربة في صيغة قصّة تدريب وتوطئة للتّحوّل الفلسفيّ. قصّة حقيقيّة، لكنّها نموذجيّة، مثل تاريخ الكوجيتو لـ«ديكارت». الفلسفة لا تغيّر، في البدء، من الأشياء التي توضّحها. إنّها تغيّر فقط النّظرة التي نحملها عنها، وهذا ليس بالأمر الهيّن. ومن هنا، فهي

1- صخرة تاربينيا: اسم مشتقّ من اسم ابنة قائد القلعة الرّومانيّة في عهد القائد «روميليس». وهو موقع صخريّ موجود في روما ومكان لتنفيذ حكم الإعدام في من يعاني من خلل عقليّ أو جسميّ هامّ. وقد كان يُعتقد أنّهم مسكونين بأرواح شرّيرة. وقد ورد الحديث عن هذا الموقع في سياق تبدّل الأيام من حال إلى حال؛ وصيغت عبارة لاتينيّة مشهورة تقول «إنّ صخرة تربينيا قريبة من الكابيتول» للتّعبير عن سرعة تغيّر الأحوال، بحيث يمكن للمجد أن ينقلب إلى أحزان. وفي هذا السّياق ورد الحديث عن صخرة تاربينيا.

تغيّر حتّى طريقة تقييمها. إنّ التجربة المعيشة لتسمح لنا، في بعض الحالات، باستباق هذه الطّفرة. إنّ الحِدَادَ المفاجئ والانقلاب المفاجئ للبخت، وانقطاع علاقة عاطفيّة، تتكفّل بإعادة الأمور إلى نصابها، وتثمين قيمتها النسبيّة على نحو أفضل. لا تفعل الفلسفة، بفضل طاقات العقل، سوى تمديد استفاقة الوعي بالذّات وتطويره.

علينا إذن، أن نفهم أن لا شيء مكتسب على الإطلاق: فما يعود أمره إلى مسار العالم شيء، وما يعود أمره إلينا شيء آخر. لقد جعل الرّواقيّون، من هذا التّمييز مبدأ للحكمة، داعين الإنسان إلى أن يركّز اهتمامه على الأشياء التي أمرها بيده حقّا. وهذا لا يعني، أنّه، لا يستطيع التأثير في الأشياء الخارجية. وببساطة لّما كان النّظام الذي يتدبّرها قائم في مجموعة هي أقوى من أيّة محاولة إنسانيّة، بات من العبث مواجهة هذا النّظام : سننهك قوانا في يأس، وبلا جدوى. هكذا فُهِمَتْ الحكمة الرّواقيّة، فالبخت، لا هو بالحسن ولا هو بالسّيّء في حدّ ذاته. يكفي أن يكون مرّة حسنا، وأخرى سيّئا، في نظر الإنسان. ولا نعرف بأيّ ضرب من الوهم الخادع يظهر على هذا النّحو أو ذاك. الانتظار الإنسانيّ وحده - سواء أكان أملا أو خشية - هو الذي يعطي تماسكا إلى حكم من هذا القبيل. إنّ البخت والقدر والصّدفة مسمّيات لها وقع مماثل لوقع تسميات أخرى، يمكن أن ننعت بها الخوف. إنّ التجربة المتوتّرة تقلق ذاتها بذاتها بفقدانها اليقين، بدل أن تخفّف عن نفسها الوطأة بالوعي الجليّ، بالفارق بين الأشياء التي أمرها بيدنا، وتلك التي تبقى خارج طائلتنا. يمكن لكل امرئ أن يقدّر بهذه المعايشة ما يستطيع فعله، والحدود الموضوعيّة لمبادرته. والأهمّ، في ذلك، أن يقود ذاته، على نحو مفيد، إلى ثراء طاقاته الخاصّة.

ومع ذلك، فليس الشّعور بخارجانيّة من هذا القبيل سوى مظهر خادع. إنّ نظام العالم يحتوي الفعل الإنسانيّ، فالمريض الذي يدعو الطّبيب يرسي وضعية أخرى موضوعيّة، غير وضعيّة، من يتنظر أن تفعل الطّبيعة فعلها القاسي، فإمّا شفاء وإمّا مآل محتوم. ليست الطّبيعة ذاتها قوّة معزولة عنّا. فأفعالنا تتمّ فيها، وانطلاقا منها. لقد كان الرّواقيّون يذكّرون بذلك أولئك الّذين يعتقدون أنّهم يقدرون فهم تعاليمهم، على أنّها دعوة للاستقالة السّلبيّة. الإنسان طبيعة،

شــأنه في ذلك شــأن القوى التي تحيط به، ويبدو وكأنّها تهاجمه. إلاّ أنّ الطّبيعة أرادت أن يعيها داخل ذاته. إنّ هذا العلم لَثَمِينٌ، يرسم حقل الإمكانات بجلاء، ودون وهــم. التوافق مع الطبيعــة إذن، ليس خضوعا لنظام خارجيّ؛ إنّه يتأكّد باعتباره انبثاقا لعلم مرسوم ضمن حدود ما تجعله قوانين الطّبيعة أمرا ممكنا.

حاضر السّعادة

في قطر النّدى، يســطع نور باهر، فيقدر جمال الأشــياء أن يعمّ أيّ وعي منتبه قليلا. لكن ثمّة الهمّ، وهذه الكآبة المؤلمة للزّمن، المشــجعة على التقلّب العنيد بين الأمل والخشية. من له أن يخبرنا مرّة واحدة عن قهر الزّمن الذي علينا ملؤه، الزمن الذي يحوّلنا عن العطايا القريبة منّا، وعن الإحساســات النّقيّة، وعن عبق المتعة، أين يسبح كلّ كائن ؟ إنّنا لا نبقى أبدا في الحاضر... لقد نبّه «باسكال» إلى هــذا الضّرب من الكآبة الخرســاء، أو العنيفة، التــي تحجب الحضور اللّيّن للشّمس النّاعسة في الأشياء. هذه الأشياء تؤكّد، مع ذلك، وتذكّر الإنسان ببداهة ما ينعطي له. النّسيم الّذي يلاطف اللّحم، السّماء التي تسحر العين، اليد المثقلة التي تداعب الشّــعر، وبسمة الوجه، والتّنفّس الصّامت لشفاه ولهانة... لا بــدّ من الوقوف برهةً للتّملّص من الزّمن. إنّ اللّحظة لَأَبَدِيَّةٌ، إذ لا شيء يمرّ من هذه السّعادة التّامّة في الإحساسات الفريدة. إنّها جرعة مطلق لا يحدّها حدّ.

لكنّ الوعي مســكون بالمــاضي ومثقل به. لقد أخذ عهــد الطفولة الذي ولّى معه طريقة النّظر إلى اللّحظة والاســتمتاع بها، دون حكم مســبق. يجب أن نتعلّم من جديد، على نحو مّا، طريقة النّظر هذه، هذا الاســتقبال، دون أن ننفي الذّاكرة الحيّة للتجربة. علينا أن نرجع القهقرى إلى ما يُمْنَحُ لنا اليوم دون شرط وأن نهتمّ به. فأن نتصرّف بجلاء يعيّن أيضا تخليص منابع السّــعادة من الهواجس التي تغطّي تدريجيا الأفق. الفلسفة ههنا تُنَمَّى على أنّها فنّ العيش.

أن تكون سعيدا. يســتلذّ الكائن البشري السّــعادة عندما يلبّي إلى حدّ ما رغباتــه على الــدّوام. وهذا يعني أنّــه واع بكونه يكتمل في الحــاضر. فتزدهر كينونته وينفتح على العالم في ضرب من التّواطؤ معه، تواطؤ يشــهد بتوافقه مع

واقع الأشـياء، في الوقت نفســه الذي ينتظم فيه. هذا ما تعنيه الدّلالة الاشتقاقيّة **للسّاعة السّعيدة.** في ساعة سـعيدة ! هذا ما يذكّر به التّعجّب الشّعبيّ. توافق مـن هــذا القبيل بين الرّغبـات والظروف، يمكن أن يلاحـظ لا غير، دون أن تكون الجهود المبذولة سـابقا هي المتسـبّبة في ذلك. عندها، نتحدّث عن حظّ وبخت سـعيد. الصّدفة تصنـع جيّدا الأشـياء... إنّه اتّفاق عجيـب بين الأمنية وتشكيل العالم. ومن النّادر ألّا يوفّر هذا التّوافق الطّارئ، هنا، فكرة ما يحدث على الأقلّ، عندما تحلّ لحظة السّـعادة. يبدو أنّ العالم يجـاري الرّغبات ويخدمها عـلى نحو أفضل. في ظروف مغايرة، نفس الرّغبـات، بل حتىّ نفس الجهود، لا يكون لها نفس التّتويج، ومن ثمّ يتولّد الإحساس من أنّ الإنسان، بمجرّد بذله كلّ مـا هو قادر عليه لكي يكون سـعيدا، فإنّ مجرى العـالم يفرض قانونه المواتي للرّغبة الإنسـانيّة إلى حدّ ما تجـري الأمور، وكأنّه يعلن عن جواز قبوله أو عدم جوازه. إنّ تجربة قسـمةٍ بين الجهد الذّاتيّ والضّرورة الخارجيّة تتشّـكل هنـا، وهي تفتـح على قدريّة، أو تفتح، على عكس ذلـك، على إراديّة مغالية، وذلك حسـب الحالات. فأمام كائن الرّغبة، ترتسـم قـوّة البخت الغامضة، وصدفـة وحظّ، الكلّ دفعة واحدة، ولكن، أيضا، حظّ سيّء لا يرحم. عندما استحضر «سبينوزا» «الخيرات المشبوهة للبخت»، كان يدعو الناس إلى التحرّر من سلطانها، لا لكي يغرقوا في الزّهد، لكن لكي يَتَوَقّوْا ممّا يجعلهم سجناء.

تشمل السّعادة الازدهار الشّخصيّ وما يرافقه من إحساس لا ينفصم. صحوة الوعي هذه تجلب إذن متعة خاصّة بها : فالأكيد أنّ اكتمال الذّات لا معنى له، إلاّ بالنّسبة إلى كائن قادر على تمثّل ذاته وتثمينها. إنّنا نقدّر، هنا، أنّ على الإنسان أن يهتمّ بأفكاره وبوعيه، إذ، في بادئ الأمر، فيها ما به يحوّل متعة إلى رضاء دائم، وبها أيضا يستطيع الانعتاق من حدود اللّحظة، والتغلّب على النّزوع إلى اليأس.

من الأكيد أنّنا نخصّ الإنسان بالحديث عن السّعادة، لا الحيوان، اللّهمّ إلاّ من باب المماثلة أوالإسـقاط. يبدو أنّ الوعي السّـعيد والسّعادة يرتبطان ارتباطا وثيقـا، إلى درجـة، يعسر معها تخيّـل الواحد دون الآخر. ويحـدث، مع ذلك، أن يرجـع المرء بالذّاكرة إلى لحظة من حياته، لكي يعيد تملّكها اسـتردادیّا، باعتبارها لحظة سـعيدة، والحال أنّه عاشـها، دون أن يكون له مثل هذا الوعي.

هذا التفاوت لَيَسْتَدْعِي تفكيرا. فالتجربة الإنسانيّة، ههنا، هي موضع نظر. الاستمتاع المرتبط بالاكتمال لا يعكسه الوعي دائما، ولكنّه ليس أقلّ واقعيّة، ههنا، منذ أن يتمّ الإحساس به داخليّا، ويتمظهر بطريقة مّا من الوجود. يتّخذ الإحساس بالسّعادة منبعه في هذا الضّرب من الامتلاء، فيستمتع المرء، إذن، بذاته بِمَعْنَيَيْنِ: يستمتع الكائن باكتماله، و الوعي ذاته بمثل هذه المتعة، يصاحَب بفرحته الخاصّة. هذا هو بحقّ فرح المعرفة.

القسم الثّاني

طعم السّعادة

حكاية

حنين ‹أخيل›[1]

حنين ‹أخيل›

كان ‹أخيل› بطلا بَصمت بطولاته حرب طروادة[2] وقد بنت الإلياذة فيها قصّة باهرة. يحكي ‹هوميروس› أنّ ‹أخيل› اختار حياة قصيرة وعنيفة، متوافقة مع المجد. لقد كان بإمكانه أن يحياها هادئة، لطيفة وطويلة. إنّها حياة دون جدوى في نظره، لأنّها دون رونق ولا شهرة، حياة نكرة لعامّة البشر، تعتبر، بادئ الأمر، تافهة لأنّه يحكم عليها من الخارج. إنّها تنفّر من الظمإ إلى العيش. كلّ شيء الآن وحالاً : اللّهفة، ههنا، تُهلك. فإن وجد جلد خشن، فلن يكون بالتأكيد سوى جلد ‹أخيل› المُفترِسْ والمُفْتَرَسْ، المستهلَكِ والمتلَفِ، في نشوة الانتصار والحبّ، الغزو والفعل. إنّ الموت الجميل والسّعيد ليس خوفا. إنّه يدلّ على بطولة ويبرّر المغامرة الوقّادة.

1- ‹أخيل›: بطل أسطوريّ من أبطال حرب طروادة. مجّده الإغريق باعتباره يجسّم المثل الأعلى للفارس الكامل. يحكى أن أمّه قد أخذته من رجله عند ولادته وغمست بدنه في نهر من أنهار الجحيم ليصبح منيعا، وكان لها ذلك ما عدا الرّجل التي لم تغمس في مياه النّهر والتي كانت تشدّه منها. حذق آخيل فنون الحرب والموسيقى والطّبّ. واختار حياة البطولة. وبينما أخفته أمّه حتّى لا يشارك في حرب طروادة تسلّل من مخبئه، وهو شابّ، ليلتحق بالبعثة إلى هناك ويكون بطلا من أبرز أبطال هذه الحرب الذي ذكره ‹هوميروس› في الإلياذة والأوديسة

2- **حرب طروادة**: تقع مدينة طروادة Troy في آسيا الصغرى، وهي مدينة بحريّة غنيّة تحكي الأسطورة أن بوسيدون إله البحر بناها بالتّعاون مع أبولو إله الشّعر والفنون، فكانت مدينة منيعة وقويّة. كانت مدينة طروادة تحت إمرة ‹الأمير هيكتور› و‹الأمير باريس›، ويحكى أنّ ‹الأمير باريس› كان سببا في دمار طروادة وخيانتها بسبب امرأة أحبّها. لكنّ وجهة نظر أخرى ترجع هذه الحرب إلى الطمع في خيراتها. استمرّت الحرب عشر سنوات. وانتهت بقتل ‹هيكتور› ومحاصرتها ونهب خيراتها وسبي نسائها. (عن موسوعة ويكيبيديا الرّقميّة)

يحكـي ‹أفلاطـون› أنّه في اللّحظة التي سـيختار فيها أوليـس Ulysse حياة جديدة، فإنّه يتّجه، على العكس، إلى حياة متواضعة، دون ثروة ولا قوّة، لكنّها ليسـت أقلّ من مقام الإنسـان. لقد اختار هذا في ثنايا أوديساه، وهي رحلة فيها كلّ الأخطار. حيـاة معرّضة، دون هوادة، إلى الآلام تعرّضها إلى الانتصارات. حياة الثّراء والقلق مرسـومة في العواصف. إنّه لزهْوٌ أخّاذ لا يُسْـتَوْعَبُ إلاّ بعد فـوات الأوان. ألا تكون السّـعادة أيضا في حكمة اليومـيّ، تثقّف بتواضع، بمعزل عن ضجيج العالم ؟ لقد قال ‹فولتير› (Voltaire)، على لسـان «كنديد»، (Candide) لنـزرع حديقتنا. «كنديد» البريء، المتحرّر، العائد من كلّ شيء، وكأنّه عائد من أوديسـيّات[1] عدّة، خاطر فيها بالتّفاؤل المُطْمَئِنِّ. وهذا يعني أنّه حـاول القيام برحلة طويلة في العـالم، [رحلة] تتابعت فيهـا المغامرات القصيرة والعنيفة، وفيها الاكتشـافات المدهشـة، وفيها تقلّبات. هل تستحقّ العودة إلى حديقـة الوجود المتواضعـة، دون تاريخ، خاتمةً متنـوّرة، أو مجرّد لحظة عودة إلى الـذّات، عندما تُركتْ جانبا آلام السّـفر؟ تعاقب حزيـن، إلى حدّ مّا، يحضر، حينئذ، بما هو معاينة لما ستكون عليه وضعيّة الإنسان: «هذا الّذي يولد لكي يحيا في تشنّجات الكآبة، أو في سبات السّآمة» (خاتمة «كنديد»).

إنّ المثل الأعلى البطوليّ ليقول، مع ذلك، شيئا يمكن أن يهمّ كلّ شخص، حتّى وهو يقتسـم وضعيّـة تعتبر عاديّة. **الحياة هبة، لكن يجب تشـكيلها.** كلّ الحيـوات لا تتسـاوى، حتّى وإن كانت العدالة الرّاجعـة إلى الحياة، وإلى كلّ الكائنات البشريّة، تؤدّي إلى الاعتراف لها بنفس الاحترام. إذ يتعلّق الأمر بحياة جيّدة، حياة إنسان. لذلك، فإنّ لاستعمال الأشياء الّتي لم نخترها أهمّيته. العيش هبة، وفرصة وحضور مندهش في العالم، للمسك جيّدا بجمال الأشياء واتّخاذها شـهادة ثمينـة، عندما تحلّ لحظة المعانـاة. العيش فرصة، ليـس لـ‹أخيل› إلاّ أن يتذكّـر ذلك، وهو يجوب مملكة الموتى. ألن يقول، حينئذ، إنّه سـيفضّل، لو ظـلّ على قيد الحياة، حتّى ولو كان ذلك في أبسـط الظّروف، على أن يكون ملكا من ملوك الأموات؟ فآخر الأحياء هو أفضل من أوّل الأموات... حنين شـبيه بحنين أولئك الّذين تشـدّهم الذّكرى إلى الماضي، فيسجّلون فيه كلّ الأشياء الّتي كان بالإمكان عيشها. يستعيد المرء اكتشاف طعم الحياة الذي

1- **أوديسيّات** : المقصود بها السّفرات أو الرحلات البحريّة والتي تكون عادة محفوفة بالمخاطر.

لا نظير له، نعمة التنفّس الصّامت الّذي لم نكن نعيرها اهتماما. فالوعي مُعْتَرِفٌ بمثل هذه النّعم. يوجد هنا شيء شبيه بسحر انتظار لا محدود، يقوم في انفتاح ضروب الحياة الممكنة، وفي الآمال التي لا يحدّها حدّ.

إنّ حنين ‹أخيل› لَـيِرَنٌّ. وكأنّه تذكير للأحياء التّائهين الّذين كانوا سينْسَوْنَهُ. فهل يعرفون الحظّ الذي لديهم؟ وهل سيضع المرء ضروب البؤس أمامه حتّى يشكّك فيها؟ إلاّ أنّ هذه الأمور تُشكّل جزءا من المجازفة العاديّة السّهلة. وحتّى إن أصبحت الحياة عبئا في بعض الأحيان، فلابدّ من اعتبار الظّروف التي صنعتها، لا النّظر إليها في حدّ ذاتها. العيش هو أن تكون للمرء فرصة تذوّق الحضور في العالم، حضور يشعر به ويَتَفَكَّرُهُ، ويتملّك نفسه بنفسه، حتّى في أقصى حالات السّلب. الحياة جميلة. يمكن للاستغراب أن يبدو ساخرا، عندما يأتي من منفيّ أرادت دناءة جلاّديه أن تقمعه، إلى ما دون إنسانيّته. لكنّ الاستغراب هو صرخة قصوى للمعنى، في وجه الوحش. هو نَفَس مازال نابضا بين الشّفاه، ونور وعي في أعماق نظرة مستنفدة، وارتسامه بسمة على محيّا طفل لم يعد بإمكانه الصّبر: الحياة توقّع، ههنا، تُمْضي بُعْدَهَا المقدّس، وتتجاوز كلّ مشروع تقويضيّ.

إنّ التراجيديّات التي تهدّد الشّكل الإنسانيّ للحياة، وتدفع بها داخل حصونها، لكي تختبرها، ليست إلاّ وضعيّات قصوى. عند تخوم الموت، ينبثق المهمّ من جديد، ويضع السفاسف المعتادة موضع سخرية. فهذه الأخيرة كانت تقف حاجزا. يبقي المجال مفتوحا دائما للخلاص منها، دون انتظار النّهاية التّراجيديّة. فأن يفكّر المرء في الوزن النّسبيّ للأشياء معناه، بادئ ذي بدء، التّساؤل عن الخير الذي يطلب لذاته، وعلى عكس ذلك، إرجاع الخيرات التي تطلب لغيرها إلى مستواها الحقيقيّ. بهذا استهلّ ‹أرسطو› كتاب الإتيقا العظيم. الثروة والمجد، والشرف والقوّة تخضع لاختبار الجذريّ، عندما تتذبذب الحياة، ويرتعش الجسد، أو عندما يبتعد الحبيب، لا محالة، في ظلمة لا رجعة فيها. صمت داخليّ، عزلة مؤقّتة. هما، حينئذ، مفيدان، على الأقلّ لاستعادة الرّغبة في الحياة.

عـودة إلى الحياة، إلى الحيـاة الثّمينة التي تنبض تحـت الصّدغين، [عودة] إلى الإحســاس بالوجـود الّذي يمـدّد قشـعريرة اللّحم. لا بدّ مـن وصف مختلف أشكال تذوّق العيش، والإبقاء على ذاكرتها الخصبة في قلب الوعي. فتستطيع التّجربة، حينئذ، أن تُتقبّل بكلّ ضروب ثرائها، منظورا إليها بثقة.

تذوّق السّـعادة هـو بادئ ذي بدء، مجـرّد تذوّق للعيش الّذي هو اسـتمتاع بالـذّات وبالحضور في العالم، حضور عَارٍ، حتّى قبـل أن يغزوه عذاب التّاريخ، أو بعـد أن تغيب أصداؤه. «الاسـتمتاعً بالذّات على حدة»، كـما يقول جيّدا ‹مونتاني›. إنّه تأمّل داخليّ.

تذوّق السّعادة، هو أيضا تذوّق للعالم، للعواطف الّتي تشقّه، للأنغام المتعدّدة الّتي تتردّد فيه، للأشكال الخالصة التي تتبدّى فيه. إنّه شعر الأشياء والكائنات، والمناظر الطّبيعيّـة، والحركات التي تجعل متعة الحـواسّ والإدراكات تتيقّظ لذاتها. ويتحوّل هذا التّذوّق إلى ثراء داخليّ، عندما يمتدّ في متعة التّمثّل الذّاتيّ. إنّه من المتاح إليّ أن نعيد إظهار الصّور المثبّتة، المحتفظ بها في سـويداء الحياة الأولى، من جديد في ذواتنا، وأن نسـتمتع بذلك، دون حدود. أن نتخيّل، أن نسـتعيد ذكـرى، أن ننـوّع الصّدى الذّاتيّ للأحـداث، هذه، أيضا، حرّيـة تخلّصنا من الحدود. إنّ الأفكار ليست بنات المعيش فحسب، وإنّما هي ضروب من الطّيران المكرّر. إنّها تأمّل خارجيّ وداخليّ، عندما تحقّق قنطرة ممدودة بين الذّات والعالم. إنّها سعادة الحضور البسيط.

تذوّق الآخر، هو في المنطلق انفتاح على اتّسـاع الإنسانيّة، انفتاح يمدّد تجاوز الحدود الشّـخصيّة. ينمّي المرء ذاته بذاته بمثل هذا الارتباط بالبشر. الأنا (Ego) والأنـا الآخر. (Alter ego) إنّ التجربـة الرّائعة لنظرة الغير تجعلنا نفهم أنّ العالم المألـوف ليـس إلاّ جزءا من منظر الحياة. سـنذهب إذن، إلى اكتشـاف أراض مجهولة وإلى اكتشـاف التجارب التي تظهرها. الهُوَهُوَ والآخر، الآخر والهوهو. الإحسـاس يفتح ويسـتقبل. إنّ سـعادة الصّداقة هي نظرة مشـتركة ونظرات مغايـرة في آن. سـعادة الحبّ تترجّح بين لغز الآخر، الّـذي أصبح لا بديل عنه، وبين دُوَارِ انصهار غريب، يؤكّدنا ويتجاوزنا في نفس الوثبة.

الدرس الرّابع

طعم العيش

حضور الحياة

‹أخيـل›، بطـل الحياة القصيرة، يحدّثنا مـن ما وراء القـبر. أوّل الأموات. إنّه يتجوّل بين الأشـباح، وتسـتنهض ذكرى الشّـمس حلمـه. لَم لا يكون آخر الأحياء! لو أنّه فقط تذوّق الحياة... في البدء، ثمّة هذا الإحساس المتفرّد بالحضور في العالم، يُسْتَشْـعرُ في نقاء برودة مستحبّة لصباح شتويّ، أو يُحَسُّ في نور ظهيرة، عندما ينشر الصّيف روائحه وحركاته. يقول ‹أرسـطو›: «إنّ الوعي بالحياة هو بعدد الملذّات الجميلة الّتي يشعر بها المرء. (إذ أنّ الحياة طيّبة بالطبع، وأن يكون للمـرء وعـي بامتلاكها لذاتها، فـذاك أمر ممتع، علاوة عـلى كونه جيّد)» (**أخلاق نيقوماخوس**)[1].

العيـش هو أن يتنفّس المرء، أن يشـعر بهـذا النّفَس المنتظـم في داخله، أين يتفاجـأ بخشـية انقطاعه المفاجئ. العيش هو إحسـاس بسـيط، إلى أقصى حدّ، بأنّ الحضور في العالم مليء بعدّة إحساسـات. إحساس منسيّ في غالب الأحيان، متـوار خلف تقلّبات الحياة اليوميّة. إنّ ارتعاشـة نسـيم تُعَاشُ عـلى أنّها مداعبة غير مألوفة للبشرة. تأتي، لكي تذكّر بذلك، على غرار ما يحدثه نور ناشـئ، اسـتقبلته عين متطلّعة. إنّ ضجيج الأشياء ليستيقظ مع الوعي، والأصوات الّتي

1- Aristote, *Ethique à Nicomaque*, IX, 1170a.

تمتزج مع انبثاق الصّباح تبدو وكأنّها تتجاوب على الدّوام. إنّ البشر يعيشون في مسكنهم الكونيّ.

العيش هو أن يحسّ المرء بإيقاع نبض القلب المكتوم والمنتظم. تسلّم اليد الحالمة نفسها إلى عذوبة النّهر، في الوقت الّذي يتقدّم فيه المركب بطيئا وواثقا، في شبه صمت. يبدو المنظر الطّبيعيّ وكأنّه مندهش، يبعث على التّأمّل. الوحدة. بعيدا، العالم يعاند، في ضجيجه المبهم.

قبل الفعل وانفعالاته، وقبل المجازفة والأمل، ثمّة هذه الفرحة الخفيّة بالوجود هنا. وفي الانتظار، وتذوّق مجرّد الوجود في العالم، وأن يدرك فيه المرء أنّه حيّ، منفتح على تقبّل رسائل مجهولة، ومستعدّ للمغامرة، هذه الّتي ستأتي، وستقصّ علينا قريبا ذكرياتها ووعودها وحسراتها. يحدث هذا رُبّما إلى درجة يمّحي فيها الإحساس بالحياة، تحت وطأة صور، وأصداء المعيش ذاته. سنضطرّ إلى فسحة داخليّة وفريدة، لكي نلقاه من جديد. بذلك، تُسْتَبْدَلُ ضوضاء المغامرة بالتّأمّل البِكْر.

بقليل من الانتباه إلى هذا الخشوع الّلا مألوف، تتأكّد، لدى المرء، متعة حقيقيّة بالوجود. إنّ حدّة الحياة لتتمظهر في شكل نور صاف، يخترق منظرا طبيعيّا، بعد المطر.

يحكي «ديكارت» لحظة التّأمّل، بما هي عوْدٌ إلى الذّات «متحرّر من كلّ بهرج». عزلة من هذا القبيل لا تعني أيّ ضرب من ضروب المنفى. العالم، ههنا، قريب وبعيد. يمكننا العودة إليه في أيّ لحظة، بعد استكشاف داخليّ. تذوّق المسافة هو إعادة شحن القدرة على الرّؤية، والقدرة على النّظر. يستعيد الوعي ذاته، ويتكثّف ويميّز بين خصوصيّات كلّ ظرف. حركات الجسد والرّغبات الّتي تسكنه تمتدّ في سكينة بيّنة. يستحضر «مارك أورال»، الإمبراطور الفيلسوف، التفتيشات المحمومة للرّومان الّذين كانوا لزمن مّا، يهربون من المدينة. إنّ العزلة الحقيقيّة هي عزلة داخليّة: إنّها لا تتطلّب إلاّ الارتحال الثّابت للفكر، والحذف المؤقّت للعالم، حتّى عندما يُحْتفظُ بالدّورة العاديّة للمهامّ اليوميّة. «إنّهم

يبحثون لأنفسهم عن ضروب من الرّاحة، في منزل بالرّيف، وفي الشّواطئ أو الجبل. وأنت أيضا تتعوّد على الرّغبة الملحّة في أشياء من هذا القبيل. هذا هو عين الابتذال، بما أنّه من الميسور لك أن تجعل نفسك ترتاح داخل ذاتك، في الوقت الّذي تريد. ليست للإنسان راحة، أكثر هدوءا ولا أكثر تنصّلا من الشّواغل، من تلك الّتي تكون في عمق نفسه، خصوصا عندما يمتلك المرء في ذاته كلّ ما يجب، لكي يبلغ ذلك، شريطة أن يركّز فيها اهتمامه على شيء يسيرٍ وسهل» (أفكار)[1].

سنقول إنّ التّمشّي مستحيل، عندما تغمره الكروب وتعانده : آلام الجسد واضطرابات النفس. لكن ثمّة تمارين فلسفيّة لتنمية السّكينة. تمارين حرّيّة. وفي الوقت الحالي، فإنّ الذّاكرة والمخيّلة يمكنهما إعادتنا إلى لحظات أخرى، إنعاش منظوريّات أخرى، وتحريرنا، بذلك، من الوساوس الحاضرة. إنّها فسحات داخليّة.

إنّ حلم اليقظة ليعلّق الاستعجال، ويكتشف في اندهاش أنّ هذا الأخير يمكنه، في آخر المطاف، أن ينتظر. [عندها] يتنفّس الوعي.

«بالنسبة إليّ إذن، أنا أحبّ الحياة»

«بالنسبة إليّ إذن، أنا أحبّ الحياة.» (مونتاني، المحاولات)[2]. اعتراف من هذا القبيل ينبع من ثقة بدئيّة. لقد لاحظ الفيلسوف أنّ المتعة تصحب تلبية الرّغبات الأساسيّة. ويستخلص، من ذلك، درسا في التّفاؤل. اكتشاف عاديّ، لكنّه منسيّ في الغالب : «لقد لاحظت أمومة الطّبيعة ذلك بأنّ الأفعال التي ألزمتنا بها لسدّ حاجتنا، كانت مبهجة لنا أيضا.» إنّ تذوّق العيش لينبع من معاينة تؤسّس للثّقة. إنّ المتعة هي علامة اكتمال. وقد ذكر صاحب **المحاولات** ذلك بوضوح إذ قال: «أنا الّذي ليست لي غاية سوى أن أعيش وأستمتع.»... و«مونتاني، بتأكيده ضرورة إنعاش الوعي بالمتعة [أراد أن يقول بذلك]، لا

1- Pascal, *Pensées*, IV,3

2- Montaigne, *Essais*, III, XIII.

يجب الاقتصار، فحسب، على الإحساس «بلطف الاطمئنان والازدهار،» بل يجب الاستمتاع بذلك واجتراره. لا يجب تذوّق المتع على غرار الاستمتاع بالنّوم، أي دون الانتباه إلى ذلك. لقد كان ‹مونتاني› يدقّق بأنّه كان يحبّ أن يوقظوه، حتّى يحْصُلَ لديه الاستمتاع بالنّوم من جديد... إنّ الوعي السّعيد ليس بحاجة إلى أن يخرج من [دائرة] انفعالاته الدّاخليّة ومن شهادات الجسد، إذ فيها تتمظهر الطّبيعة ويلوح الطّريق.

«الطّبيعة دليل لطيف». إنّ قواعد العيش لا يُبَرْهن عليها. إنّها تُحَسُّ. والعقل لا يقابله الإحساس، وإنّما هو، على عكس ذلك تماما، يرسم ملامحه في صيغة عفويّة. المتعة والألم لا يكذبان. وعلى غرار ما فعله ‹أبيقور›، يؤسّس ‹مونتاني› فنّ العيش الخاصّ به، على أساس بداهتهما. وسيكون البحث عن الملذّات متنوّعا بقدر ما يكون ممكنا، وسيعود إلى الوعي الاستمتاع بذلك استمتاعا تامّا، بتكثيفها أكثر ما يمكن، حتّى نزداد إحساسا بها. الوعي بالمتعة، وهي نامية ومضخّمة، يعطي صلابة للسّعادة. إنّه يثبّتُها في ذاكرة ستكون ثمينة أيّام الحزن، وستساعد على تحمّلها بإضفاء طابع نسبيّ عليها.

من العالم إلى الذّات، هذه القدرة على الاستمتاع تكتمل بضرب من حكمة مّا، هو أفضل، والّتي تستعمل، على أفضل وجه، الظروف الّتي لم يقع اختيارها. إنّ اتّخاذ مسافة، إزاء الأدوار الاجتماعيّة، هو شرط لحرّيّة داخليّة، وشرط لصفاء الذّهن. «فشيخ المدينة و‹مونتاني› كانا دوما يمثّلان اثنين، يفصل بينهما فاصل جليّ» (المحاولات.)[1] جدّيّة الوظيفة لا يمكن أن تُؤثّر في صميم الكائن، ما عدا الاغتراب وروح الجدّيّة الّتي تقتل اتّخاذ الذات مسافة من ذاتها، مثلما تقتل السّخرية النافعة.

«إنّه لكمال مطلق، بمثابة الكمال الإلهيّ. أن يعرف المرء كيف يستمتع مخلصا بكينونته» (الفصل الأخير من المحاولات)[2]. إنّ الاستبشار بالحياة، وهو يتحرّر على هذا النّحو ويضطلع به، ينمّى في أيّة وضعيّة كانت. «عندما أرقص

1- Montaigne, *Essais*, III, X.

2- Montaigne, *Essais*, dernier chapitre.

أرقص، وعندما أنام أنام، وعندما أتفسّح وحيدا في بستان جميل. وإذا كانت أفكاري تتماسك، إزاء حوادث غريبة، برهة من الزّمن، فإنّني أرجع أفكاري، في برهة أخرى، إلى الفلسفة، إلى البستان، وإلى حلاوة هذه الوحدة وإلى ذاتي».[1]

الاستمتاع بالذّات

يصف ‹روسّو› لحظة العَوْدِ إلى الذّات، حيث تصنع فيها الحياة بشكل مّا، زهد ذاتها، لكي تتأكّد بما هي كذلك. إنّ اتّخاذ مسافة أو عزلة يساويان خلاصا، ولكن أيضا عودة إلى المنبع. إنّ «التفرّغ الثّمين» ليس بطالة، بل هو وقت حرّ، بالمعنى الأساسيّ للنّشاط الحرّ. هذا الوقت الحرّ يمكن أن يكون حلم يقظة، أو نظرا للأزهار والصّخور، أو تأمّلا للطّبيعة، كما تذكّرنا بذلك الفسحة الخامسة للحالم المتوحّد. يصف ‹روسّو›، في هذه الفسحة، وضعيّة الانتشاء والعودة المثقلة إلى الذّات، مثقلة بالوحدة النّافعة : «بماذا نستمتع في مثل هذه الوضعيّة ؟ لا شيء من خارج الذّات، لا شيء عدا الذّات نفسها، ووجودها الخاصّ، طالما دامت هذه الحالة، فإنّنا نكتفي بذواتنا، شأننا في ذلك شأن الله. إنّ الإحساس بوجود مطهّر من أيّ انفعال هو في حدّ ذاته إحساس ثمين بالطّمأنينة والسّلم...» (الفسحة الخامسة).[2]

الأكيد أنّ لهذه الحياة الدّاخليّة حدودا : إنّها لا تغيّر العالم، بل تغيّر الصّلة بالعالم، وتتمّم، في كلّ مرّة، كلّما توجّب ذلك، ما يحصل فيها من نقص. وهذا نعرفه جيّدا خصوصا عندما يبدو الحاضر مكبّلا : إنّ للتّفكير في المستقبل طعم الانعتاق. إنّه يضع تحت تصرّفنا شيئا آخر. فيصمد الأمل، رغم كلّ شيء. إنّ الانفتاح على الممكنات ليغذّى تذوّق العيش، على طريقة علم خفيّ يكون من المفيد العودة إليه، غالبا. على هذا النّحو، نحسن تصريف الزّمن الّذي يرتسم داخل حركة الوعي.

1- Montaigne, *Essais*, III, XIII.

2- J. J. Rousseau, *Les Rêveries du promeneur solitaire*, cinquième promenade.

إنّ تجربة الوحدة، وما يكون لها من طعم، بمعزل عن ضراوة العالم، لهما قيمة الشّاهد. إنّهما التّجلّي المميّز للحرّيّة الإنسانيّة. أحسّ أنّني لست آلة، وأنّ الأمر يعود إليّ في أن أختار التّرحال في أفكاري وفي حياتي الحميمة. إنّه لحدس قويّ يشبه الكوجيتو الدّيكارتي الشّهير، أين يتأكّد الوجود ذاته، بالفكر وفي الفكر. فبمجرّد أن تنعقد صلة بالذّات صادقة وأصيلة متحرّرة من ضبابيّة العالم المجتمعيّ ومنطق الظّاهر، تكون هذه الحرّيّة شاهدا على ذاتها، بما هي حدس يدرك بكلّ جلاء. إنّ الفرحة الحاصلة من مثل هذا الحدس، حتّى وإن كانت صامتة، فهي تشارك في تذوّق العيش. إنّني أحيا، وهذا أمر لا مجال للشّكّ فيه، وحياة مثل هذه ليست حياة أيّ كان. إنّها تتصرّف في نفسها، على الأقلّ، في هذه الخفّة، خفّة الفكر الدّاخليّ. هذه القدرة على الحركة التي تسافر من الذّاكرة إلى المخيّلة، ومن الانتباه إلى التّأمّل المتحرّر، فسحة المتوحّد مهما كانت كئيبة، عندما تكون صدى لأحزان مبرّحة، هي تجربة حرّيّة. إنّ المرء لا يكذب على نفسه. وثمّة، في هذا الحدوث، ما يشبه عملا بالنّيّة. هذه النّيّة الطّيّبة التي تنظر قبالة الشّيء، وجها لوجه، ولا تبحث عن الهروب. بالنسبة إلى «روسّو»، كما هو الحال بالنّسبة إلى «ديكارت» و«سارتر»، لا يمكن للإنسان أن يعرّف، في آخر المطاف، إلاّ بالحرّيّة، حرّيّة الفعل، حرّيّة صنع الذّات التي تتمّم حرّيّة التّفكير وتتأسّس عليها، في آنٍ. الحرّيّة هي من جهة الكينونة، لا من جهة التّملّك. هنا يكمن الرّابط، بين الحرّيّة والسّعادة، رابط يعلن عن نفسه، دون شوائب. سعيد من يكتشف أنّه في الأمور الجوهريّة لا يتّبع المرء إلاّ ذاته، فيكون، بهذا المعنى، شبيها بالله. لقد أكّد «أبيقور»، بجدّ، هذا المثل الأعلى للاكتفاء الذّاتيّ، والاستقلال الدّاخليّ الّذي لا يفهم على جهة الانطواء الأنانيّ، وإنّما بما هو الاستعداد الحرّ للذّات. الحكيم الحرّ والمستقلّ يمكنه، أن يعيش حياته الاجتماعيّة، وأن ينمّي بنفس القدر، الصّداقة والمحبّة (*Philia*) الشّهيرة للإغريق، الذي هو بصدد انجازها بطريقة غير ذاتِ غَرَضٍ. إنّ لعب الأطفال يعود مجدّدا، عندما يكون الكائن حرّا، ويتمتّع باستقلاليّته على أحسن وجه.

أنا أفكّر إذن أنا موجود.

لا نحتفظ من الطّفولة إلاّ باليقظة المنتبهة إلى مشهد الأشياء، وإلى اكتشافها الشّعريّ فحسب. بل إنّنا ننزع أيضا إلى الاحتفاظ بهذه السّذاجة الّتي هي الوجه المعاكس لليقظة. شهادة الحواسّ لا تخطئ، عندما تُفْهَمُ كما هي. لكن، قبل سنّ النضج، تنقاد إلى الأفكار. وانطلاقا من معتقدات وإغراءات ومخاوف وضروب من السّحر البدائيّ، يتشكّل، حينئذ، ضرب من المتخيّل، تستمدّ منه الأحكام المسبقة منبعها. إنّ الأحاسيس لتنعكس على الأشياء، إلى درجة تلحقها بحياتها الخاصّة، وتفقدها في الحياة الذّاتيّة، لزمن مّا. غياب هذه المسافة هو بمثابة ما قبل تاريخ الفكر. وهذا الأخير لم يقع بعد، على ذاته. «بما إنّنا كنّا أطفالا قبل أن نكون رجالا، وبما أنّنا كنّا نحسن تقدير الأشياء تارة، ونسيء تقديرها، تارة أخرى، حيث كانت تمثّل لحواسّنا عندما لم يكن بوسعنا استعمال عقلنا استعمالا تامّا، فإنّ العديد من الأحكام المتسرّعة تمنعنا من التوصّل إلى معرفة الحقيقة...» لا تشتمل ملاحظة «ديكارت» في كتابه **مبادئ الفلسفة** على أيّ مسكن. إنّه اختبار مصيريّ سيرجّ مع ذلك عالم الطّفولة.

يكفي أن يحدث في يوم مّا، أن تشوب شائبة نقطة مّا، أو معتقدا شائعا أو رأيا سائدا، وأن تقع مناقضتها، حتّى يحلّ الشّكّ، شيئا فشيئا في كامل الوعي، ويقيم فيه. فإذا حدث أن خدعوني حول هذه النّقطة، فما الّذي يضمن أنّني لم أُخدَع في ما سواها ؟ سؤال حارق بل ومقلق، يُعاود الكرّة، في كلّ مرّة تبدو فيها التجربة المعيشة تخلط بين كلّ العلامات. وأوّل خيبة أمل هو ذلك اللّا فهم الحاصل، لحظة انهيار ما كنّا نحمله على محمل البداهة. هل علينا أن نيأس من الحقيقة ؟ ونيأس معها من كلّ ما يساعد على التّوجّه بيقين؟ كيف نتصرّف، كيف نكون سعداء وقد انقطعت الثّقة وأصبحنا نشعر بأنفسنا تحت رحمة حكم متقلّب لتجربة مشوّشة، دون منطق واضح؟ يذكر «شكسبير» (Shakespeare)[1] إحساس «مكبث» (*Macbeth*) بالعبث، وهو حائر في قصّة بقدر

1- «شكسبير»: من أشهر عظماء الفكر والأدب العالميّ، شاعر ومسرحيّ إنجليزيّ، عاش ما بين 1564 و1616، وقد سمحت له هذه المدّة الوجيزة من الزّمن بكتابة روائع المسرح العالميّ التي سبر فيها أغوار النّفس البشريّة. من أشهر آثاره الكوميديّة كوميديا الأخطاء، تاجر البندقية. ومن أشهر آثاره التراجيديّة «روميو وجوليات»، «يوليوس قيصر، و«هاملت»، و«عطيل»، و«مكبث»، و«الملك لير».

ما هي عنيفة، هي مثيرة، أطاحت بكلّ مثابرة، وقضت على كلّ شجاعة: «إنّها قصّة يرويها أبله، مليئة بالرّعب والضّوضاء، ولا تعني شيئا» (**تراجيديا مكبث المشهد** V الفصل 5).[1]

ينبني الشكّ الوجوديّ على ضرب من الدُّوّار، لا تفصله إلّا خطوة واحدة عن تهديد عالم مزيّف بالتّمام، ولا تفصله إلاّ خطوة واحدة عن كونٍ يتصدّع في الموضع الّذي يبدو فيه كلّ شيء صلبا، إزاء تهديد عالم مغلوط تماما، بفعل شيطان ماكر، يجعل الكذب سلوكا يوميّا، بقدر ما يجعله غير متوقّع. يجب، من هنا فصاعدا، التّقدّم على الشكّ وعدم الخضوع له، وإنّما تدبّره إراديّا، وكأنّه سلاح للتّحرّر الدّاخليّ. البحث عن نقطة ارتكاز هو قرار جازم. البحث حيويّ : إنّه يوجّه الجلاء، هذا النّور بوجهيه العمليّ والنّظريّ. الحرّيّة وإرادة الحقيقة مرتبطان، في المسار الّذي يذهب من سذاجة عهد قريب إلى ريبة اليوم، ثمّ إلى إعادة بناء الغد. فأن نضع كلّ شيء موضع شكّ هو أن نكتشف شيئا لم يوجد فحسب، على أنّه مجرّد موضوع. من ذا الّذي يقدر على الشكّ بهذا الشّكل، إن لم يكن كائنا قادرا على اتّخاذ مسافة، والتحرّر فورا من الصّور التي تحضر أمامه ؟ وباختصار، من يستطيع أن يشكّ بهذه الجذريّة، إن لم يكن كائنا حرّا، تتأكّد لديه الحاجة إلى هذه الحرّيّة، الّتي هي بمثابة تخلّص من وطأة العالم ؟ لتحقيق ذلك، لا بدّ من نشاط داخليّ، حياة الوعي، أو إن شئنا، حياة النفس، لكي نسمّي، على هذا النّحو، ما يجعل التّفكير المحرّر أمرا ممكنا. إزاء المطلق، تقف أوهام مخادعة، فيعود الإنسان إلى ذاته، ويستوعبها بنوع من التّعجّب، هو بمثابة فكر حرّ. يحلّ مجال مفتوح لتجربة قابلة للتّوضيح، بدل عالم مخادع وملغز، كان بالإمكان أن ينشأ فيه الخوف والاضطراب. ليس للشكّ الكلّيّ أن يترك شيئا خارجا عنه، حتّى يكون الاختبار مصيريّا بحقّ، وحتّى لا يأتي، بعد ذلك، أيّ اعتراض يعتّم إعادة البناء على أسس جديدة. الشّكّ المنهجيّ هو بمثابة منعرج ضروريّ لتحرير الوعي من كلّ ما يثقله، ومن كلّ ما يُفرض عليه، بعنوان مجرّد العادة، ومن كلّ ما يلزمه، دون أن يكون حقيقة سيّدا في اختياره أو رفضه.

1- تراجيديا مكبث *La tragédie de Macbeth*, acte V, scène 5

إنّ مبدأ هذا الفكر الحرّ، الّذي يسمّيه «ديكارت» «النفس»، يأخذ إذن، بزمام الحياة ويجاهد لتسييرها. لا بدّ من التّجرّؤ على الحقيقة، حتّى وإن كانت محرجة. إنّ الفرح المصطنع الّذي يصاحب الوهم المُسَلّم به، إلى حدّ مّا، عن وعي، تشوبه مرارة. أمّا الاطمئنان النّاجم عن البحث الصّارم عن الحقّ فهو أصدق وأدوم، بالخصوص، لنتجنّب الاحتفالات المريرة.

الدّرس الخامس

طعم العالم

عصفور الرّبيع

رسم الخطاف مسارا أليفا في السّماء، وخلق تحليقه نور الصّباح من جديد. خطاف بمفرده، حرّ وهشّ، سيكون ذكرى ربيع، عندما سينتصر عبق الأرض لحياة جديدة. يرتعش النّسيم بلطف، وترتجف الأوراق المجمّعة في الرّيح، ويتنفّس المشهد الصّباحيّ في نغم من الهمسات. الوعي، وهو منتبه ومأخوذ إلى حدّ مّا بكونه حاضرا، هكذا، قبالة جمال الأشياء، قدّر اللّحظة التي غمرته. الفرحة، ههنا، بسيطة، كلّ البساطة، مثل هذا المشهد الطّبيعيّ الذي يسحر لأوّل نظرة. حَسَنًا سيفعل بخروجه واقتسامه لهبة العالم. حسنا سيفعل بتذوّق اللّقاءات وبالاستعداد ليكون شريكا لكلّ فرد وللجميع. الحجر الدافئ، والأزهار الرّشيقة التي تنحني سيقانها عند مهبّ النسيم، البحر ما زال ناعسا في لمعانه الثابت، يستقبل الانتظار ويجعل منه حلم يقظة. ينشبك النّظر مع الشّكل. إنّه يستسلم فيه للهدهدة والاسترخاء والسّكينة. المنظر الطّبيعيّ برمّته يثبت في ذاكرة آخر الحركات وآخر الكروب. يؤخذ المرء على حين غرّة، وهو يرى، دون أن يبصر، ويبصر، دون أن يرى. راحة الانتباه وانبساط الوجه. تهلّلت القسمات. العالم، ههنا، دون لماذا. وحضور الكائنات يمتدّ فيه. إنّه حضور صامت. بعيدا عن مغامرات لا تتوانى عن الظّهور. هل حلّ الربيع بعد؟ ذاك الذي رسم طيران الخطاف ملامحه؟ لحظة واحدة من الفرحة لا تصنع السّعادة. وسيدخل المنظر الطّبيعيّ في تاريخه الخاصّ. أن يعيش المرء، هذا

أمر يُخْتبَرُ، بكلّ بساطة، على طريقة احتفال صامت للشّمس والرّيح، وأشكال يسبّح بعضها لبعض، في نور جديد تمام الجدّة. إنّ الأشياء والكائنات لهي في طعم العطر البكر. فإذا هو نفس جديد.

عالم للعيش

تستيقظ المدن، ويمتلئ الأفق بالأصوات. توحي الوجوه بالكلمات. العيش، ههنا، طفل وحيد يبكي من جرح طفيف، ينادي، دون مجيب. هناك خراب يعاد قصفه من جديد، فيبتلع البشر الّذين كانوا يبحثون عن مخبإ. من ذا الذي يقول بأنّ ضيق الحياة هزيمة؟ هل هو نظرة دون صدى، وحبّ ينكسر، ووجه يتقسّم تحت وطأة الألم الدّاهم؟ الأمل اللّا محدود يتلاشى. ضحكات وبكاء يمتزجان. آلام غير منتظرة، ملذّات مشوّشة بذاكرة من الآلام. العيش. عندما تمر السّنون، نعاود البحث عن طعم عالم الأمس، في ألوان باهتة. منظر غريب نعيد التعرّف إليه مع ذلك، تحت أصدائه الكئيبة.

هل الشّاعر محقّ، عندما يلجأ إلى النّصيب المشترك للبشر؟ يقول ›بول إيلوار‹ (Paul Eluard)[1]: «لا حاجة لنا من كلّ شيء لتشكيل عالم. لا بدّ من السّعادة، ولا شيء سواها.» نتردّد إزاء هذه الأمنية التي تشبه خيارا بسيطا جدّا بين أمرين. السّعادة ولا شيء سواها. هذا أكيد. لكن، هل يمكن التّفكير في الفرح، دون التّفكير في الألم؟ وهل يمكن التّفكير في خلود الانتشاء الآنيّ، دون عناء التّمزّق؟

لم يكن الخطاف هو الرّبيع. لكنّه كان يدلّ على وعد بعالم سوف نعيشه. يتحرّر الإنسان من حدوده في لحظة الحبّ، أو الصّداقة أو الشّعر أيضا. وتجربة الخلود هذه ليس فيها ما يدعو إلى الهزء. السّعادة. لحظة واحدة من السّعادة لا تصنع كلّ السّعادة، إذ أنّ الوعي مهوس بعدُ بتاريخه وبماضيه الملحاح وتردّده. إنّه يتفحّص الكون بكآبة. لكن، هل يجب لهذا السّبب التّموقع في الظّلّ

1- ›بول إيلوار‹ : أسمه الأصليّ أوجين إيميل غراندال Eugène Emile Paul Grindel ولم يتبنّ الاسم الجديد إلّا عندما بلغ سنّ العشرين. شاعر فرنسيّ عاش ما بين 1895 و1952 من روّاد المدرسة السّرياليّة. فتح الباب أمام الممارسة الفنيّة الملتزمة.

الحامل للموت، وفي الماورائيّات التّي يفترضها، وفي العوالم الأخرى، أين يُشَفّر كره الذّات وكره الحياة؟

الأكيد أنّ الأوجاع الأولى قد شوّشت الاستقبال البريء من الخبث للمناظر الطّبيعيّة والانفعالات، هذا الإدراك الممتلئ والعاري الذي يخصّ الطفولة، دون سواها. الأكيد أنّ الآلام الماضية، والآمال المكبوتة، في يوم من الأيّام، والمشاهد الجارحة، قد مزّقت الثّقة النّاشئة للنّظر. حلّ الشكّ وأغرق لزمن الفرح الصّافي للاكتشاف. إنّها إعاقة الحاضر المجروح بالخشية والمسكون بصور سوداء.

الإنسانيّة طاعنة في السّنّ، والزّمن المؤلم قد انغرس في الأشياء. مناظرنا الطّبيعيّة تذكّرنا بالنّظرات الّتي طالما أحببّتها، وحالات الضيق التي شكّلت آفاقها، وضخّات الدّم التي مزّقت شفافية الهواء. صمتها مثقل، شديد الثقل، بنحيب منسيّ يعسر معه ألا يكون صداها على طريقته، هو ضرب من الضّجيج السّريّ والأصوات المتقطّعة.

طائر الليل

لقد ولّى عهد الصّبا، وبدا، بعد، عمل بطيء للذّاكرة يحدث ألما. في نور اللّعب الأوّل، أخذ رهان السّعادة عمر الأوجاع. لا بدّ من تذكّر المغامرة، جيّدا، وخوض تجربتها.

لقد اختفى الخطاف، وحلّ الظّلام، ما بعد اليوم الأوّل. طائر آخر سيحتلّ السّماء، ليميّز، في الظّلمة، بين الأشكال السّاكنة للنّظر الطّبيعيّ. ملامح الوجوه بيّنة، والوعي متعب. إنّها لم تعد تعرف شيئا. طائر الليل يتفحّص الأشياء التّامّة، والفُتَاة المبثوث على الأرض، والذّكريات الهازئة للاحتفال، وآثار الحزن. كان نور الصّباح يجرح العينين، والشّمس تذكي هذه الجروح. عندما سيعتّم الليل كلّ شكّ، ويطمس الصمت الكلمات، وعندما تغور السّماء في الأرض، عندما لن يكون ثمّة شيء يشاهد على الإطلاق، عندها، لا بدّ من الاشتغال

على الذّكريات والتشبّث بصور متردّدة، وإعطاء الحياة أصداء داخليّة. سيعيد الفكر خلق العالم والأشياء من جديد.

خفقان الجناحين يشقّ اللّيل. طائر الحكمة قد أتى، عَوْدٌ على بدء، إلى الحياة يضيئها على طريقته. بومة «مينرفا»، آلهة المعرفة الصّافية، ترسم مغامرة جديدة للوعي. ها هي ذا متحرّرة فجأة من الانفعالات النّهاريّة، ومسكونة، فحسب، بهذه الكآبة التي تتأمّل المسرح المتصحّر: زينة ذابلة، وأقنعة منسيّة، ودخان مشتّت قليلا في ضبابات متغيّرة، أين تمّحي ملامح الأشياء. أن تفكّر معناه أنّ الحياة هنا، مصفّاة في الصّور المحتفظ بها، وفي الكلمات الجامدة على الشّفاه. لقد آن الأوان لتقريب الانفعالات المبعثرة، والملاحظات المفصولة بعضها عن بعض، والتّجارب الخرساء.

ليجمّع المرء أفكاره، حينئذ، مثل زهور مقطوفة أصابها الظمأ. ليفكّر، حتّى لا تكون الذاكرة فقط افتتانا قلقا، لذكريات تتعاقب فيها الآلام التي كابدناها، والمتع التي عشناها، دون نظم، وبشكل غير معقول. فرح آخر سيبزغ. إنّه فرح الفهم. فالإنسان هو الذي يضاعف حياته الأولى، لكي يتأمّلها. غدا، يجب العيش من جديد، عندما يكون اللّيل قد آوى الوعي العاجز لينقذه، عندما يكون الأمل قد ترك مهد الصّدفة. لن يكون ثمّة نفس الانتظار، ولا نفس أوجاع خيبة الأمل الأولى. ليتّخذ الزّمن بعدا جديدا. سيضطلع صبر العيش بالأحزان والمسرّات. لغز السّعادة سيتأرجح بين القبول الهادئ لما هو كائن، والحلم بما هو ممكن. لن يغرق معنى المثل الأعلى في الوجع العنيد. وسيعطي هذا الصّبر الجديد ثقة للمجازفة في الحياة. لا بدّ من المجازفة للتّمتّع بالعالم. وستعيد هذه المجازفة اكتشاف طفولة المتع، بعيدا عن الكروب والأتعاب. إنّه الاستمتاع بالعالم وبالذّات. السّعادة عمل.

طائران يَنْظُمَان الذّاكرة. طائر الرّبيع كان يحكي عن طيران الحياة الدفّاقة والفرِحَةِ. أمّا طائر اللّيل فقد اهتمّ بما كان، ويهب لنفسه فرصة التّفكير الرّصين الذي يتغلّب على هواجس الموت.

مجد الكون وحثالته...

يقول ‹باسكال›: «أيّ كائن خياليّ هو إذن، هذا الإنسان؟ أيّة طرافة؟ وأيّ كائن خرافي هو؟ وأيّ سديم؟، أيّ جامع للمتناقضات؟ أيّ سخيّ هو؟ حَكَم في كلّ الأشياء. دودة أرض بلهاء. مؤتمن على الحقيقية. وماخور ريب وأخطاء. مجد الكون وحثالته.» لا يمكن التّعبير بشكل أفضل من هذا عن ازدواجيّة الوضع الإنسانيّ في العالم، عن قوّته وهشاشته، تفاهة بعض ادّعاءاته، وعظمة ما هو قادر على فعله. هل يعني هذا أنّ المغامرة الإنسانيّة لا يمكنها أن تتجانس مع أيّة غبطة حقيقية؟ العالم *mundus* بالنسبة إلى ‹باسكال›، ومثله ‹أوغسطين› (Augustin) موسوم بالخطيئة الأولى لبشرية متكبّرة، بالغت في تقدير قوّتها، وتحدّت الله بفعل ما أمر بتحريمه. قطف الثّمرة المحرّمة، في إطار وجود شبه كامل، لا يعرف الموت ولا العمل الشّاقّ، ولا أيّ ضرب من ضروب العذاب، كان من المنطلق رفض ما هو ممنوح، لكنّه مصحوب بشرط. غير أنّ مهر هذه الحرّيّة ثمين. هي موطن عذاب وفداء، لا يفرغ العالم الأرضيّ فيه من نشر عيوب الطّبيعة البشريّة، رغم أنّها سوّيت على صورة الله. هل بالإمكان، حينئذ، تذوّق طعم سعادة تامّة فيه؟ إنّ الصّورة الدّينيّة للغبطة الأبديّة، التي لا يمكن بلوغها إلاّ خارج العالم، «وفي نهاية الأزمان»، تؤدي إلى الشّك فيها. الزّمن هو رقم النّهاية، وكلّ شيء إنسانيّ أو طبيعيّ، مآله إلى العدم. يقول ‹كيفيدو› (Quevedo):

«De que sirve presumir,
Rosa, de buen parecer
Si aun no acabas de nacer
Cuando empiezas a morir?»

ما الدّاعي إلى كلّ هذا العُجب؟
يا وردة، حتّى تظهرين بمظهر جَميل.
إذ بمجرّد أن تولدي،
تبدئين بعد في الممات ؟

يتشبّث ‹باسكال›، تحت اسم التّسلية، بشجب لعب العالم الإنسانيّ، وانفعالاته التّافهة، بالضرورة، بالنّظر إلى الخلود. «الفعل الأخير دمويّ، مهما

يكن باقي الكوميديا جميلا : إنّنا نواري التّراب. وتلك هي النّهاية إلى أبد الآبدين.» أن يتسلّى المرء، معناه تأثيليًّا، أن يحيد عن شيء مّا، حتّى لا يفكّر فيه مرّة أخرى، ويهتمّ بشيء آخر. ما هو صخب العالم؟ وأين يمزج البشر بين صيحاتهم ومباهجهم؟ إنّه لهروب وفرار يدعوان إلى الشّفقة للوعي المذعور، يتسترّ من الموت الآتي، دُوَارُ الّلا معنى، ومنظوريّة العدم، أو «الإله السّاخط»، فيها شيء لا يُحتمل. لذلك يجاهد البشر الانفصال، هاهنا، عن القلق. «وأيضا، فإنّ البشر الّذين يحسّون بالطّبع وضعهم، لا يبحثون عن تفادي أيّ شيء، طالما هم في راحة: وليس لهم أن يفعلوا شيئا، لكي يبحثوا عن منغّصات.» (**أفكار**، 139) إنّه لسلوك تافه، إذ أنّ الأسئلة الحارقة تعود وتلحّ. لماذا هنا وليس هناك؟ لماذا الآن وليس الأمس؟ لماذا بناء ما سيُهدم في الغد؟ من أين أتينا؟ إلى أين نحن سائرون؟ إذا كانت الطّبيعة لعبة عدم وسديم، فأيّ معنى للمغامرة التي تنبع من ذاتها، لكي تضطرّ للضّياع فيها عن قريب؟ إذا كان أيّ إله قد خلقنا، فلماذا جعل الشرّ يتقاسم العالم مع الخير؟ ما الذي سيفعله بنا عند مماتنا؟ لا أحد يمكنه تجنّب دُوَارُ هذه الأسئلة. «المَلِكُ محاط بأشخاص لا يبحثون إلاّ عن تسلية الملك، ومنعه من التّفكير في نفسه، إذ أنّ كلّ ملك مهما كان، سيكون تعيسا، إن هو فكّر في نفسه» (المصدر السابق). علينا بالانزياح عن وضعنا الحقيقيّ والكفّ عن التّفكير فيه، على الإطلاق. يقول «باسكال، أيضا، التّسلية دنيويّة، وكلّ كرامتنا هي في الفكر. وعلى هذا الأخير أن يتشبّث بتقدير وضعنا الإنسانيّ، حتّى ينصرف في الأخير إلى المهمّ، الذي يوجد في مكان آخر. إنّ الدّفاع عن الدّين يؤدّي إلى إتيقا المنفى. «التّسلية. البشر وقد عجزوا عن قهر الموت والبؤس والجهل، نصحوا بعضهم بعضا ألا يفكّروا في ذلك، حتّى يكونوا سعداء» (**أفكار**، 16). المعاينة غريبة، تلك التي لا تريد أن تحتفظ إلاّ بالآلام المتعدّدة الأشكال، التي اكتسبت في مسارها صفة المقدّر. هل يحتلّ البؤس والجهل، الّلذان ليس فيهما شيء مقدّر، نفس مقام الموت؟ وهل يلقي هذا الموت بظلاله على كلّ شيء؟ إنّ إتيقا سعادة أرضيّة، دون نسيان الوضع الإنسانيّ، تسمح باستدعاء يأس من هذا القبيل.

ثأر سيزيف

الرّغبة في الخلود هي الّتي تجعل أيّ شيء آيل إلى الفناء، يظهر بمظهر العبثيّة. لكنّ رغبة من هذا القبيل تنطوي على روايتين مختلفتين، تمام الاختلاف: الأولى تستخدم الحنين إلى جنّة خالدة، كان الإنسان قد فقدها نتيجة خطئه، وقد كانت نتيجتها أن بخست جذريّا قيمة المغامرة الإنسانيّة. أمّا الثانية فتتضمّن الإرادة الخاصّة بكلّ فعل مثابر، لإنجاز الأشياء بأكثر ما يمكن من الدّقة، وكأنّها كانت مهيّأة، لكي تبقى على الدّوام. إنّها لا تخطِئ معناها، بنسيان الفناء، لكنّها تعطي كلّ قيمته إلى الوجود الدّنيويّ، رافضة مواجهته بخلفية عالم خياليّ. على خلاف الرّواية الأولى، فهي تولي اهتماما أكثر رفقا بجمال العالم وبالمغامرة. لكلّ رواية من روايتي الرّغبة في الخلود يمكن أن تكون لها قيمتها الخاصّة، عندما يتعلّق الأمر بتحرير الوعي من الوهمين اللّذين يتربّصان به، أي إغماض العينين إزاء أوجاع الوجود المعطى وحدوده، أو تجاهل عظمة المغامرة البشريّة.

سيزيف، هو أوّلا وقبل كلّ شيء، بطل المغامرة البشريّة الّتي اضطلع بها، وأكّدها، بما في ذلك تحدّيه فيها للآلهة. يروي ‹هوميروس› التّعذيب الّذي عاقبته به الآلهة (**الأوديسا** الكتاب الحادي عشر)[1]. كان عليه أن يدفع، دون انقطاع، صخرة حتّى يصل بها إلى قمّة جبل، أين تتدحرج على أعقابها، بفعل وزنها لا غير، لتتكرّر عذاباته في صعود جديد. هذا العذاب هو الصّورة عينها لأبشع الوضعيّات، تلك الّتي تخصّ عملا عبثيّا بامتياز، دون أمل، على الإطلاق، يمكن أن يبرّره. يذكر ‹ألبير كامو› في كتابه **أسطورة سيزيف** أنّ سيزيف كان يحبّ الحياة إلى درجة كونه قيّد الموت. يحكي أيضا أنّ سيزيف حصل على ترخيص للعودة إلى الحياة، بعد موته، ليعاقب زوجته الّتي لم تستطع تجربة حبّها أن تحفظ لحدا كريما، لجسد زوجها... «لكنّه، عندما استعاد النّظر من جديد إلى وجه العالم، وتذوّق من مائه وشمسه، والحجارة السّاخنة والبحر، لم يعد يريد العودة إلى الظلمة الجهنّميّة. لم تعد ضروب التّذكير والوعيد، والتّنبيه تجدي نفعا ههنا. سنوات عدّة انقضت، وهو يعيش أمام تجويفة الخليج، والبحر

1- Homère, *Odyssée*, livre XI

السّاطع وضحكات الأرض. كان لا بدّ من توقّف الآلهة. جاءت عطارد لتمسك بالجريء من رقبته وتنزعه من أفراحه، وتُعيده قسرا إلى الجحيم، أين كانت صخرته في انتظاره». وبإيجاز، إنّ حبّ الحياة، هذه الحياة، يبدو أقوى من أيّ شيء، بما في ذلك الخشية من العقاب اللّامعقول. مع هذا العقاب، تصبح الحياة، حينئذ، اختبارا. ومع ذلك، فسيزيف، هاهنا أيضا، يقلب الوضعيّة. فمن هذا المسار المكرور، دون هوادة، تحت سماء جحود وقاحلة، سيصنع الإنسان المتروك وسيلة لتأكيد ذاته. وإذا لم يُعْطَ المعنى، بعد، إلى حياة هي في الأصل عبثيّة، يوكل إليه هذا الأمر لتحقيقه. وهذه الحرّيّة الأوّليّة تساوي كلّ هبات السّماء. فالإنسان الهشّ، الفاني، المضطرّ إلى تكرار عدّة مهامّ، يسكن عالمه، يلاحظ فيه جمال الحجارة ولطف الضّياء. إنّه ينتشي بروائح البحر، وينسجم مع الشمس. وبإيجاز، فإنّ سعادة العيش تتقدّم على أنّها مكافأة لا مناص منها لصبره. إنّ صفاء اليأس يجد هاهنا، منفذه، مثلما تنبثق جذوة شعاع بفعل الرّيح في ليل قطبيّ. يقول «كامو» هذا بقوّة. «أنا أستخلص هكذا ثلاث نتائج من العبث، هي تمرّدي وحرّيتي وانفعالي. بلعبة الوعي وحدها، أحوّل ما كان دعوة للموت إلى قاعدة حياة وأرفض الانتحار...»

شعريّة الأشياء.

إنّ لشجاعة العيش بعد ميتافيزيقيّ وشعريّ في آن. قبول دون شرط ولا مساومة، ولا بغضاء أو تقزّز. نعم. العالم جميل وتراجيديّ، ولنا أن نعيش فيه الزّمن، بألم وفرحة ممزوجيْن. يتحرّر الشّعر هنا، من الانتماءات ومن الأحقاد. الشّعر، شأنه شأن اللّعب والرّقص والفكر والعقل الّذي يتأمّل والموسيقى الّتي يعود فيها الوعي إلى ذاته، يخلّص من الانسياخ.

إنّه هاهنا، تُوَيْج ضعيف ولون اعتباطيّ، منحوت في الشّكل الواضح لمنحنياته. وردة وقحة بسذاجتها، لا تنبس ببنت شفة، ولا شيء يهزّها. هي هنا، لا غير، وقنوعة بمجرّد حضورها. هكذا إذن، ليس للوردة أيّ معنى. والطّفل الّذي يندهش من أن تكون الأشياء على النّحو الّذي هي عليه، يفتح عينيه باستغراب. إنّ مشهد العالم ليس له ممثّلون حقيقيّون، لا تلعب الأشياء لكي

تكـون. هي موجودة، هي بديهيّة. ونجد متعة في النّظر إليها، والإحساس بها، ولمسها، أو بكلّ بساطة، الوقوف أمامها. «السّماء فوق السّقف شديدة الزّرقة، شديدة السّكون.» يذكر ‹فارلين› (Verlaine)منظرا مألوفا، لم يكن يسترعي انتباهه. قفل الشّاعر راجعا إلى حضور وفيّ، أصبح سرِّيًا تقريبا، حضور مَسكن أبعاده من الأفق. هذا الحضور شبيه بهبة دائمة، وهذه الهبة غير موجّهة إلى أحد. السّيناريو السّرّيّ للأسباب الطّبيعيّة هو الّذي ولّده، دون أن ننتبه إلى ذلك. البتلات، هاهنا، هشّة وطريّة، باهتة إلى حد مّا، قريبا، تحرّكها بلطف ارتعاشة السّاق الّتي تحملها، لترسم حركتها اللّولبيّة على وقع هبّات النسيم. رقصة ثابتة، تقريبا، ينشدّ إليها النّظر، وكأنّه في حلم لا ينتهي. إنّنا نتنفّس بداهة الأشياء وجمالها الأوّل الّذي لا زمان له. حضور بلا أمس ولا غَدٍ. من يقدّر عمر زهرة؟ «ووردة عاشت ما تعيشه الورود : إنّها مساحة صباح.» إنّ مواساة ‹رونسار› (Ronsard) لتعكس الزّمن البشريّ على النُّوَيْرَة الذّابلة. لم يَعد يتحدّث عن الزّهرة الأزليّة، في عطائها الآني. الزّهرة ماتت. هي ذكرى غابت في كآبة بقايا متشتّتة.

الحُسْنُ المتواطئ

يجب الاستمتاع بالأشياء. كم زهور حملت تعرّجات النّفس، والرّغبة في قول الحركة السّرّية للحنان وإهدائها! يقول ‹كانط› عن الطّبيعة إنّها تبدو، أحيانا، وكأنّها تحاكي الفنّ. توازن منظر طبيعيّ يدفع إلى الاعتقاد بوجود هندسة سرّيّة. خطّ الأفق ساعة الفجريّة، والخطّ الفاصل بين اللّيل والشّمس، يبدو أنّه يحقّق مخطّطا سحريّا مّا. وتتبدّى تغريدة طير، وكأنّها نغم دون جهد، وكأنّ الموسيقى كانت لغة طبيعيّة. الاستمتاع بالأشياء هو الانسياق إلى بساطة حضورها، ولكن أيضا، الارتقاء إلى الحُسْن الّذي تشهد به. فبين الذّكاء والإحساس ينعقد تواطؤ خفيّ، حينئذ، يداعب أحدهما الآخر بحرّيّة. فملكاتنا الّتي تعوّدنا التّمييز بينها، نكتشف، من خلال مهامّها، انسجامها الخفيّ، ويغيّر دورها وجه العالم. يتوقّف ‹كانط›، منبهرا أمام هذا «الدّور الحرّ للملكات»، الّذي يصنع جوهر الفنّ، هذا الفنّ الّذي يعتق الإنسان من أيّ وعي آسر، وأيّة إرادة تملّك نكون، في الغالب، مملوكين لها. هذا الفنّ، في

مُجْمَلِـه، يُعِـدُّ للحبّ الخالص، ويتقـدّم بكونه وعْدَ حرّيّة «الحُسْـن بما هو رمز الأخلاقيّة...» يؤكّد ‹كانط› النّقلة التي يسمح بها التّأمّل الفنّيّ من الانجذاب الحسّيّ إلى الفعل المترفّع عن الغرض. الحُسْن الحرّ للآثار [الفنّيّة] يشكّل ذاكرة حسّيّة للحرّيّة، تصقل، داخل كلّ فرد، على شاكلة طريقة مّا، للنّظر إلى العالم، والسّكن، هكذا، في متحف حيّ. وهو يقيم الدّليل على أنّ إنسانيّة الإنسان هي، بالتّأكيد، غاية لا بدّ من احترامها أكثر من أيّ شيء آخر، إذ هي تكثّف داخلها الحضور الّذي لا يقدّر للكائن الحرّ بامتياز.

إنّ هذه الطّريقة الفريدة في التّشبّث بمشهد العالم، شأنها شأن أيّ وعي اغتنى بتجربة جديدة، هي مصدر السّعادة. بهذا المعنى، علّمنا ‹أفلاطون› كيف نمسك بأوجه الحسن في الأشياء الحسّيّة، كما لو أنّها كانت تشهد على الحضور الحيّ لمثل أعلى. لا توجد دائرة تامّة في الطّبيعة، إلاّ أنّ استدارة القمر الّتي حصرت نتوءات مبيضّة، في هالة زرقاء سماويّة، تعبّر عن حُسْن شكلها. نأخذ في فكّ رموز المنظر الطّبيعيّ، لكي نكتشف فيه ثراء الأشكال الّتي يتضمّنها. في كلّ مرّة، يرتحل فيها النّظر لاكتشاف أشياء، يعترضه المثل الأعلى، الّذي هو فيها ضياء داخليّ. لقد وصف ‹أفلاطون› دائما الهذيان الفنّيّ، أين تُجتاح النّفس مع النّظرة الّتي تؤدّي إلى ما وراء الذّات. فعند ذكر محاورة **أفلاطون** المعنونة **بفيدروس** (Phèdre)، فهم ‹توماس مان› (Thomas Mann) سعادة الكاتب في ثنايا تجربة حُسْن من هذا القبيل. فهذه الأخيرة، تفتح على الفكر بتأمّل ما هو حسّيّ، وتحتفل، في الوقت نفسه، بالحسّيّ، بما هو تعبير عن الفكرة: «لقد كان ‹سقراط› يعلّم تلميذه ‹فيدروس› في موضوع الرّغبة والفضيلة. وكان يحدّثه عن العاطفة الغريبة الّتي تأخذ الإنسان الحسّيّ، عندما تبصر عيناه رمزا للحُسْنِ الأبديّ... الفكر الّذي يستطيع برمّته، أن يصبح إحساسا، والإحساس الّذي يستطيع برمّته، أن يصبح فكرا، هما اللّذان يصنعان سعادة الكاتب. عندما تجتاح الفكرة القلب، فإنّ الإحساس الصّاعد إلى الدّماغ، الّذي كان ينتمي في هذا الوقت إلى الحالم المتوحّد ويخضع له، لقد كان يعرف، وكان يشعر بأنّ الطّبيعة ترتعش بالملذّات، عندما ينحني الفكر مطيعا، أمام الجمال...» (**الموت في البندقيّة**، الفصل الرّابع).

إنّ هـذا التّواطؤ بين مشـهد العالم وسماء الأفـكار التّامة يعمل بشـكل واضح في مغامرة النّظرة الشّـهوانيّة، عندما يسـتدعي الوعي الإنسانيّ الأشياء، لا لاسـتعمالها، بل لتأمّلها كما هي. الشّـعر. لم يعد ثمّة مجال، من هنا فصاعدا، للتّعارض بين الحساسيّة والذّكاء، بل لعيش عاطفة اللّحم، بما هي انتباه تلقائيّ لبيئـة عـالم، أصبح إقامـة مألوفة. لقـد كان ديمقريطس يتحدّث عن حماسـة شـعريّة، بما هي هبة من الآلهة، هذيان مفيد توحي به آلهة الفنّ إلى البشر، لكي تشحن ألفاظ كلّ يوم بجمال يتجاوز أيّ شيء، لكنّه ينساب لينكشف فيها.

ثمّة، إذن، سعادة حقيقيّة في تأمّل العالم، بما هو مقام للمثل الأعلى المنثور بدءا في الأشـياء المبعثـرة. ومع ذلك، يبدو أنّه يمكن للأهـوال والآلام والمظالم أن تُفْشِـل مثل هذه المقاربة. إلاّ أنّنا نمنحها نـصرا ثانيا، الأكثر تخريبا، إذا تذرّعنا بها لنسيان المثل الأعلى الّذي دمّرته. «انظروا كيف يعمل بُناةُ الخراب...»، هذا القول لـ«بول إيليوار» (Paul Eluard)، لا يشـوّه النّشـيد السّاطع الّذي يخصّصه شـعره للحبّ وجمال الأشـياء ونغـم العالم. الخطـاب الّذي يخلط بـين الواقعيّة والاسـتقالة هو أعظم أشـكال البؤس التي يمكن أن توجد. إنّه ينسى صرامة النّفس، لـدى الرواقيّين، موجّهة، فحسـب، لإذكاء الحرّيّـة الدّاخليّة، تلك التي تجعلنا فريسـة لبـؤس العالم، كما هو قائم، وإنّما تـشرف عليه، تلك الّتي تبقى مفتوحة على جمال الأشـياء، مـن وراء ضروب الجنون التي تكلّس المنظر الطّبيعيّ، وتجعل الطّفل يصيح.

التّذكّـر : إنّه تعرّف الشيء الجميل من جديـد، وكأنّنا كنّا قد رأيناه من قبل، في حياة سـابقة، أو ببسـاطة، في هذا المتحف الخياليّ الـذي نظّمناه، داخل ذواتنا. وهكذا، لقد كنّا نملك ثروات لا شكّ فيها، دون أن ننتبه إلى ذلك.

«كلّ شيء هناك ليس إلاّ نظاما وجمالا
بذخ، هدوء، ولذة.»

عالم كهذا، جميل وتراجيديّ. ومع ذلك، لا يمكننا اسـتخدامه، مصرّين، في عناد، أن نرى فيه مكانا للسقوط والانحطاط، شأننا في ذلك شأن المسيحيّة الأكثر تشـاؤما. وسيكون هذا هو نسيان الله في خلقه، من وجهة نظر المؤمن

ذاته. أمّا بالنسبة إلى الملحد، فسيكون ذلك، بكلّ بساطة، نسيانا للإنسان وانغماسا في العدميّة.

الاستمتاع بالأشياء وبالعالم، في الوعي بوقتيّتها، هو الاضطلاع بمأسويّة عالمنا الفاني، وقدرتنا على الاستمتاع المطلق في آن. إنّ جرعة المطلق لتتكرّر مع كلّ متعة مكثّفة، تكتفي بذاتها، وتنسج حساسيّة الكينونة. الثّقة. الإنسان ليس انفعالا لا طائل من ورائه، وإنّما هو هذا الكائن المستحدث الذي يخترع المعنى، فيما وراء تلعثماته، ويعرف كيف يرتّب فرص السّعادة بين تراحيل تاريخه.

الدرس السادس

طعم الآخر

القسمة

العلاقة بالغير هي في البدء، غامضة وعرضة للتّطوّر في اتّجاهات مختلفة، سواء في اتّجـاه العداوة والرّيبة أو التّعاطف والثّقة. غيريّة الآخر، أن يكون فعلا مختلفا عـنّي، لا تجعل أمـر اللّقاء به، ولا حتّى العلاقة النّاجمة عن ذلك- الّتي نسـمّيها صداقة أو حبّا- أمرا ميسـورا. من هنا جاءت الفكرة بأنّ فيليا *(philia)*، حسـن المعاملـة المتبادل، يُفْتَكُ ويُبْنى، في ما بعد الحركة الأولى للانجذاب بكثير. في الأفق، يُمكن الفوز بسـعادة تدُلّ على تذوّق [طعم] الآخر، لدى كلّ إنسـان. قدَرُه في أن يزدهر، في الرّباط وفي الوحدة، دون أن يتخلّى عن حرّيّته. يسـاعدني الغـير، إن آجلا أم عاجلا، على تحقيق أشـياء لم أكن أعرف أنّها في مسـتطاعي. إنّ سـعادة اللّقاءات هي وعد متستّر. التّفكير في الرّابط الذي يمكن أن يوحّد بـين البشر، ويجب أن يوحّد بينهم، هو فهم هـذه العلاقة الأوّليّة بالآخر، المصدر البديهيّ للانفتـاح، للصّفاء الصّارخ، والفرحة المتعدّدة، ولكن، أيضا، [مصدر] الألم عندما ينبثق سوء الفهم. طعم الآخر هو أيضا مجازفة، يضطلع بها قرار العيْش.

يُصوّر «ميشـال تورنياي» (Michel Tournier)[1] عذابات «العالم دون الغير» في قصّته **جُمعة أو ضفاف المحيط الهادي**. لقد فعل «روبنسـون» الوحيد حَسَنا بالسّيطرة

1- «ميشـال تورنياي»: مفكّر وإعلاميّ فرنسيّ، ولد سـنة 1924 تابع دراسات فلسفيّة إلى حدود التّبريز. اهتمّ بعد ذلـك بالكتابة بالصّحف منها Le Monde وLe Figaro. حصل سـنة 1970 على الجائزة الكبرى للقصّة التي تسندها الأكاديميّة الفرنسيّة بعد إصدار قصّته : «جمعة أو ضفاف المحيط الهادي».

على جزيرته، وجعلها مقاما مريحا، لكنّه لم يكن يستطيع العيش بكلّ امتلاء، دون حضور كائن آخر إنسانيّ. إنّه يضعف ويهذي ويعاظل يبروحا[1]، ويعدّد التجارب الخياليّة. وبإيجاز، فإنّ الإنسانيّة تختبر فيه ذاتها، حتّى بهذا الذي ينقصه، أساسا: أي حضور الآخر. خَصَاصٌ داخليّ يحيل إلى مشهد النّقص، بل وحتّى المَلَل، مع من نتقاسم منظر هذا الخليج القُزحيّ البعيد، أين كرّرت الموجة الأخيرة دورتها القمريّة؟ ماذا نصنع بجمال العالم، إن لم نجد شخصا شاهدا على ذلك؟ لا أحد... اللّفظ غريب، فهو يقول الغياب التّامّ لكائن واحد وحضوره في آن.

يمكن أن تقيم الوحدة جيّدا رابطا مع الذّات، ومع المتعة الهادئة للإحساس بالوجود. وعلى أيّة حال، تكون لنا [هذه الوحدة] دائما في الاختيارات الكبرى الّتي تلزم الحياة، لأنّنا لا نستطيع حينئذ، أن نوكل أمر القرار إلى أيّ أحد. لكنّ الوحدة المفروضة تصبح انفعالا حزينا، [ولا يكون الأمر كذلك] إلّا إذا تعوّدنا على العيش بالتّصرّف في الأشياء التي تتوفّر لدينا، حسب نصيحة الرواقيّين. هذا أيضا هو ضرب من الانتظار الذي ننظّمه، لأنّنا لا نختاره بحرّيّة. الرّحلات الخياليّة للأدب التي قال عنها «بروست» (Proust) بأنّها «الحياة الحقيقيّة» هي، إذن، ثمينة مثل أيّ مشهد يخلّص الوعي من حزنه. هنا، أيضا، نسعى إلى الأمل في أيّام أفضل، ونحن في حالة وحدة مفروضة، ونتمنّى «تغيّر الأحوال»، فنَهَبُ أنفسنا عالما إنسانيّا، عبر طريق خياليّ. وفي الواقع، بقدر ما نعيش الوحدة على أنّها [حدث] بين قوسين في المغامرة المشتركة، يكون تحمّلها أفضل.

المحبّة (*Philia*)

أن يحيا المرء هو أيضا أن يحيا مع الآخر ومع الآخرين. ولا وجود لإنسانيّة إلّا بالنّظر إلى أناس في ما بينهم. الإنسان هو «صديق الإنسان» –«خيّر»

1- يبروح : اليبروح أو بيض الجنّ، جنس من النّباتات البرّيّة ينبت في أراضي المشرق العربيّ وغرب آسيا وجنوب أوربّا ينتمي إلى فصيلة الباذنجانيّة. وقد نسج البشر أساطير حول هذا النّبات واعتقدوا أنّه يتمتّع بقوّة سحريّة، فاستخرجوا منه ما كان ينعت بإكسير الغرام. ورد اسم هذا النّبات في الكتاب المقدّس وفي بردية إيبرس لمصر القديمة. له استعمالات طبّية عديدة من بينها استعماله للتّخدير. لكنّ ما حمل الكاتب على ذكره في هذا المقطع هو الوجه السّحريّ لهذه النّبتة.

(Philantrope)، يقول ‹أرسـطو› في **إتيقا نيقوماخوس**[1]: «يمكن أن نلاحظ إلى أيّ حدّ يحسّ الإنسان دائما بالصداقة والألفة، حتّى أثناء سفراتنا إلى الأقاصي.»

لقد ابتكـر الفكر الإغريقيّ لفظا جميلا هو «المدينة» (*polis*) للإشـارة إلى المجموعـة البشريّة التي تتشـكّل، عندمـا يتعلّق الأمر بتنظيـم جماعيّ لشروط البقـاء، باضطلاع جماعي بحاجيّات كلّ شـخص. إلّا أنّ هـذا «العيش معا» لا يختزل إلى إشـباع الحاجات الحيويّة. إنّه يعطي فرصة للإنسانيّة أن تكتمل في كلّ شـخص، وتختبر ذاتها بذاتها باعتبارها قيمة. يسمح «العيش معا»، حسب ‹أرسـطو›، لا بالبقاء فحسـب، ولكن أيضا بحسـن البقاء، بالسّموّ بذواتهم إلى أقـصى كمالاتها. إنّه يجعل التّحقّق الفعـلّي لكيْنونتهم، بامتياز، أمرا ممكنا: بما هـم كائنات مفكّرة، مهيّأة للعيش معا وللتّحاور، تكرّس نفسـها للقسـمة الكبرى لتجربة متعدّدة الأشكال، وللمعارف الّتي تضيئها. إنّهم يكتشفون، في هـذه المغامرة المشـتركة، الأهمّيّة المتبادلة لبعضهم البعـض. لفظ آخر يقول حينئذ، القدر السّعيد لهذه الحياة المشتركة، وهو لفظ فيليا: (*Philia*). فيليا هي في البدء، تجسـيم العلاقة بالآخر، سواء أكانت ودّيّة أو عاطفيّة، أو علاقة مصلحة متبادلة، مفهومة جيّدا. و«نفعها» لا يبطلها، على الأقلّ، من زاوية نظر لا تفصل بين الإتيقا والحياة الاجتماعيّة والسّياسـيّة. عندما تفهم جيّدا، فإنّها تتأكّد في قيم التّعاون المتبادل والتّضامن، الّتي كان الرّواقيّون يربطونها **بفيليا** (محبّة) كونيّة. هذه المحبّة هي حسـن المعاملة المتبادل. في الرؤى القديمة للكون هي ما يجمع الكائنات الحيّة ويشدّها، وبالخصوص البشر.

يقول ‹هوميروس›: «عندما يسـير شخصان معا، هناك واحد على الأقلّ من بينهمـا يـرى الوجه الإيجـابيّ في ذلـك، إذا لم ير الآخر شـيئا. يمكن أيضا أن ينتبه المرء إلى ذلـك، عندما يكون وحيدا، لكنّ النّظر يكون أقصر والحذر أقلّ» (**الإلياذة**، 224). وبمضاعفـة النّظر، على هذا النّحو، [يظهر أنّ] هذا الغُنْمَ مـن الحكمة هو ما يجعل التّواصـل بين [الذّوات] الواعية أمـرا ممكنا. ويعبّر التّواصل، بالنّسـبة إلى ‹أرسطو›، عن اقتسام أساسيّ للكائنات البشريّة للفكر، مدركا في ثرائه المتعدّد الأشـكال، والحاضر في كلّ ما يمكـن أن يعبّر عنه،

1- Aristote, *Ethique à Nicomaque*, 1155a.

من أهواء عامّة وضحكات مشتركة، وحوارات لا حصر لها، وضروب من الصّمت البسيط، تجعل الاستمتاع بالعيش معا أمرا محسوسا. إنّ ‹أرسطو› مفكّر المحبّة (*Philia*) بما هي علاقة موضوعيّة بين الكائنات؛ هو أيضا [مفكّر] الإحساس اللّطيف والعاطفة [الجميلة] اللّذين يعبّران عنها بشكل حسّيّ. إنّ المسرح التراجيديّ لَيوحي بعذاب الجماهير، والتّشبه بالبطل هو شهادة على الإحساس بمحبّة الإنسانيّة. سيذكر ‹روسّو› فيما بعد، أنّ النّفور الطّبيعيّ من رؤية شخص آخر يعذّب، يعبّر عن تحويل غريزة الحياة إلى الغير الذي يضمّ «حبّ الذّات». إنّها الشّفقة، بالمعنى النّبيل للكلمة. وهذه الأخيرة تدخل في علاقة تبادليّة مع «الأنانيّة الجيّدة»، تلك التي تدفع كائنا مّا للسّموّ إلى أفضل ما في ذاته نفسها. الاهتمام بالذات والاهتمام بالآخر ليسا متناظرين فحسب، إنّهما يدلّان على أنّ الإنسانيّة تجعل من ذاتها غاية، في غريزة البقاء الذّاتيّ، وكذلك أيضا في التّضامن الطّبيعيّ، إزاء كلّ شخص. وهكذا يتعارف الأنا (Ego) مع الصّنو (ego-Alter) ويكتملان في تناغم.

سعادة الصّداقة

هنالك ما هو أفضل وأكثر في الصّداقة الأكثر سموّا. فبتوحيدها للنّاس على أساس ما يدلّ فيهم على الشّكل الأرقى للكمال الإنسانيّ، فإنّ قيمة [الصّداقة] لا تقدّر بثمن. يتحابّ الأصدقاء، قبل كلّ شيء، من أجل أنفسهم، بكلّ حرّيّة، وفي حلّ من أيّة منفعة. وهكذا يكون، لدى كلّ واحد منهم، احترام لأفضل شيء فيه. لذلك، فإنّ الصّداقة المتقاسمة هي، حسب ‹أرسطو›، تجربة الامتياز لدى الإنسانيّة، لما هو خاصّ بها. لا يجب أن ننظر إلى القيمة التي نعزوها إلى اقتسام ممارسة الفكر الحرّ على أنّها اختزال تعقّليّ للصّداقة. يهتمّ الفيلسوف، قبل كلّ شيء، بالاكتمال السّعيد للبشر، وبما يساعدهم على أن يعيشوا إنسانيّتهم تماما. والعلامة الدّالة على هذا الاكتمال هي فرحة الحياة لدى كلّ شخص. وتكون المتعة أعظم بقدر ما تُتَقاسم بين الأصدقاء.

يجب إعطاء الحظّ للصداقة الأكثر سُمُوّا. لقد راهن ‹أرسطو›، ومن بعده ‹ديكارت› و‹سبينوزا› من أجل ذلك، على الكرم الذي يريد أن يرى أفضل

مـا عند الآخر، ولا يريد عـلى الإطلاق أن يحيله إلى مواطـن ضعفه. يوجد هذا الإحسـاس نفسـه إزاء أنفسنا. إنّه يترجم بصرامة، السّـموّ الشّخصيّ، إلى أفضل مـا يقدر عليه المرء. الأنا (Ego) والصّنـو (Alter-égo). إنّه تبادل للاكتمالات. يقول «ديكارت» بشـكل يبعث عـلى الإعجاب: إنّ احترام الـذّات يمنع من كـره الآخرين. الآخر آخر هـو عينه، وهو بالقوّة صديـق. وفعلا، يمكن أن نصدر حكما في شـأن شـخص من خلال أفضل ما يفعله، أو من خلال أسـوأ مـا يأتيه. وهذان اللّفظان لهما معنى يقاوم النّسـبيّة العاديّـة. إنّ الموقف الأوّل لا يتجاهـل نقاط الضعـف، وإنّما يحملها على محمل صعوبـات الوجود، وفجوات يمكن فتحها في إنسـانيّة هشّـة، رغـم كلّ شيء. ونحسّ بهذه الهشاشـة، في الهو- عينه، كما نحسّـها لدى الآخر، ونضطرب، كلّـما تذبذبنا. كلّ امرئ يشـعر، حينئذ، بالحاجة إلى حنان خاصّ، عندما يواجه على هذا النّحو، هشاشته بقـرار العيش بطريقة صارمة. إلّا أنّ الصّديق المحبوب يبقى فوق نقاط الضعف هـذه. والتّشـجيعات الّتي يتلقّاهـا حينئذ، تراهن على أفضل شيء في شـخصه، حتّى يستعيد هذا الأخير حقوقه. محبّة الصّديق هي معرفة كيف نتخيّل، لا بل كيف نشـعر بنقاط ضعف الغير، وكأنّها نقاط ضعفنا، ومن الجيّد أن يكون هذا الإحساس بالتّناوب، وهذا الفهم الحميم الّذي يتوافق مع التّماثل العاطفيّ.

المرء وحيد أمام المصائب، وهو ليس كذلك في الأساس، عندما تُدركه، حتّى وهو مهزوز، إذ أنّ التّعاطف، بالمعنى العميق لتقاسم العذاب، الّذي يظهره الصّديـق، ينمّـي القدرة على التّحمّل. إنّ **«محبّة الإنسانيّة»** هي تماما، إحسـاس يصحـب الصّداقة تجاه البشر، وقد بيّن «أرسـطو» كيف يقيـم وزنا لذلك في نظريّتـه حول التّراجيديا: إنّها معاناة التّماهي بالبطل التراجيديّ، وهي أن يكون المرء مسـكونا بإحسـاس التّعاطف الطّبيعيّ. وهذا يجعلنا نشـارك في معاناة الغير لمجرّد كونه إنسـانا. [الاشتراك في] المعاناة، كما يدلّ على ذلك جيّدا المعنـى القويّ لكلمة تعاطف، معناه أنّه، عندما تُصيب الحياة الصديق بسـهم، الصّديـق هذا الآخـر الّذي هو نحن، نحـسّ بالعاطفة تمرّ من هـذا إلى ذاك. الدّموع الحيرى تجعل النّظرات تلامس بعضها البعض، في الصّمت الّذي يجعلها تسطع على نحو غير معهود.

إنّ الأمر كذلك، بالنسبة إلى الفرح المشترك الّذي يصاحب اكتمال أفضل ما في الإنسانيّة، لدى الصّديق كما لدينا. يتحابّ الأصدقاء في الصّداقة التّامة، من أجل ما هم عليه، لا من أجل خدمات يمكن أن يتبادلوها. السّعادة ههنا، تلاقٍ في البحث عن الامتياز الفكريّ، ولكنّها أيضا إتيقا. إنّنا نتذوّقها معا. هنالك نكهة حياة مشتركة، حياة تقاسم، توحي بثرائها الكامن وتغيب في السّجلّات الكبرى للحضور في العالم. [السّعادة هي] رؤية آيات الجمال الطّبيعيّ وتذوّقها معا، كما هي الحال في النّزهات الجماعيّة. [السّعادة هي] بذل جهد جماعيّ، والنّجاح جماعيّا، مثلما هو الحال في المهامّ الّتي تنجزها جوقة موسيقيّة. [إنّها في] الضحكة والابتسامة عند اللّقاء، مثلما هي الحال في هذه المسامرات، أين لا نهتمّ بأيّ شيء سوى تقاسم فرح الحياة وفرح المعرفة وتبادل الكلام. [إنّها] التّحاور، والتّفكير بصوت عال، والتّقدّم جماعيّا في معرفة الأشياء والكائنات، والإحساس بهذه البهجة الفريدة لِوَعْيَيْنِ متداخلين لفترة مّا. يذكّر «أرسطو» أنّ «الصّديق مرغوب فيه لذاته.»

بعيدا جدّا عن الخدمات المتبادلة الّتي تجعل من الصّداقة علاقة مصلحة محسوبة، هنالك إذن، ما هو جوهريّ، ألا وهو الكمال الإنسانيّ، لا فقط بقاء الإنسانيّة. لقد انتبه «أرسطو» جيّدا إلى أنّ تبادل الخدمات يمكن أن يوفّر للمدينة فكرة تضامنها، ويجعل من هذا الشّكل الأوّليّ للصّداقة ضربا من النّموذج المدنيّ. صداقة، تضامن. لكنّه يضع المثل الأعلى للصّداقة بشكل مغاير في درجة أرفع، رفعة الإنسان إلى حدّ مّا. الإنسان، في المعنى التّام للكلمة وللواقع، إنّه الإنسان المُكتمل، الّذي يعيش حياته ويدفع بها إلى أقصى إمكانيّاتها. إنّ حياة سعيدة تتضمّن كلّ سجلّات الاكتمال، سواء في المجال الفيزيائيّ، الحسّي والجنسيّ، أو في المجال الجماليّ والأخلاقي والفكريّ. ولكنّها تترجم، بالخصوص، التأكيد على ما هو خالص في الإنسانيّة، دون شوائب، أي الفكر المزدهر بكلّ حرّيّة، لتنوير التّجربة المعيشة والاستمتاع بنفسها في آن، وفي مرآة الوعي هذه الّتي تضاعف النّشاط الجيّد والجميل وتعكسه في آن. الفكر «هو أرقى أشكال الممارسة»، وهي كذلك طالما كانت قادرة على توحيد البشر في قسمة حرّة تماما، إذ هي نزيهة. لقد قال «أفلاطون» إنّ الحوار صداقة، محبّة (*philia*). وكلّ إنسان قادر على حياة الفكر، وعليه أن ينزع إليها، اللّهمّ إلّا

إذا رغب عن الامتياز الخاصّ بالإنسانيّة. شخصان اكتملا اكتمالا تامّا، بهذا المعنى، يتساويان بما أنّهما يعيشان ماهيّتهما في الحاضر، دون موانع ولا تفقير.

آخرٌ هو عين الذّات. الأنا (Ego) والصّنو (Alter égo)

الحوار وتقاسم الكلام هما، إذن، صداقة: المحبّة (*philia*) الّتي تختم الوفاق الضّمنيّ على بحث مشترك. والسّخريّة ذاتها ترفع المحاور إلى ما فوق الخطابات وحدودها، باللّعب على قدرته على اتّخاذ مسافة. لقد كانت مداعبة «سقراط» وسخريّته، أثناء مأدبة فلسفيّة، مبعثا للإعجاب. يذكر «كسينوفون» (Xénophon) «سقراط»، وهو يرقص (المأدبة)[1]. وقد ردّد «نيتشه» ذلك في **إنساني مفرط في الإنسانيّة** («**المسافر وظلّه**»، الفقرة 86) :«ميزة «سقراط»، على مؤسّس المسيحيّة، هي البسمة الّتي تلطّف من حدّته، وهذه الحكمة المليئة كياسة، والّتي تصنع للإنسان أفضل حالة ذهنيّة». إنّها، في الواقع، الحكمة الكيّسة، حسب «نيتشه»، الّتي تؤسّسها المعرفة التّراجيديّة، في الواقع، للخليط الّذي يصنع قاع الحياة: [قاع فيه] المعاناة والمباهج متناوبان أو ممتزجان، على نحو يسمح بأن يلعب بعضها دورا لتأكيد قيمة البعض الآخر.

الصّداقة المنزّهة تماما، والمتخلّصة من كلّ ظرف خاصّ، خلاصها من أيّ رابط نفعيّ. إنّها تقوم بين [شخصين] متساويين، يلتقيان، ببساطة، بموجب ما يجعل منهما بشرا، بغضّ النّظر عن أدوارهما الاجتماعيّة، وعن روابط السّلطة والقوّة، والمنفعة المحسوبة. فهي، بهذا المعنى، [صداقة] مثاليّة تشير إلى ما يمكن أن يكون عليه التّضامن، بالنّسبة إلى البشريّة قاطبة، دون غاية، سوى سعادة العيش معا، بحرّيّة. في منظوريّة من هذا القبيل، تتصالح النّزاهة مع المصلحة تماما، كما رأى ذلك «أبيقور»، وقاله مؤكّدا ما يمكن أن يوحي به فكر صديق صدوق من ثقة وأمان: «ليس لنا أن نستفيد من خدمات يقدّمها لنا أصدقاؤنا، قدر استفادتنا من الأمان [الّذي نشعر به]، لأنّ لنا هذه الخدمات الحِكَم الفاتيكانيّة» (*sentences vaticanes, 34*) وبإيجاز، فإنّ الصّداقة لا تولد ولا تحيى إلاّ بصفة لا مشروطة. «الصّديق الصّدوق هو شيء لطيف» «لافونتان» (La

1- Platon, *Le Banquet*, II 17.

fontaine)، ("الصديقـان" الخرافـات، Les Fables). وفي النهاية، فإنّ الصّداقة، حسـب «أرسطو»، تُحَصّل السّـعادة التي يمنحها السّموّ المكتمل لدى البشر، إذ هي تُصْقَلُ بتأمين رقيّ أفضل ما لدى البشر وتشـبّههم، على هذا النّحو، «بالله». إنّ الإحالـة، ههنا، إلى الله لها معنيان: إنّها تضـع علامة في اتّجاه الكائن الّذي يكتفي بذاته، ويحقّـق ماهيّته تماما. وهذا يتوافق مع ذاك، حينئذ، طالما يقيس الإنسان نفســه بالمثل الأعلى لاكتماله، عندما يصل إليه تقريبا وصولا تامّا. الله هو أفق الإنســان... إنّ هذه المحايثة تنفي أيّ ســحق للبشريّــة، تحت وطأة ديانة تصبغ على إلهها خصالا تنكرها على الإنسان.

هذا النّوع من الحبّ – فيليا (*philia*) – ليس له شـبه يذكر مع الحبّ الخيّر، الّذي لا يمكن فيه للإحســاس بالقوّة البشريّة الجاهـزة على الدّوام أن تعوّض الوعي بالضّعف الإنسانيّ. المسـاواة والمبادلة، في إطار تعاون كاف ومكتمل بين حياة وأخرى، يقيـمان تباينا مع هذا الضّرب من اليأس الّذي يحوّل التّواضع إلى تنازل. تشـاؤم ومنطق النّفي إلى خارج المغامرة الزّمنيّة. سيؤكّد «أوغسطين»، من بين آخرين، أنّ نكران الذّات هو استتباع لحبّ الله، وحبّ الغير بالوساطة. على عكس ذلك، يُعْتَبَرُ الصّديق، عند «أرسطو»، هو عين الذّات غيرا. والّذي لا يحبّ ذاته لأنّه يتصرّف تصرّفا منكرا يعسر أن تتأكّد الحاجة لديه للشـعور بإحســاس الصّداقة شعورا تامّا. لدينا واجبات إزاء أنفسنا، بما في ذلك أولئك الّذين يسمحون لحياة إنسانيّة أن تتأكّد كما هي، لكي يتموقعوا، هم أنفسهم، في مقام الإنسان. إنّ كره الذّات يتوافق، بعسر، مع «حبّ الآخر». إنّ الكرم ليقتضي أن يكون داخل كلّ إنســان كائنا حرّا، يكون أرفع، افتراضيّا، من الأفعـال التـي يقوم بها، دون تبـصّر أحيانا، أو هو يتدنّى بهـا، لأنّه لم يعد يتمتّع إطلاقـا بحرّيّة الاختيار تمتّعـا تامّا. وهذا ما يمكن أن يحدث جرّاء مرض خطر أو محنة شـديدة. من هنا تأتي الحاجة إلى مسـاعدته بكلّ الوسائل، حتّى يستعيد امتلاء إنسانيّته، وحتّى يستعيد حرّيّته، على وجه الخصوص.

«لأنّه كان هو، ولأنّني كنت أنا».

لقد أعطت عاطفة ‹مونتاني› (Montaigne)، وهو يستحضر صديقه ‹البويسي› (La Boétie) إلى الآداب، صفحة من بين أجمل الصّفحات الّتي خصّصت لسعادة الصّداقة. صداقة صافية، دون لماذا ودون سبب، ودون قدرة على إدراكها. الجملة الشّهيرة: «إذا ما استعجلوني لأقول لماذا كنت أحبّه، فإنّني أحسّ بأنّ ذلك لا يمكن التّعبير عنه إلاّ بالإجابة: لأنّه كان هو، ولأنّني كنت أنا». (**المحاولات I**)[1]. وهكذا لا يوجد تفسير لمتعة الحياة الجمّة الّتي تجلبها الصّداقة الكاملة، بل والحبّ. ومعنى ذلك أن لا حتميّة تُسْتَدْعى هنا، وأنّ ميل الكائنات للتّلاقي والتحابّ، يضع في الميزان حرّيّتهم الأكثر طبيعيّة. إنّنا لا نترابط إلاّ على أساس فكّ ارتباط أصليّ، وهل هنالك ما هو أثمن من هذا البعد المجانيّ للانضمام إلى الآخر؟ إنّه يفترض، ولا شكّ، أن يكون كلّ كائن حرّ نفسه تماما، وليس في وضع خصاصة ولا تبعيّة. إنّها المحبّة.

إنّ صدفة اللّقاء، ومحاولات الإغواء، وانتشاء الحبّ، لتفعل فعلها يقول ‹فارلين› (Verlaine):

«أحلم في الغالب بهذا الحلم الغريب والنّافذ
بامرأة غريبة، أحبّها، وتحبّني،
والّتي لم تكن بالضّبط هي نفسها في كلّ مرّة،
ولا هي بالضّبط امرأة أخرى، وتحبّني وتفهمني».

لقاء

امتزجت نظراتهما طويلا، مثل مياه تحتضن دواليبها. لم يكن يكفّ عن رسم وجهها: شكل تَمَلَّصَ فجأة من المنظر، وضوضاء الحفل الّذي كان يحيط بهما. شكل تامّ، مثل شكل صور portrait معلّقة في السّماء، كانت قد جاءت لتتطابق مع أصلها. لم يكن يرى شيئا سواها، إلى جانب حضورها الحيّ والكلمات الّتي كانا يتبادلانها، مع هذا الحرج الأوّل، في لقاءات نعرف أنّها واعدة في المستقبل. كان الإعجاب يمتزج بهذا الانجذاب الّذي لم يكد

1- Montaigne; *Essais*, I, XXVIII

يُصرِّحُ بـه. إنّه يُحَسُّ من الوهلـة الأولى، في صلب الجلبة الّتـي كانت تحيط به. ينتصـب أمامها مُخْتَش، أخرق. كان ينظـر إليها، وهو يحادثها، وقد أخذه ضرب مـن حنـان مبثوث. لقد كانت أقوالهـا مثقلة، بوضوح، بعاطفـة، قد تخلّت عن الانشـداد الأوّل وعن سجلّ مجاملات المناسـبات. إنّه يفاجئ نظره، وقد انزلق إلى رقبتهـا، وقد كان بمثابة مقدّمة للمسـة أولى. لم تكـن نظراته تبارحها. لم يفترقا بعـد ذلك، قطّ. لقد بدأ يولـد حوار فريد آن ذاك بينهما، وكان يعزلهما داخل الحفل. إنّ أقوالهما المتبادلة والمتواشـجة مع بعضها، في ضرب من الانتشاء المتبادل، كانت توطّد الرّابط المطلق الّذي التحم بواسـطته وجودهما. واضح أنّه حبّ من النّظرة الأولى، ولم تعد السّهرة سوى هذه السّعادة، سعادة لقاء فريد، سعادة اللّقاء.

في ذلك الحين، كان اللّيل المسـدل أسـتاره يهدّئ مـن الحفل حولهما. لقد واصلت تردُّ، بين الحين والآخر، برشـاقة وبشاشة، على الأصدقاء الّذين كانوا يحيّونهـا. أمّا هو، وحده معها، بينما كانت تلقي بتحيّات المودّة للجميع، وإذا به كان يحلم. هل كان ثمّة حاجة إلى أن يحدّثها عن سـحر اللّحظة، وأن يستمتع بذلك بصوت عال، طالما كانت جليّة لهفة نظرتيهما للتّلاقي، واستحمام أحدهما في الأخـرى، بعد الانقطاعات العارضة التـي تقطع خلوتهما ؟ لقد كانت هنا، حينهـا، ذات حيويّة وانفعاليّة جميلة، ويبدو شِـعْر العالم برمّته، وكأنّه يحيّيها. في لحظة النّعمة هذه، كان يريد أن ينسـج لها أقوالا فريدة، وأنغاما لألفاظ خفيفة ولطيفـة، وأن يلتفّ حولها، مثل أنابيـب انبيق[1] الحفل، ومثل الانحناءات العابرة لألف ملامسـة مكرورة. في البعيد، تنتشر ظلمة ليل خفيفة، على البحر، الّذي كان يسود، مع إيقاع أمواج شبه ساكنة، لا تشهد عليها إلاّ همهمات وضروب من البياض العابر. لقد كانا يلتفتان، أحيانا، سويّة، صوب هذا المنظر الطّبيعيّ، وكأنّهما يواصلان بذلك تواطؤهما وفق شكل آخر، بتأمّلهما الأشياء. لم تكن نظرتهـما لتتأخّر عـن التلاقي، ولا ضحكاتهما أن يحمل بعضهـا تجاه الآخر. إنّه اللّقاء. أمّا، وقد أخذ منه التّأثر مأخذا في عمق الوعي، فقد كان يجد الكلمات أحيانـا، عديمة الجدوى، زد على ذلك، فقـد كان بعض الصّمت يجمعهما في فـترات، وكأنّ الّذي كان يهمّ بالأسـاس، مـن الآن فصاعدا، هو لقاؤهما لا غـير. لقاء خالـص من أيّ شيء آخر. لقـد كان مغمورا بنبـض حنان، كان

1- أنابيب انبيق: serpentins de fête

يتصاعد داخله، ويقين ناعم من أنّ الإحساس مشترك بهذه السّعادة الجديدة. لقد أحسّ بعد، برغبة في أخذ يدها، وشدّها بلطف لتمرير العاطفة الّتي غمرته إليها، لكن كان لديه إحساس قويّ بأنّ لحظة مثل هذه ستكون مقدّسة، ولا يجب التعجيل بمرورها. لم يكن يعرف كيف يغدق عليها آيات الشّكر الّتي كان يوحي بها إليه شخصها النّبيل الحيّ والسّاطع الذكاء والجمال. لقد تحدّثت عن لقاء سحريّ، وقد كانت فرحة لا نظير لها. حبّ. اعتراف حميم، لا يصدّق في البدء. شيء مّا كان يحرقه، ويغيّر وجه العالم، السّماء والمساء، اللّيل ودوّامات الحفل. كلّ شيء كان يشهد، في الجملة، بوعد ناشئ. لحظة نادرة، فريدة ربّما، والتي لم يكن يقدّر، بعد، ولا شكّ، مداها. مرّات عدّة، يتظاهر كلاهما باستئذان أحدهما من الآخر للانصراف. لقد دعاها أصدقاؤها الّذين كانوا يعبّرون عن ضيق صبرهم. أمّا هو فقد كان منفردا في ذلك المساء. لقد كان أمامه اللّيل كلّه، والعمر كلّه. لم يكن يقدر على فراقها، رغم أنّه لا مفرّ من ذلك. في كلّ مرّة، كانا يتصرّفان على نحو يجعل كلّ واحد منهما يلقى الآخر، ليجلسا معا، برهة قليلة أخرى من الزّمن. ثمّ تحين السّاعة كي يفترقا حقيقة. تتشابك أذرعهما. حماسة واستبقاء في آن. لقد كان يرقبها، وهي تنصرف، دون أن يفقه جيّدا ما كان يحدث. إنّه لم يكن يسمع قريبا سوى خطواته الخاصّة الوحيدة، على الطّريق المحاذي للبحر. يبدو وكأنّ اللّيل أطبق على نفسه، بعد أن آوى شعاعا كثيفا، مازال منبهرا بنوره. لقد كان يعرف جيّدا لحظة فراقها أنّ لا شيء كان يقدر أن يفصل بينهما، من الآن فصاعدا. صدفة لقاء... هي ضرب من المطلق تمّ بلوغه فجأة. كلّ سعادة هي لحظة خلود. لقد كان يعرف ذلك، والحياة، في آخر المطاف، كانت تبدو له مطمئنة: ألم تكن تسمح له بمثل هذا اللّقاء، في هذه السّيول المسترسلة من الصُّدَفِ والكروب الّتي غمرتهما؟

إنّه يتذكّر أنّه قد استسلم إليها، وكأنّه كان يعرفها دوما. ضرب من اللّهفة كانت تأخذه، لكي يحكي لها عن أهمّ ما في حياته. لقد كان ينبّهها لكي تلاحظ ذلك، معتذرا عن هذا الضرب من الوقاحة. لقد كانت تبتسم. هي أيضا كانت تستثيقه. لقد أصبحا، في وقت وجيز، وكأنّهما يعرفان بعضهما البعض، منذ زمن بعيد. فإذا ما ابتعدا، كان ينتابه شعور غريب بأنّه أطال البقاء

معهـا، لكنّـه، على عكس ذلك أيضا، يشـعر أنّ زمن لقائهـما كان قد مرّ بسرعة لا تصدّق. كان يسير وحيدا، وكان يتذوّق عذوبة نسمة ليليّة. المفروض أن تكون بعيدة الآن. سـيبعث لها برسـالة، عن قريب، كان يتسلّى بكتابتها على أنحاء شتّى. سـيكون ولا شـكّ، أخرق، لكن لم يكن للكلمات أن تكذب، ولا أيضا للطّريقة التي ستكتب بها، فكلّ شيء متوتّر بالعاطفة. لقد كان مسـكونا باستدارة وجهها، وعمق عينيها، ورسـم شفتيها. مازال يسمع صوتها، وضرب من رجفات الأمل تختلط بأنفاسه. لقد بدا اللّيل متغيّر الشّكل. لقد جعل السّحر النّجوم أكثر لمعانا، والسّماء أكثر عمقا، والنوم أكثر خفّة. لم يعد الوعي يرغب في هذا النّوم، الّذي يحرمه من الأفكار اللّامعة. لقد كان الحلم، ههنا، مأهولا بالطّيور اللّيليّة التي لم تفتأ تفقّس على شفتي البحر. وقبل أن تأخذه غفوة، أنصبت، مرّة أخرى، إلى التّفنّن البطيء للمياه الدّاكنة في ظلّ وعد الأفق. لقد كان يخاطب نفسـه بأنّها لا بدّ أن تكون هي أيضا مفتّحة العينين، وإنّ نظرة كليهما تبحث عن الأخرى في ذلك الوقت بالذّات. بدا اللّيل طويلا ولطيفـا، بين نوم ويقظة. الوحدة لها طعم غريب، ينبع منها ضرب من المتعة اللّا محدودة. لقد كان يعرف أنّ هذه اللّيلة مشتركة بينهما. إنّها أوّل ليلة تقاسماها.

حلم اللّقاء، أين سـيحتفظ الكائن الحميم بالسّـعادة. حتّى الحياة النّسّاءة لا بدّ أنّها سجّلت العاطفة في الذّاكرة الشّهوانيّة، كما سجّلتها في النّزهات الخفيّة للذّاكرة.

القسم الثالث

الحكمة السّعيدة

حكاية

تين[1] في الشّتاء

لقد كان يتقدّم في الثّلج، تحت العاصفة، وقد جفّ حلقه، بينما كانت البرودة النّديّة صاعدة في اتّجاهه. قشعريرات طويلة كانت تسري في كامل بدنه المرتعد، وقد أحسّ به فجأة هشّا. كان لا بدّ أن يتقدّم جيّدا، كلّفه ذلك ما كلّفه، تحت سماء شبه بيضاء، لا تدع مجالا للأمل في أيّ شيء طيّب. لقد كان جوعان وضمآن في الوقت نفسه، وقد ملكته بمهل، ذكرى حلوة لثمرة تين عصرتها أسنانه، بتأنّ، وقطّعتها. طعم خياليّ انتشر في فمه، قويّا ومؤكّدا، طريّا وعميقا، ذو خاصّية مكثّفة. تين في الشّتاء! لقد كان الحلم حقيقة، وإذا به يفاجأ، وهو يمضغ الثمر. بدت الذّاكرة حسّاسة وليّنة، في تقابل مع فظاظة الوضعيّة. فهل كان العالم سيميل إلى كفّة سحر الرّغبة؟

تعرّف في منعرج الطريق الثّلجيّ إلى خيال شجرة تين مألوفة، مثقلة بالثّمار وشرارات من الثّلج. لم يعد أمامه إلّا أن يقترب قليلا، محتاطا من الأخاديد الجليديّة. لقد كان الصّقيع يزداد حدّة، بقدر ما كان يتقدّم، واللّيل المسدل أستاره يعتّم الأغصان المثقلة. كان يتقدّم، تحت أنّات خطواته، وهناك كانت ثمرات التّين تقطر قطرات من النّور المثلّج. لقد كانت تبدو ثقيلة جدّا، بالنسبة إلى الشجرة الّتي كانت تحملها. شجرة وحيدة وشاذّة، محوطة بصخور ذات

1- تين في الشّتاء: عبارة جاهزة دالّة على استحالة تحقّق الفعل إذ يوجد ثمر التّين عادة في فصل الصيف لا في الشّتاء. ونجد في المأثور العربيّ عبارة مماثلة لها دالّة على هذه النّدرة وهي «العنب في اللّيالي». ومن يبحث عن العنب في اللّيالي هو كمن يبحث عن أمر يستحيل تحقيقه. لقد فضّلنا التّرجمة الحرفيّة للمأثور الغربيّ حتّى تكون مناسبة للقارئ كي يكشف التّقارب بين العبارتين إذ هما يشتغلان وفق نفس الآليّة.

نتـوءات حادّة، عارية إلى درجـة تجعلنا نعتقد بأنّ ريحا رمليّـة لم تفتأ تصقلها. لم يكن ثمّة شيء يحيط بها سوى صحراء شتويّة، وحجارة رماديّة وأعشاب ذاوية، وخصلات ريح يعصف بغرابة. ثمّ أخذ يرتجف. التّين في الشّـتاء ! لقد استحضر «إبيكتـات» في الذّاكرة، وهو يسـخر من الرّغبات الّتـي لا طائل من ورائها. فـأن يطلـب المرء أن تكون الأشـياء على غير ما هي عليـه، هو كمن يطلب التّين في الشّتاء؛ أو كمن يضرب بأمّ رجله سورا. ورغم كلّ شيء، لقد كان يحسّ، في غموض، بهذه الحرّيّة المدهشة للوعي الّذي كان يسافر من الذّاكرة إلى الحلم، ومن الإحسـاس الحيّ إلى الخيال العنيد. لقد طُمسـت شجرة التّين في الظلام وستحتمي الطّريق، من هنا فصاعدا، بضرب من الغابة الّلا متوقّعة.

اسـتيقظ في رطوبة الصّمت. كان الطّقس صحـوا. والغرفة المضاءة نصف إضاءة، بفانوس الشّـارع، بدت له مألوفة. اتّخذ احتياطه لعالم قريب. لقد كان الهزيع الباقي من الّليل ملكا له، مثل هذه القوّة الدّاخليّة الّتي تهذّب الأفكار الشّريـدة وتعرف كيف تمدّ لها الحبـل. إنّ الحلم بالتّين الشّـتويّ ترك بصمة بـارزة. لقد اسـتعاد الواقع ملامحه، وانتبـه الوعي، وهو يستكشـف حدوده، بضرب من الدّهشة.

هل كان بالإمكان غراسـة التّين في البيوت المكيّفة الّتي تعوّض حرارتها الاصطناعيّـة الفصل الملائم؟ لقد اتّخذ الحلم الإنسـانيّ شـكله، وهو يلاحظ الطّبيعة، لكي يتحرّر من إيقاعاتها الأوّليّة. يقول «ديكارت» بقليل من الصّناعة، نـوكل للطّبيعة أمر إنتاج ما لا تنتجه عفويّـا. إنّ ماء النّهر الحيّ يجرف الغصن المقوّس الغارق فيه، ثمّ ينبثق من جديد، بعيدا عن ذلك بقليل، ليسـقط. نفس المـاء يدير عجلـة الطّاحونة، وها هو الدّقيق يخرج سريعا مـن آلات الرّحي. إنّ الخبز، في كلّ الفصول، هو [تجسيم] يوميّ للحلم المستيقظ. تين في الشّتاء... إنّ الحكمة لا تنكر الحلم، بل تفتح له اكتماله المعقول.

إنّـه طلب المسـتحيل... إنّ المرء لا يفرّق في البدء، بين مـا أمره بيده وما أمره ليـس بيده. فتمتدّ الرّغبة إلى كلّ شيء، بطموح سـاذج، من شـأنه أن يفترض الـذّات والعالم. هكذا يذهـب الطّفل، قبل التكذيبـات الأولى وخيبات أمل

التّجربـة. وهكذا يسـير نفاد الصّبر المَرَضي الّذي سـيعبّر دائما عـن قوّة الرّغبة النّافعـة، لكي يتجاوز حدود الحاضر. إلاّ أنّ هذه الحركة المتهوّرة يمكن أن تُفَاجأ على حين غرّة، فتنسـى الحدّ الفاصل بين ما يرجع الأمر فيه إلى الذّات وما يشـهد على نظام العالم. سـنصطدم حينئذ، بصلابة الأشياء. ولن نكون بعيدين عـن الغيض الأعمى الـذي يؤدّي بنا إلى التّهوّر، إذا لم يسـترجع الوعي حقوقه. حكمة صعبة: التخلّي عن طلب المسـتحيل، لكن دون صرف النظر أبدا، عمّا هو ممكن. الحدود الفاصلة ليسـت واضحة دائما. عندما نكون سـجناء داخل تخوم الحاضر، ومقيّدين بنظام العالم، ننسى التّنقيب عن الحركات الصّامتة الّتي تغيّر نظام العالم، أو نقاط الضّعف التي تفسـح طرقا إلى المبادرة. وفي المقابل، أن نكون مسكونين بحلم وحيد، هو الحلم بما يجب أن يكون فقط، يجعلنا نيأس من أن تكون لنا القدرة من المنطلق على طيّ المعطى.

تُبنـى السّـعادة، في البـدء، على أنّها ضرب من السّـلم الدّاخـليّ الّذي يرجع الأشـياء إلى قوانينها النّكرة، ويرجع الوعي إلى ما هو قادر عليه. فالطّبيعة، وقد تخلّصت من ضروب الاسـتعجال البشريّ، لم يعد لديها شيء مأساويّ. إنّ مجاهدة النّفس تبقي العالم على مسافة منّا، في اللّحظة عينها الّتي تكفّ فيها الكآبة -بما هـي خليط بين الخشـية والأمل- عن إملاء قانونها. فالعاصفة ليسـت إلّا ظاهرة مناخيّـة، ولا وجود لإله يختفي فيها لمعاقبة البـشر. وفي المقابل، فإنّ هذه الطّبيعة، وقـد تخلّصت من التّطيّر، توحـي بالممكن، وتدعو إلى الفعل الفاتح. ما التّين في الشّتاء؟ كان لا بدّ من رفض عجز الرّغبة الّتي لا تقدّر ما هو ممكن، تستنزف طاقتها في سـحر، لا طائل من ورائه. تين في الشّـتاء. يجب تأخـير حدود ما أمره بأيـدي البشر، والتّعبير عن القوّة الّتي تسـمو بهم، عندمـا يتحكّمون في العمل التّقنيّ. وهكذا، يمكن أن ترتسم ملامح حكمة لا علاقة لها بالخضوع، نظام العالم هو نظام تاريخه الحيّ الّذي ينبعث تحت وطأة القدريّة الظاهرة لما هو كائن.

إنّ مبـدأ كلّ من «ديكارت، والرّواقيّين «هو قهر الملذّات بدلا من الحظّ». وتلك حكمة بسـيطة. وهذا لا يدعو لأيّ خضوع سـلبيّ، واسـتدعاؤها هو عودة بالوعي إلى صفائه. يتعلّق الأمر بردعها والاضطلاع بما سيكون في السّاعة الرّاهنة عبثيّا، بقدر ما يكون مسـتنزفا للجهد، نظرا لأهمّيّة الظّرف الموضوعيّ.

هنا أيضا يكون مفيدا الفصل الواضح بين الأشياء الّتي يمكن الفصل فيها، وتلك الّتي تخرج عن طائلة فعلنا. فيكون الوعي واثقا من نفسه، عندما يكون مستنيرا على هذا النّحو. ويمكنه الانطلاق لفتح ما هو ممكن، وتخصيص جامّ قواه لذلك. إنّه لا يحترق في جهود عبثيّة، ومثبّطة. لقد دعانا «ديكارت» إلى فهم الطّريقة الّتي تنتج بها الطّبيعة آثارها، حتّى يتسنّى التّأثير فيها وبها، على الوجه الأفضل، لكي تكون الحياة أيسر، حتّى يصبح الإنسان «بمثابة السّيد على الطّبيعة والمالك لها.»

تين في الشّتاء... لِمَ لا؟

الدّرس السّابع

طمأنينة النّفس

الواقع والمُمكن

من الأكيد أنّه يجب أن نعرف كيف نحلم. ويجب أيضا أن نتجذّر في الواقع كما هو، دون المَساس بمطلب الحقيقة. وفي الحالتين، تُعَرّضُ أصالة لحظات السّعادة للخطر. الحياة المُنجزة تدعو إلى حكمتين: حكمة الواقع الّتي تعلّمنا نظام العالم، وتعوّدنا على قوانين الطّبيعة، وتجعلنا ننظّم سلوكنا بتجنّب غرور ضروب التّمرّد اللّا مُجدي والانزياحات الانفعاليّة، حكمة السّيطرة على الذّات، الّتي تعمل على استبعاد الكروب الدّاخليّة، وأفضل من ذلك تجنّب عودتها. إنّ العبارة المحبّبة إلى ‹أبيقور› هي أنّ «الفلسفة هي طبّ الرّوح». فهي تجتثّ المخاوف، وتبيّن أنّه ليس لها أسس. وهكذا يكتشف الإنسان أنّه يعاقب نفسه، في الغالب، بهموم ليس لها أيّ وجه من القدريّة. إنّه يحتاط للضّعف الّذي يقوم في الجهل بالأشياء، والكره النّاجم عن ذلك، إزاء ما له علاقة بفعله. بذلك، يستعدّ لتركيز جهوده على ما يمكن حقيقة أن يخصّ الأشياء الّتي أمرها بيده: إنّه يستنهض كلّ طاقاته، بالتّخلّص من ضروب الاستقالة والأوهام القائمة مقام المواضع الّتي لا معنى لها. السّعادة عذبة، حتّى وإن استتبعت جهدا. «كن حكيما، آه يا ألمي، وتحلَّ بالهدوء...» إنّها حكمة وقائيّة أيضا. إنّها تُعلّمنا كيف نتجنّب التّوتّرات الّتي تعمي الوعي. وهي علاج للمخاوف العقيمة وضروب القلق المفرطة في الإنسانيّة. التّفلسف هو تهذيب الحياة الهادئة داخل

الـذّات، والتّخلّص من الوسـاوس. إنّ التّأمّل في ذلك جيّـدا يبيّن أنّنا نملك إمكانيّات هائلة، كما لاحظ ذلك جيّدا «أبيقور».

حكمة الممكن، الّتي توسّـع الأفق وتخلق المسـتقبل. ففـي مقابل الحدود الضّيقة لقدرة الحاضر، حينئذ، يجيب الخيال الّذي يبدع. يتناوب الفعل مع الأمل، ما لم نكن نجازف بتصوّره، في حدود وجود مُسـتقيل، يصبح مُتاحا. فبالنّسـبة إلى العبيـد الّذين اعتقدوا دائما، ومن زمان، أنّ وضعهم كان طبيعيّا، وبالنسـبة إلى عمّال العصر الصّناعيّ الأوّل، الّذين كانوا يسـتهلكون حياتهم على امتداد أيام عمل تمتدّ من الفجر إلى الغروب، وبالنسـبة إلى النسـاء اللّواتي كنّ يعانين مـن أجل إعطاء الحياة أو اللّواتي كنّ يحيْـين في اليوميّ حياة الهيمنة الذّكريّة، فإنّ التاريخ قد انتفض متمرّدا، وأعاد الإنسـانيّة إلى الوعي الّذي يسـتحقّه كلّ واحد منها. إنّ الطّوباويّة تحكي، دون مركّب، طريقة أخرى للوجود. السّعادة هي فكرة جديدة. وسـنضطرّ لاتّخاذها حرفيّا، ليزدهـر ما هو ممكن التّحقّق. إنّ نطـاق الممكنـات لينتشر، لكي تحدث الحياة الّتي حلمنـا بها، ولكنّها لا تفرض أيّة واحدة منها. إنّها تتقدّم على أنّها أوطوبيا ضروريّة، لتخلّص التّطلّعات الإنسـانيّة من حدود السّاعة والمكان. وسـجلّها ليس سجلّ المعيار الّذي يجب فرضه والإلزام المطلوب تثمينه. إنّه بكل بساطة، سجلّ الأمل. إنّه ملكة إرادة شيء آخر، غير ما هو كائن، عندما لا يسمح اليوميّ إطلاقا بالسّعادة.

إنّ هذا النّبع الدّاخليّ للفكر نادرا ما يقدّر حقّ قدره، وهو، في الغالب، مشتبه فيـه، لكونه يغذّي الوهم، أو يحاذيه. لكن يجـب فهمه على أنّه معرفة واضحة بحدود السّـاعة والمكان، وهو خطاطة حركة للتّحرّر منها. إنّه يسـمح لكلّ شخص، منذ اللّحظة الّتي يصقل فيها، باستحضار الحزن المفروض والكروب، دون أفق. الوعي يتّسع وينوّع المنظوريّات، مثل الهواء البارد في قمّة الجبل، نتلذّذ بإجالة النّظر، لكي تغيب المناظر، لكي يغيب المنظر. تين في الشّتاء. أكيد أنّ ذلك مسـتحيل اليوم. لكنّ الحلم قد نقل بعد تخوم الواقع، وسـيعرف الأمل الإنسانيّ كيف يمنح هذه الثّمار النّاشئة الحرارة الّتي تحتاج إليها.

الأدوية الأربعة

الفلسفة هي قبل كلّ شيء «طبّ الرّوح»، بما هي بحث شخصيّ عن الصّفاء وغياب التّوتّر (**آتراكسيا**). إنّها تصقل، كلّ يوم، في التّجربة بما هي فنّ للحياة، ورياضة للذّات تجلب الهدوء. إنّ التّصرّف العمليّ يؤدّي إلى تمرين دائم، يتمثّل في تنمية الحكمة داخل الذّات. وهذه الأخيرة ليست تعويضا فكريّا في شيء. إنّها تمكّن كلّ شخص من العيش، وفق قواعد تسمح بالإحساس بأفضل ما في الكائن، وبالحضور في العالم. من هنا، يكون الجهد لاستبعاد كلّ ما من شأنه أن يعيق إمكانيّة تحقيق الذّات والتّمتّع الإيجابيّ النّاجم عن ذلك. ضمن هذه المنظوريّة، تكون المتع جوهريّة، شريطة ألّا تشوّش الرّابط المتوازن مع الذّات الّذي يتوفّر على سجلّات عدّة للاكتمال. أن يكون المرء مغتربا بتضخّم الانفعال الدّائم هو إذن، ضارّ. والواجبات إزاء الذّات تكون مرجعيّتها مثلا أعلى للسّعادة، بقدر ما يكون ثريّا ومتنوّعا، يكون ممكنا. إنّ هذا ليستبعد نسيان بعد من أبعاده الأساسيّة والإعاقة الّتي تنجم عن ذلك. بهذا المعنى، تكون مرجعيّة السّعادة، بما هي مثل أعلى للخيال حيويّة. إنّ التّطلّعات الخاصّة بتوجيه الحياة ليس لها أن تُقطع من المُنطلق، بتخصيص سلبيّ لحدود وضعيّة وجود تفقّرها. بعيدا عن الإنسان «ذي البعد الواحد»، الّذي كان يتحدّث عنه ‹ماركوز›، توجد صورة اكتمال متعدّدة الأشكال، تستخدم سجلّات مختلفة للمتعة والرّضاء. ومهما تكن الوسائل المادّيّة الّتي يتوفّر عليها البشر، فإنّهم ليسوا في مأمن من التّطيّر الّذي يجعلهم يرتجفون، ولا من الاستباق القلق الّذي يجعل من الموت وسواسا. القلب مثقل، والخشية تنشر ظلّها المحمول في الوعي. يقتل العالم الإرادة، وهي تعاني حتّى تجعله على مسافة منها. يجب، مع ذلك، إبعاده **عن** النّظر، مثلما نفعل بلوحة يثبّتُ فيها تفصيل فظيع من هذا القبيل، الانتباه ويسمّره. النّظر إلى المجموع من بعيد. المسافة تريح وتحرّر صفاء ملتحفا، في البدء، بالكرب الآنيّ. عظماء هذا العالم أنفسهم يعرفون هذه الاضطرابات الدّاخليّة. وبإيجاز، فإنّ أيّ إنسان هو تحت رحمة هذه الكروب. يجب أن نغرف من ينابيع العقل، حتّى نتحرّر منها. وهذه لا تختزل في ملكة حساب. إنّها تعيش في كل واحد منّا، بما هي قدرة على الوضوح المهدّئ للفهم بالأسباب. إنّها تجنّد معرفة الطّبيعة، لكي تجعل الكروب تتبدّد من النّفس.

وهكذا، لا تبقى المعارف حبرا على ورق؛ لقد استغلّت لإنارة السّلوك وجعل الحياة أكثر عذوبة. من هنا، يكون المثل الأعلى الأكبر للسّلم الدّاخليّة: بلوغ حالة غياب الاضطراب الّذي كان الإغريق يسمّونه آتاراكسيا (*ataraxia*) في حدود ما هو ممكن.

لقد تصوّر «أبيقور»، فيلسوف اللّذة الوقور، أربعة أدوية، يسيرة الاستعمال بالنسبة إلى أيّ إنسان. يشير الأوّل إلى كيفيّة التّحرّر من خشية الآلهة، ويعلّم الثّاني السّكينة التي تقضي على الخوف من الموت. ويدعو الثالث للبحث عن اللّذة: أينما تكون هذه اللّذة، لا مجال للعذاب، وعلى هذا القدر لفائدة ميزان الأفراح. أمّا عن الدّواء الرّابع، فيتمثّل في تنسيب تجربة الألم، ببيان أنّه يمكن احتمالها. بهذه الأدوية الأربعة، تتأكّد الفلسفة، بما هي علاج للمخاوف الّتي لا موضوع لها. وهي، مع ذلك، لا تتجاهل الانحرافات العاطفيّة لهذه المخاوف، وإنّما تدلّ إلى السّبيل، إمّا للحدّ منها أو حتّى الشّفاء منها. عن اللّذّة بمثابة غاية الحياة، وصيغة وجود لا تترك أيّ مجال لهيمنة ما يحدث ألما، لا بدّ من الحديث طويلا. إنّه مبدأ رئيس للحكمة السّعيدة : سنرجع إلى هذا الأمر، عندما نثير لاحقا «فضيلة الملذّات.» أمّا السّاعة، فكيف نتحرّر من المخاوف الثّلاث الكبرى الّتي تمنع هدوء النّفس؟ النّفس الإنسانيّة، سواء أكانت مادّيّة أم لا، حسب المعتقدات، يجب أن تفهم، ههنا، على أنّها موطن الوعي والحياة الدّاخليّة. فهي إذن، مبدأ كلّ الأفكار، كما هي مبدأ كلّ المشاعر. لا بدّ من تهدئة الأعاصير.

آلهة لا تكون أسيادا.

ألا بدّ من خشية الآلهة؟ يبيّن «أبيقور» أنّه، إذا كانت العامّة تتصوّرها على شاكلة البشر ترغب وتريد، مع قوّة إضافيّة عظيمة، فسيكون لها كلّ شيء، لكي تكون مرعبة. إنّها غير متوقّعة، شأن الشّهوات البشريّة، وكلّ كائن فان، يمكن أن يكون ضحيّة تدخّلاتها. وسيكون الأمر على هذا النّحو، إذا لم يكن إلّا إلها واحدا يشبه هو أيضا البشر بخاصّيات ننسبها إليه. إله يحبّ ويعاقب، ويحكم ويجازي، هو أيضا مصدر خوف، بما أنّ كلّ فعل إنسانيّ يتموقع تحت نظره. والشّرّ الحاضر على الأرض لا يعالج إطلاقا الأشياء بتسمير

لغزها في قلب العقيدة الدّينيّة تماما، أو عند إله مفترض أن يكون خيّرا وقويّا. «الله أو الخير يريد أن يقصي الشّرور ولا يقدر على ذلك، أو هو يقدر ولا يريد، أو هو لا يقدر ولا يريد - أو هو يقدر ويريد» (لاكتونس، Lactance : **غضب الله**. 13، 19)

وحده إله يتدخّل في الشؤون الإنسانيّة هو الّذي يمكن أن يثير شكوكا من هذا القبيل، ومخاوف تتوافق معها. إنّ الحلم بقدر ربّانيّ هو إذن ضارّ، بما أنّ كلّ شيء تكذّبه التّجربة يقلب رفاه الإيمان. إنّ فكرة طبيعة تكون طوع أوامر قوّة ماورائيّة داخلها أو خارجة عنها، لم تعد أكثر مدعاة للثّقة. إنّ التّطيّر ليولّد الذّعر بشتّى الأشكال، ويشلّ المبادرة. يجب إذن، التّخلّص من مثل هذه الرّؤية الغائيّة السّاذجة والأنتروبومورفيّة. ويكفي لذلك أن ننزّه الرّبوبيّة أو القيّوم الأعلى للطّبيعة من إسقاطات مماثلة.

وفي الواقع، إذا كانت الآلهة موجودة، وَجَب أن تُفهم طبيعتها بغضّ النّظر عن أشكال الضعف الخاصّة بالبشر. فلا الآلهة ولا الطّبيعة تريد شيئا. وشواغل الإنسان ليست «شواغلها»، ولا داعي للخشية من أيّ شيء يمكن أن ينتج عن نواياها، لأنّه لا وجود لذلك. علاوة على ذلك، يمكننا تخيّل الرّبوبيّة، إذا ما أصْرَرْنَا على تمثّلها، بمثابة حدّ أقصى لوجود مكتمل في تمامه، دون أن تنقص من الواقع شيئا، وبالتّالي، فهي تنعم بسعادة لا تشوبها شائبة: ربوبيّة متصوّرة على هذا النّحو تمثّل ضربا من الانتقال إلى تخوم الإنسانيّة الّتي يكون أمر السّعادة بالنسبة إليها تقريبيّا. كائنات خالدة وسعيدة، لا يخامرها التّفكير لحظة، في الاستمتاع بقوّتها، بجعلها في هذا المقام موضوع تخويف للكائنات الفانية، هي بالأحرى نماذج حياة مكتملة، غير انفعاليّة ومؤكّدة بالطّبع. وبما أنّ أمرها هو بيدها، دون سواها، فهي تجسّم حرّيّة لا تقوم فحسب على حرّيّة الاختيار مبدئيّا، وإنّما تمتلك وسائل عينيّة لازدهارها. لنمط الوجود هذا شيء نموذجيّ، والتّمثّل الفلسفيّ الّذي تتجسّم فيه مثير تماما. نحن بعيدون عن تضحية إيفيجينيا (*Iphigénie*)[1] ابنة

1- **إيفيجينيا**: ابنة أغامينون القائد العسكريّ الإغريقيّ الذي جمع الأساطيل في أوليس متوجّها إلى مدينة طروادة. لكنّ الرياح كانت تعصف ضدّه وأخبره الكاهن كالشاس بأنّه أساء إلى آلهة الصّيد آرتيميس Artémis، ولا يمكن رفع لعنتها إلا بالتّضحية بابنة أغاميمنون. رفض هذا القائد هذه التّضحية في البداية، لكنّه استسلم لذلك تحت إلحاح أوليس ومينيلاس

آغاميمنون[1] (*Agamemnon*)، الّتي كان وسيط الوحي (*oracle*) قد أمر بالتّضحية بها، لتهبّ الرّياح، وتسمح للأسطول الإغريقيّ بمغادرة أوليس[2] (*Aulis*) والذّهاب إلى الحرب في طروادة. يمكن أيضا نكران وجود أيّة ربوبيّة، أو إبقاؤها في مجال اللّا معلوم. وهكذا، فمهما كان الحال، سواء تعلّق الأمر بالاعتقاد الدّينيّ أو الإلحاد أو الغنوصيّة (agnosticisme) بالإغريقيّة (*agnostos*)، فإنّ الخشية هي دون أساس. ففي مقابل ديانة الخوف والخضوع، يقدّم العقل الوقور العقيدة الفلسفيّة، ضمن إنسانيّة قادرة على التّحكم في أحزانها، والنّزوع نحو الحدّ المثاليّ لاكتمالها: إنّ الورع العقلانيّ هو نزعة إنسانيّة لا حاجة لها بنكران الرّبوبيّة، ولا بتأكيدها. هي بالأساس ثقة وشجاعة لاستعمال ما لدينا الاستعمال الأفضل. فديانة لا تكون إلّا تعويضا ستكون دالّة على بؤس لن يكون ملائما كثيرا لعقيدة متحرّرة، وأصيلة. إنّه الدّرس الجيّد لـ‹سيمون فايل› (Simone Weil)، درس المقاومة المسيحيّة المنخرطة في النّضال من أجل التّحرّر الاجتماعيّ.

تهوين الموت

«ليس الموت شيئا بالنّسبة إلينا». يمكن أن تظهر لنا هذه الحكمة غير مقبولة، وهي مصاغة على هذا النّحو. ألسنا مشدودين جميعا للحياة، حتّى وإن كانت صعبة ومؤلمة؟ يقول ‹فيكتور هيغو›: «أن يموت المرء فهذا هيّن، والرّهيب هو ألّا يحيا». فماذا أراد أن يقول ‹أبيقور›؟ إنّ تجربة الموت مباشرةً أمرٌ مستحيل، وبالتّالي يكون من السّخف خشيتها. الموت هو انعدام كلّ إحساس: وبالتّالي لا يمكن القول عنه إنّه مؤلم. «عندما نكون هنا، يكون الموت غائبا. وعندما يكون الموت هنا، نكفّ نحن عن الوجود». (**رسالة إلى مينيسي**). أكيد أنّ الموت لا مفرّ منه. لكن ماذا نعرف عنه؟ وعن ظروفه؟ وعمّا يثيره فينا؟ إنّ التّخريفات لتدركنا، وتعذّبنا، في حين أنّ ثمّة أشياء وأشياء تبعث على التّفكير وعلى الفعل، في هذه الحياة الواقعيّة بحقّ، الّتي لنا! نتذكّر أيضا قول ‹سقراط›، وهو يتخيّل موتته، بكلّ هدوء، أمام قضاته. إمّا أن يكون عَدَمًا محضا، وحينئذ، لم يعد ثمّة ما يبرّر خشيته إطلاقا، إذ هو «نوم دون أحلام»

1- آغاميمنون لمحاربة مدينة طروادة.

2- أوليس: المدينة التي انطلق منها الأسطول الإغريقيّ لمحاصرة مدينة طروادة

(**دفاع عن سقراط**)، أو أنّ هناك عالما ما ورائيّا، لكن من ينظر إلى حياته نظرة فلسفيّة ليس له أن يخشى شكلا كهذا من البقاء، إذ هو استعدّ لذلك حقيقة. التّفكير، هو بمعنى ما، موت من كلّ ما يُحْدِث اغترابنا، وقد كان هذا الموت، بالنسبة إلى ‹أفلاطون›، شيئا مُحَرِّرًا.

يقول ‹مونتاني› التّفلسف هو أن نتعلّم كيف نعيش. ولكن أيضا، أن نتعلّم كيف نموت، (**المحاولات**)[1]، فنهوّن بذلك من الموت، ونبقى في آن واحد، على مسافة من المغريات العنيفة جدّا للحياة. بقي أنّ التّفكير في الموت ليس له أن يزعج الحياة. إنّه ارتخاء. إنّ المسرح الأبديّ للحياة الفانية، أين لا يتعلّم المرء إلّا كيف ييأس من نفسه، عليه أن يترك ستائره تغلق في الوقت المناسب. «إنّنا ننغّص الحياة من فرط اهتمامنا بالموت... الأكيد أنّ الموت نهاية الحياة، لكنّه ليس، مع ذلك، هدفها. إنّه طرفها ومنتهاها، ومع ذلك، فهو ليس موضوعا لها.» (**المحاولات**)[2]. وعلى غرار ‹أبيقور› و‹سبينوزا› اللّذين يدعوان إلى «تأمّل الحياة، لا تأمّل الموت»، فإنّنا لا نستطيع التّعبير، بشكل أفضل من ذلك، بأنّ التّفكير في الموت يجب أن لا يغضّ أنظارنا عن العيش، والعيش، يُصَرّفُ أوّلا في الحاضر. يقول الشّاعر: «اقطف النّهار» (*"carpe diem"*)، بقي أنّ الإحالة إلى الموت لها على الأقلّ، الفضل في تذكيرنا بضرورة ألّا نخطئ في تقدير ما له قيمة حقّا. فتذكّر الوضع الإنسانيّ يساعدنا على تصريف كلّ ما هو خسّة. كلّ شيء يمرّ سريعا.

وإذا كان صحيحا حقّا أنّ الموت «بضمير المتكلّم»، أي موتي، هو لا شيء، بمعنى أنّني لا يمكن أن أخوض تجربة مباشرة فيه، يبقى أنّ موتك، أنت، الكائن المحبوب وقد تجمّدت ابتسامته، يهزّني هزّة أقوى ممّا يمكن أن أقوله. جميل أن يقول لنا ‹أبيقور› والرّواقيّون أنّ موتك، بضمير المخاطب، يندرج في نظام الأشياء، وأنا لديّ بعض العناء، في السّيطرة على هذه الغصّة في حلقي الّتي تشوّش لديّ، هذه السّاعة، الحضور في العالم. إنّ العزاء، الّذي هو في حقيقة الأمر ليس كذلك، يتمثّل في القول بأنّ لكلّ سفر منتهى، وقد

1- Montaigne; *Essais*, I, XX.

2- Montaigne; *Essais*, III, XII.

رحلتَ (تِ) أنـتَ (تِ) وليس أنا. عزاء آخر، أصدق للقلب، يُذكّرني بأنّك مازلـت تحيـى، في كلّ ما أنجـزت، وكلّ ما ولد منـك أو اغتنى بلقائك. تلامس الفلسـفة وكلامهـا هنا، حدّها وكذا الحياة ذاتها، ولا يجب التّشـبّث بديمومة الحياة السّـعيدة، وإنّما بكثافتها، وقوّة الشّهادة الّتي ستدلي بها لنفسها، وتشـعّ بها على الآخرين. يقـول «مارك أورال»، على هذا النّحـو، إنّ قيمة حياة تبلغ بشـكل مّا، الخلود بامتلائها الفعليّ: «كلّ ما تأمل بلوغه على امتداد فترة طويلـة، يمكنك تحقيقه من الآن، ما لم تمنع ذلك عن نفسـك.» (أفكار، الفصل الثاني عشر)[1].

دفع الألم

ألا تكون عذوبة العيش، منغّصة بالألم الّذي يتربّص بنا في كلّ لحظة، هذا الّذي يمثّل الرّصيد المشـترك للبشر، على قدر المتعة؟ وفعليّا، يمكن للألم أن يفاجـئ حتّى أقوى البشر. لقد ابتهج «سـقراط» بالرّاحـة الّتي حدثت له، عندما رُفِعَتْ عنه الأصفاد الّتي كانت قد جرحت أطرافه، منذ عهد طويل. لقد تعوّد بها. وهو يخوض الآن تجربة نسـبيّة الآلام والمتع الخاصّة بالجسد. إنّه لدرس جيّد نحفظـه، لكنّه ذو وجهين. فبعد الألم، المتعة. وبعد المتعة، الألم. في الحالة الأولى، الأمل والتّجربة يسـمحان باسـتباق نهاية العذاب والخروج من ذلك، وإن عن طريـق التّفكـير. في الحالة الثّانية، ضرب من الظّل المعلّـق، عليه أن يدعونا إلى العيش في الحاضر عيشـا تامّا، دون الخروج منه. وفي نهاية الأمر، يكتفي بذاته، إذ يسـمح للكائن أن يشـعر بذاته في تمامها. لماذا التّفكير في الآلام المستقبليّة، عندما تتساوى الحياة مع مثلها الأعلى، ولو كان ذلك، زمن يوم مشمس، أين تعيد العصافير ابتكار روعة السّماء؟

إذا تملّـك الألم وغـزا، فكيف نتصرّف لكـي نفوز على الأقـلّ، بالدّعم الّذي يطبع مقاومة الكائن لكلّ ما يضعفه، إن لم يكن الفوز بغياب العذاب الجسـديّ بالإغريقيّة الآبونيـا. (*aponia*)؟ إنّ الجَلَدَ الأسـطوريّ الرّواقيّ أباتيبا (*apatheia*) يجـب ألّا يفهم حسـب «إبيكتـات»، وكأنّه انعدام إحسـاس تمثال

1- Pascal, *Pensées*, XII, 1.

(**أقوال** III، الفصـل 2 الفقـرة 4)[1]. المواقف الرّواقيّة هـي بالأحرى، ضرب من الانضباط يجعلنا لا نُغْمَرُ بالألم أو ننجرف به. إنّها تصقل، ولا يمكن اكتسابها دفعـة واحدة. لا يتعلّق الأمر بالضّبـط بالتّصلّب، بل بتعلّم معالجة الألم، على أنّه شيء لا يطـال كلّيّة الكائن. الأكيد أنّ النفس، موطن الأفكار والمشـاعر، تكوّن مع الجسـد «ما يشـبه كلّا واحدا»، حسـب ‹ديكارت›. ومن العسير جدّا أن نضرب صفحا عن مغامرات الجسـد، إذ هـي أيضا مغامراتها بوجه من الوجـوه. بقي أنّ الحيـاة الدّاخليّة والمنابع المتداخلة للذّاكـرة والمخيّلة والعادة المتّبعة لتنسيب العذابات الجسديّة، هي هنا ثمينة.

الاستمتاع بالفكر

فضول، يقول ‹أرسطو›، في شأن الدّفع الأوّل الّذي ينزع إلى المعرفة. إنّ حالات الكسوف المدهشة تحجب الشّمس. الرّضيع الوليد الّذي ليست له عادات بعد، لا يبـدي أيّة خشـية من ذلك. لكنّ الإنسـان يتملّكه الرّعـب منها. فإذا ما استطاع أن يفهم ويتأكّد من أنّ الشّمس سـتعود، يتبدّد الخوف. «إذا لم تكن الشُّبُهات حول الأجسام السّماويّة تعذّبنا، بما في ذلك المتعلّقة بالموت... لم تعد لنا حاجة إلى علم بالطّبيعة.» (‹أبيقور›، **الحِكَم**، 11) وهكذا تكون طمأنينة الرّوح في الميزان. لكن، ليسـت هي، فحسب، وإنّما الفرحة النّاجمة عن فعل المعرفة، بما هي اكتمال، الّتي لا تكون غايتها سـوى نفسها. يجب أن نرى في ذلك علامة كبرى، عمّا ينتظره كائن من ذاته، عندما يقرّر أن يحيا حياته تماما.

من البداهة ألّا تأخذ السّعادة معنى إلّا بالنّسبة إلى كائن قادر على الإحساس بها. ذلك هو الإنسـان الّذي يمكن اعتباره سعيدا، عندما يكتمل. فالسّعادة لا تفـرض من خـلال نموذج اضطراريّ. فرؤيتها المثاليّة تثبّت مقياسـا يسـمح بالتوجيه، دون إخضاع، إذ هي تخلّص من الإعاقات المسجّلة في الواقع. السّعادة (*eudaimon*) بالنّسـبة إلى ‹أرسـطو›، هي الخير الأسـمى، منذ اللّحظة الّتي تعلن فيهـا عن ضرب من تحقّق الاكتمال البشريّ. إنّها تترجـم حينيّة قصوى، لما هو

1- Epictète, *Entretiens*, III, chap. 2 paragraphe 4.

خصيصة الإنسان، أي الحياة العقليّة التّامّة والنّاجحة. النّص المركزيّ، في هذا الشأن، يوجد في **إتيقا نيقوماخوس** (الكتاب الأوّل، الفصل السادس)[1].

«... يبدو التماهي بين السّعادة والخير الأسمى بمثابة شيء متّفق عليه، من قبل الجميع. وما نرغب فيه، أيضا، أن نقول بشكل أوضح ما هي طبيعة السّعادة، وربّما نستطيع التّوصّل إلى ذلك، لو أنّنا كنّا قد عيّنّا وظيفة (*ergon*) الإنسان. كذلك الشأن بالفعل بالنسبة إلى عازف النّاي، أو النّحّات، أو أيّ فنّان كان. وعموما، بالنسبة إلى كلّ أولئك الّذين لهم وظيفة أو نشاط معيّن، فالخير، النّجاح يكمن، حسب الرأي الشّائع، في الوظيفة، ويمكن أن نعتبر الأمر كذلك، بالنسبة إلى الإنسان، إن كان ثمّة وظيفة خاصّة بالإنسان. [...] لكن، فيم تتمثّل هذه الوظيفة حينئذ؟ فمجرّد العيش هو أمر نشترك فيه ولا شكّ، حتّى مع النّباتات، في حين أنّنا نبحث عمّا يخصّ الإنسان، دون غيره. علينا أن نترك جانبا حياة الغذاء وحياة النّموّ. تأتي بعد ذلك، الحياة الحسّية، لكن هذه أيضا تبدو مشتركة مع الفرس، والثّور وسائر الحيوانات. تبقى إذن، حياة الجزء العقليّ من النّفس، جزء يمكن تصوّره من جهة بالمعنى الّذي تخضع فيه النّفس للعقل، ومن جهة أخرى، بالمعنى الّذي تمتلك فيه العقل مُمَارِسَةً فيه الفكر.»

وليدقّق ‹أرسطو› أكثر، يقول: «هذه الوظيفة هي نفسها نوعيّا لدى فرد من عامّة النّاس وفرد متميّز (كما هو الشأن بالنسبة إلى عازف القيثارة وعازف قيثارة ماهر)، فالامتياز النّاجم عن الاستحقاق ينضاف إلى الوظيفة (إذ أنّ وظيفة عازف القيثارة هي أن يعزف على هذه الآلة، أمّا وظيفة العازف الماهر، فهي أن يفعل ذلك بإتقان)...»

من هنا، يعبّر عن الاكتمال الإنسانيّ حينئذ، من خلال الامتياز في إتمام الوظيفة الّتي تميّزه بوجه خاصّ، «وهذا يعني إذن، أنّ الخير بالنسبة إلى الإنسان يتمثل في نشاط النّفس في علاقة بالامتياز (*arètè*). وفي صورة تعدّد أشكال الامتياز، يكون بأرقاها وأكملها». لكن، يجب أن نضيف أيضا : «ويكون

1- Aristote, *Ethique à Nicomaque*, livre I, chapitre 6, de 1097 à 1098, Traduction Tricot, éditions Vrin.

ذلــك في حيــاة مكتملة إلى أقصاهــا»، إذ أنّ خطافا واحــدا لا يصنع الرّبيع، وكذلك الشــأن بالنسبة إلى «الغبطة والسّعادة، فهما ليستا كذلك نتاج يوم واحد، ولا برهة وجيزة من الزّمن». (المرجع السّابق).

وهكذا، فإنّ الممارســة النّشيطة للعقل هي ولا شــكّ، العمليّة التي قُدَّ من أجلها الكائــن البشريّ، ومن خلالها يكتمل. إنّ القدرة المعيّنة الّتي تناســبها (*hexis* بالإغريقيّــة و*habitus* باللّاتينيّــة) يجب أن تصقل ولا شــكّ، بالتّمرين، لا بــل جعلها طريقة وجود حقّ (*ethos*). وقد أصبحت مألوفة. إنّها متضامنة مع فنّ عيــش قادر على جعل حياة الفكر المضطلع بها في أقوى درجات صرامتها. هي الدّافع والنّور السّاطع لنمط الوجود هذا. إنّ الفعل، *l'energeia* أي حركة تحقيق الذّات، بما هو مســار يتســبّب في إحداث اســتعداد كهذا، هو شبيه بأثر فنّان: فهــو يتضمّــن مبدأه وغايته في ذاته، وهو يحدّد أرقى «شــكل للممارســة». هو حينئذ، الواقع المنجز (*entelecheia*) الّذي يعبّر عن نفسه في امتلائه المثاليّ. إنّ تحقيق الذّات، في علاقتــه بالزّمن، عليه أن يتحرّر من اللّحظــات العرضيّة وتقطّعاتها، لبلــوغ نظــام واقع، هو دائم دوام فصــل. وليس أيّ فصل: بل هــو الرّبيع الّذي أعلــن طيران الخطاف عن قدومه، لكنّه يعلــن، رمزيّا، قدوم الحياة في عنفوانها الجوهريّ، كما في تأكّدها الواثق.

تتطلّب السّــعادة إذن، تنوّع الأصوات، وتناســق مختلف ســجلّات التّحقّق، لكن وفق تفاضليّة دامجة، تجعل من الاكتمالات الثّانويّة الّتي لا تخصّ الإنسان وحده شروطا لا يتأتّى من دونها الاكتمال الخاصّ بالإنســانيّة، وبكلّ إنســان. تكون السّــعادة، في اكتمال كهذا، العلامة الفعليّة وحالة الرّضاء الّتي تشهد عــلى تفعيل الحدّ الأقصى للإمكانيّات الأكثر أهمّيّة في الكائن. هذا التّفعيل، ولربّما، ليس العلامة الدّالّة عليه، هي الغاية القصوى للتّصرّف الوجوديّ والبحث الثّاوي فيه. هذا لا يقلّل شــيئا من أهمّيّة السّــعادة، ولكن، في حقيقة الأمر، أن يحصــل المرء على أثــر، بطريقة غير مباشرة، على أنّه عــرض دالّ على الاكتمال، أفضــل من هدف مطلوب لذاته. السّــعادة، وقد فهمت على هذا النّحو، تبدو في علاقة لا تنفصم مع ضرب من تحقيق الذّات.

«إذا كان النّشاط العقليّ، نشاطا تأمّليّا، يبدو جيّدا متفوّقا في ارتباطه مع ما هو جدّيّ. وهو لا ينزع في الوقت نفسه، إلى أيّة غاية سوى ذاته، ويمتلك متعة تامّة تخصّه (وتنمّي فضلا عن ذلك نشاطه). وأخيرا، إذا كانت الجدارة وحياة الوقت الحرّ وغياب التّعب (في حدود الطّبيعة الإنسانيّة) وسائر الخاصيّات الّتي نسندها للإنسان المستمتع بالغبطة، إذا كان كلّ ذلك يمثّل تمظهرات مشدودة إلى هذا النّشاط: ينتج عن ذلك أنّ هذا الأخير هو الّذي سيكون السّعادة التّامة للإنسان، عندما يمتدّ طوال حياة كاملة، بما أنّه لا يجب أن يبقى أيّ عنصر من عناصر السّعادة منقوصا.» (**إتيقا نيقوماخوس**، الكتاب العاشر، الفصل السّابع)[1].

سنسجّل أنّ السّعادة ههنا، هي تتويج ومنبع في آن، بما أنّها «تنمّي» النّشاط، من جهة أنّ الاكتمال النّاضج يستتبع اكتمالا أدقّ أيضا، نتيجة حالة الرّضاء الّتي يولّدها. تلك هي الحلقة المفترضة لجدليّة إيجابيّة سيلقاها ‹سبينوزا› على طريقته، مركّزا، هو أيضا، على التّفاعل الخصب بين القدرة على الفعل والقدرة على الفهم. غير أنّ ‹أرسطو› يعطي، لمثل هذا المثل الأعلى للاكتمال، خاصّية فكرانيّة، مدقّقا أنّ هذا المثل لا يكون ذا قيمة بالنسبة إلى الإنسان، من حيث أنّه يحمل شيئا ربّانيّا، بالنّسبة إلى «المركّب الإنسانيّ» الّذي يكوّنه.

إنّ الاستقلال التّامّ للحكيم، وأوترخيا (*autarkeia*) هي من باب ما هو أقصى الّذي لا يمكن بلوغه، إلاّ في وضع خاصّ. إنّه الأقصى، أخذا بعين الاعتبار الواقع الفعليّ للوضعيّة المعيشة. يجب أن نفهم من ذلك، ولا شكّ، أنّ الحياة الإنسانيّة هي خليط من التّطلّعات والمتع، أين يكون جزء منها ليس إنسانيّا بوجه خاصّ، ومع أنّ لهذا الجزء أهمّيّته، فإنّ الجزء الآخر يعبّر عن أفضل ما في الإنسان، وعن امتياز إنسانيّته المخصوصة، الموعودة، والحالة هذه، إلى بُعْدِهَا الرّبّانيّ. «ما هو مميّز لأيّ شيء هو بالطّبع أفضل وأحبّ ما فيه. وبالتّالي، ستكون الحياة، وفق العقل، ميزة الإنسان، إذا كان العقل حقّا هو، في أرقى درجاته، الإنسانَ ذاته. هذه الحياة هي، ههنا إذن، أسعد حياة أيضا. (المرجع السّابق).»[2]

1- Aristote, *Ethique à Nicomaque*, livre X, chapitre 7, 1117b. , Traduction Tricot, éditions Vrin.
2- *Ibid*, 1178a.

الدرس الثامن

تمارين الحرّيّة

أن يصبح المرء ما يمكن أن يكون

ليس الفلاسفة أبطالا. إنّهم، على أقصى تقدير، أمثلة على ما يمكن أن تغنمه الحياة البشريّة من تنميتها للوضوح. إنّ فنّ العيش لديهم، الّذي نؤكّد طابعه النّموذجيّ، متى عنّ لنا ذلك، لم يطوّروه تلقائيّا، بفضل صفات فطريّة لا غير. لقد تدرّبوا، في البدء، على ذلك بتقوية حالات وقدرات على التحمّل، ليس مسلّما بها من البداية. يمكن للسّكينة أن تُكْتَسَب، على أنّها ضرب من العادة الّتي تتّخذ في شأن ما يجب أن يكون عليه المرء، والتّحكّم في ردود أفعاله. يؤكّد «سبينوزا» على دور العقل في فهم الأسباب التي تجعلنا نتعذّب. لكنّه لا يرى أنّ مجرّد توضيح هذه الأسباب يمكن أن يجعل عواطفنا وانفعالاتنا تختفي. لا بدّ، ههنا أيضا، من تحوّل ما للشّخص، ومن صيرورة تتّجه صوب الحكمة، بتمارين مخصوصة لتنميتها.

يكون الصّبر، مجدّدا، مداومة على بناء الذّات، لا فنّ تحمّل، [بناء] ذات حرّة ومتحكّمة في انفعالاتها. إنّ تمارين الحرّيّة لا تقصد هذه الذّات، على أنّها حالة يمكن التّمتّع بها نهائيّا. فالسّعادة لا يمكن أن تفهم على أنّها هبة للاستهلاك، جاهزة لا تنفد. التدرّب على استعمال الحرّيّة هو أن يصبح المرء أكثر تحرّرا، إذ هو يمرّ من إمكانات بسيطة، كامنة لدى كلّ إنسان، إلى استقلاليّة فعليّة. البرنامج هو التّحرّر الشّخصيّ، إزاء كلّ ما يعيق على الازدهار. إنّ تمارين الحرّيّة

تعمـل على نقـل مجموع القوى الكامنـة في الكائن البـشريّ إلى واقعه الحيّ، بتحقيقها على أنّها استعدادات مسـتمرّة «لعادات» تمّ اختيارها وصقلها بحرّيّة. كلّ شيء يبدأ مع الانهمام بالذّات، لا من جهة المجاملة النّرجسيّة، وإنّما من جهة إرادة التماسـك، بالمعنى الدّقيق والمعنى المجازيّ للكلمة. إنّ الاستقامة لتطلق على من يقدر على التماسـك واقفا، ولا يتحلّل مـن الالتزامات التي أبرمها مع الآخرين، إذ أنّه سـيعدل، بذلك، عن قراره إزاء نفسـه. إنّ الرّابط بين السّعادة والأخلاق هو، في البدء، لا شـبهة فيه، وهو يُعْقَدُ في هذا الاقتضاء الذي يؤسّس لاحـترام الذّات، بنفس الثّقة الّتي ينفتح بهـا على فهم الغير. ولكي ينبني الفرد على هذا النّحو، يكون وحيدا، إذ لا أحد يقدر على القيام بذلك، عوضا عنه، إذ هو الذي يجعل نفسه قادرا على السّعادة وجديرا بها.

يتعلّـق الأمر، إذا جـاز القول، بأن يتملّك كلّ شـخص ذاته، فيعطى لها، بذلـك، كلّ حظوظ السّـعادة. وهو محتاج في ذلك إلى أن يسـتقلّ أكثر ما يمكن عن الأشـياء الّتي لا سـلطان له عليها. إنّ الحكمة الرّواقيّة لتدعونا إلى رباطة الجأش وإلى الحرّيّة في آن.

الواجبات إزاء الذات.

ما هي الحياة التي نريد أن نحياها؟ طرح السؤال، كما هو، يكون في الغالب مفيدا. إنّ دوار الاختيار والتّردّد بين مسـلكين تبدو رغبتنا تجاههما متساوية، هما ضرب من الخطورة المقلقة. فعندما لا نسـتطيع الحسم، وعندما نخشى مسبقا أن ينتابنا شـعور الحنين إلى الاختيارات الّتي لم نعرف كيف ننجزها، فإنّ سـؤالا كهذا سـيكون خصبـا. إنّه يدعـو إلى أن يكون المرء واضحا مـع ذاته. إنّنا نتعلّم من أنفسنا أشياء لم نكن، حتّى، نتخيّلها، خصوصا وأنّنا نصرف جهدا في التّبصّر يغني المرجعيّات الدّاخليّة للفعل. نندهش، حينئذ، عند اكتشـافنا بأنّنا نحيا، وكأنّنا كنّا قد أجبنا عن سؤال جوهريّ، مع أنّنا لم نطرحه على الإطلاق. ودون أن نكـون قد اخترنا، بحقّ، الحياة الّتي نحياها. غياب غريب. لقد كان الوعـي في غفوة، وكنّا نياما، والعينـان مفتوحتان، كما يقول هير قليطس. إنّ أوّل واجـب، إزاء الذّات هو، ببسـاطة، أن نعرف ما ذا نريد حقيقة، حتّى نعطي

لحياتنا أهدافا تكـون أيضا جُدّات. يؤدّي هذا الوعي إلى فرحة حياة دنيا، دون عقد، متخلّصة من ضروب التأثيم غير المستحقّة.

إنّ الواجبات إزاء الذّات، لا تعبّر عن أيّة أنانيّة، بالمعنى الاستهجانيّ للكلمة. والأكيد أنّها تنتمي بالأحرى، إلى ما يذكره ‹أرسطو› تحت عنوان، وجاهة الانهمام بالـذّات. من المشروع فعلا أن يهتمّ المرء بذاته، حتّى وإن كان ذلك للإبقاء على دور المـرء إلى جانـب الآخرين، وأن يقـدّم إليهم كلّ ما يسـتطيع تقديمه. هذه الدّعايـة هـي علامة اعتناء، له قيمة في ذاته. فأن يعتني المرء بجسـده، وأن يحلّ في نعومة بدلة جديدة، معناه، تقريبا، أن يعيد من جديد اليوم أو حياة اللّحظة.

السّـعادة الشـخصيّة تشـعّ. إنّها هبة للآخرين. والضّغينة وحدها أو الضّعف المتنكّر في صورة فضيلة هما اللّذان يمكن أن يَحْزَنَا لذلك. إنّ «لأنانيّ الجيّد» الّـذي يعتني بنفسـه، يوجد فعلا على طرفيْ نقيض مـن «الأنانيّ الرديء» الذي لا يقـصي الآخرين، إلاّ لأنّه يتصوّر لنفسـه متعة وجيـزة، وحتّى كرها للذّات واعيـا إلى حدّ مّا. الأكيد أنّه يجب القبول ببشريّة حاملة لاجتماعيّة طبيعيّة، وأنّ الغـير ضروريّ لاكتمال الذّات. لقد توصّل كلّ من ‹أرسـطو› و‹كانط› إلى ذلـك، كلّ عـلى طريقته، وحتّـى وإنْ أضفى ‹كانط› مسـحة مميّزة على هذا الأمر بالحديـث عن «لا اجتماعيّة الاجتماعيّة»، لكـي يصف ازدواجيّة البشر، إزاء رابـط اجتماعيّ مضطرب، في الغالب، بالصّراعـات وظلم تاريخٍ لم تحكم السّيطرة عليه.

بقـي أنّ الواجبـات إزاء الذّات، غايتها أن تتوفّر لديها شروط حياة إنسـان، يتحكّـم في تصرّفه، ويكون مكتملا على قدر يسـمح لـه بالتّصرّف بحرّيّة. إنّها تتضمّن ولا شكّ، شاغل الحصول على كلّ ما يضمن الحياة على المستوى المـادّيّ، ويجعلهـا جيّدة، على قدر المسـتطاع: لا يتعلّق الأمر فقـط بالبقاء، وإنّما بحسـن البقـاء، وهذا مـا كان يؤكّد عليـه ‹أبيقور›. لقـد أصبحت الألفاظ الإغريقيّة مشـهورة بقدر كاف، يسمح بالاستشـهاد بها هنا : «ZEN» الحياة؛ « Eu zen »: الحياة الطّيّبة، والمكتملة.

أن يعتـني المرء بذاته هو، بالتأكيد، أن يعتني بجسـده (صحّته الجسـمانيّة) وبمظهره (وسـامته وجمالـه). ولكن أيضا أن يعتني بأفـكاره، وبوعيه، بحمل حياتـه الدّاخليّة إلى أفضل مـا فيها. والاعتناء الذي يوليـه لأفكاره يتّخذ عدّة أوجه، وينزع إلى التسـلّح بصفاء دائم، وتجربة حميمة، أين تكون سـعادة العيش قد تركت أثرها. أن يعرف المرء كيف يحتفظ في ذاكرته بما يساعد على تحمّل أعسر الأوقات، أو نسج الذّكريات السّعيدة بينها، للحفاظ على الثّقة. أن يعرف كيف ينسى أيضا، في الوقت المناسب، «لتنشيط» الوعي، والسّماح له باستقبال حظـوظ الحياة، دون تحسّـب، متجنّبا بذلك التّكرار. لقد أكّد ‹نيتشـه› على فضيلة النّسيان، بما هي منبع تجدّد يرتّب حظوظ السّعادة.

في مـا بعد البقـاء والحياة التامّة التي تجعله ممكنـا، يتضمّن الاهتمام بالذّات البحـث عن الاسـتقلال الأخلاقيّ والفكريّ، ممّا يجعلنـا «حاكما طبيعيّا على أنفسـنا». وهذا ما يسـمّيه ‹كانط› الوعي، أو «الحاكم الدّاخـليّ» وما يعتبره ‹روسّـو› «الغريزة الرّبانيّة»، مؤكّدا أنّه يمكن للإنسـان أن يتصرّف، بناء على الوعي بالخير وبالشرّ. احترام الذّات هو من الآن شرط أسـاسيّ للسّلم الداخليّة الّتي تجعلنا نحبّ العيش ونتعامل، بيسر، إزاء الغير، بقدر ما نكون متوافقين مع أنفسـنا. إنّه مطلب إتيقيّ ذو معنيين لحسـن العيش والأخلاقيّة. وهذه الأخلاقيّة ليسـت، في آخر المطاف، أمرا خارجيّا، بقدر ما هـي صيغة وجود مزدهرة، على حدّ مَرْضيّ يجعلها متخلّصة من الوسـاوس ومن الانفعـالات الحزينة. وحينئذ، يعامـل الآخر، بطبيعة الحـال، كما يجب أن يعامل، لا بعنف وصيّة سـتكون مضرّة بالتّأكيد السّعيد للذّات.

الأفضليّات واللاّمبالاة

توجد خيرات علينا أن نعرف كيف نستعملها، مقدّرين قيمتها حقّ قدرها، لا أكثـر ولا أقلّ. الرّهان واضح [هنا]: ألاّ نصبح سـجناء الأشـياء والرّغبات النّاجمـة عنها. فأن تكـون للمرء حاجات ورغبات، لا يعـني ذلك أنّه يصبح غارقـا فيهـا. فضيلة اللاّمبالاة، حينئـذ، هي ثقل جيّد لترجيـح الكفّة. فتنمية اللاّمبالاة إزاء ما ليس جوهريّا في حياة إنسـان، حتّى وإن استمتعنا في استعماله،

هو الحفاظ على مسافة مفيدة. وعندما يحين الوقت، سنعرف قيمة ذلك. لقد دفع المفكرون الرّواقيّون بالمطلب إلى حدّ المفارقة، وقد ردّد «بلوتارك» (Plutarque) ذلك في نبرة ساخرة إلى حدّ مّا. كيف ننعت فعلا، هذه الأشياء التي ستكون في آن واحد «ما يؤخذ لا ما يختار، وما يمتلك، (oikeia) دون أن يكون من الخيرات، وما هو بلا جدوى، وطيّب الاستعمال، وما هو لا شيء بالنسبة إلينا، وينعت بكونه مبادئ لأفعالنا اللّائقة؟» (المعاني المشتركة ضدّ الرّواقيّين الفصل 23). السّخرية سهلة، لكنّها والحالة هذه، لا تعتمد إلاّ على شبه حسّ سليم. فهل يمكن التّظاهر بعدم الرّغبة في التمييز بين درجات الأهمّيّة في التّطلعات البشريّة والأشياء التي تسعى إليها؟ القول إنّ بعض الأشياء أفضل من غيرها، لا يعني الحطّ من قيمتها، بل إدراجها ضمن تفاضليّة. أليس من الواضح أنّ حسن استعمال الثّروة المتأتّية من اليانصيب له قيمة أكبر من الثّروة المفاجئة ذاتها؟.

لا توجد بين المفارقة ودرس الحرّيّة إلاّ خطوة واحدة نخطوها. العالم المحيط بنا لا يتهيّأ دائما، للرّغبات، ولا حتّى للحاجيّات. لقد كان «أبيقور» نفسه ينصح بالتعوّد على الاكتفاء بالقليل. ولم يكن يرى في البذخ شرّا في ذاته، وإنّما مجازفة واقعيّة بحقّ: ألا وهي خلق وضعيّة تبعيّة. إنّه لأيسر بكثير للمرء أن يشبع حاجاته، عندما يعرف كيف يعدّلها. إنّ هذه المعاينة للحسّ السّليم البسيط لا تدفع إلى الزّهد. إنّها تنمّي حتّى الرّضاء بغذاء حفل، وأكثر من ذلك تثمينه من جهة كونه فاق المعتاد.

إنّ الخيرات المفيدة للحياة، هي أيضا، خاضعة، في غالب الأحيان، للتّغيّر، والحظّ السّعيد هو الذي يقرّر ذلك. ولكن أيضا، الحظّ السّيّئ. وأمزجتنا الخاصّة، هي على درجة من التّغيّر، بحيث أنّها تَسْتَرِقُّنَا، أو هي تنزع إلى ذلك. أشياء غير ثابتة. الصّحّة، الثّروة، الجمال، تُحْمَلُ، في أغلب الأحيان، على أنّها مطلقة، وليس بعيدا عن هذا الانسداد والضّيق، بمجرّد أن ينقص خير من بين هذه الخيرات. نقص كهذا أكثر من متوقّع في حياة البشر. والأفضل هو الاستعداد لذلك، دون أن نجعل من هذا الاحتياط فضيلة. وهكذا نتدرّب على تنسيب محبوباتنا ومكروهاتنا، حتّى لا يصيبنا الضّياع. إنّ استعمالنا للخيرات التي

فضّلناها لا يمكن أن يفصل عنها. ومن المهمّ، زيادة على ذلك، أن تكون هذه الخيرات ذاتها ذات طابع اتّفاقيّ.

من البديهيّ أن تكون الصّحّة أفضل من المرض، ليس فقط بالرّاحة التي تجلبها، ولكن أيضا بحرّيّة التّفكير التي تيسّرها. لذلك، جعل «ديكارت» من الطّبّ مساعدا للإتيقيا، فنّ العيش، مستعملين حرّيتنا على أفضل وجه. لقد نبّه «كانط» إلى أنّ صحّة الإنسان يمكن أن تؤدّي به إلى أعمال متهوّرة، يدفع ثمنها غاليا، بتعرّضه مثلا إلى خطر، دفعه نشاطه، في تلك اللّحظة، إلى التّقليل من شأنه. إنّ الاستعمال العقليّ للحكم الجيّد المفضّل هو، هنا، موضع نظر.

الثّراء أيضا أفضل من الفقر، إلّا أنّ هذه المعاينة قصيرة النّظر. لقد ذكر «لافونتان» (La Fontaine) الوجهين الأسطوريّين للإسكافيّ ومالك المال. يصوّر الأوّل سعيدا أكثر، لأنّه متحرّر من الشّواغل الّتي تتملّك الثّاني. إنّه درس في السّعادة قابل، لكي يُضاعفَ مجموعها. دعونا نشكر الآلهة – أو صدفة الحظّ السّعيد – على إهدائنا بعض الخيرات. لكن، لنتعلّم كيف لا نبالغ في طلبها. سنكون بذلك أحرارا أكثر ما يمكن، إذ لن نكون تابعين لشيء خارج عن إرادتنا، ولن نندب حظّنا، إذا بدا القدر معرضا عنّا.

اعرف نفسك بنفسك

يمكن للشّعار[1] المنسوب إلى «سقراط» أن يُقرأَ من عدّة أوجه. [أن يُقرأ] من جهة، أنّ الذّات هي الإنسانيّة المفكّرة والحرّة المُودَعَة في كلّ شخص، بشكل خاصّ، والحقّ يقال. يُقْرَأُ أيضا، وبصفة مباشرة أكثر، من جهة أنّ الفرد الّذي تكون ذاتيّته مخصوصة يدخل في تَصَادٍ مع تاريخ أوحد. فأن يعرف المرء ذاته هو إذن، أن يُقدّر ما يستطيع علمه ومعرفته، باعتباره إنسانا كلّيّا، كما يُظهر لذاته مزاجا وعناصر من المعيش الماضي الّتي طبعت السّجيّة. وباختصار، أن يفهم المرء نفسه على طريقتيْن، في البدء، على أنّه كائن فرد، متأثّر بأحداث فريدة،

1- الشّعار (devise) استعملت العبارة بالمعنى المجازيّ، للدّلالة على السّمة المميّزة لموقف «سقراط» من الفرد والإنسانيّة والتّاريخ.

وحتّى مهوس بانجذابات ومخاوف تأخذ مصدرها من سيرة ذاتيّة، هو وحده الّذي يمسك بمفاتيحها، في آخر الأمر. بعد ذلك، يفهم نفسه باعتباره كائنا كلّيّا، قادرا، مبدئيّا، على فهم ما يقدر كلّ امرئ على فهمه وفعله. وكلّ ذلك للتّصرّف على نحو يجعل هذه السّيرة الذّاتيّة لا تقوم عائقا في مسار التّوجّه نحو تمام الإنسانيّة الّتي علينا أن نكتشف في داخلنا إمكانها.

أن يعرف المرء نفسه لا يعني ذلك، مطلقا أن يتحجّر في صورة الذّات الّتي يمليها الحاضر، مع خطر التّخلّي عن شيء أساسيّ، إذا رفع المكبوتات المعيشة إلى مستوى القضاء والقدر. أن يعرف المرء نفسه هو أن يفهم ذاته في ضوء المثل الأعلى الكامن في كلّ إنسان، بقدر ما يتفحّص ذاته بواقعيّة وصرامة. التّمشّيان حيويّان واشتراكهما أكثر من ذلك. وهذا يجنّب المرء أن يبني أوهاما حول ذاته، ولكن أيضا اليأس من الذّات. لذلك رفض الفلاسفة قطعيّا اختزال صفاء النّظرة إلى الذّات، في الرّسالة النّفسيّة للاستبطان وحدها. إنّ النّظر الباطنيّ، كما يدلّ على ذلك هذا اللّفظ، يشوّه، في معظم الأحيان، في العذاب العاطفيّ، وهو سجين الانفعالات وأحاسيس اللّحظة الرّاهنة. لقد وجد نفسه في حلقة مفرغة، نشأت عندما لم يعد المرء قادرا على أن يخرج إطلاقا من ضروب هَوَسه.

لقد دعا «سقراط» و«ديكارت» و«كانط» و«سارتر» من بين آخرين إلى الصّرامة الفكريّة والاشتغال على الذّات الّذي يحرّر من الأنا المباشر، ومن الذّات الإمبيريقيّة: وهكذا يدافعون، بلغتهم، عن اكتشاف معين لا يقدّر بثمن، لإنسانيّة كلّ إنسان. إنّ استعادة حيازة ملكة اتّخاذ مسافة، والقدرة على المعرفة الّتي نسمّيها عقلا، واستعادة هذا الحسّ المُشترك لدى الجميع الّذي يعرف كيف يرى الحقّ، ويمسك بالجمال، ويعرّف العادل، لا يعني نفي ما نحن عليه راهنا، وإنّما الحياة في سجلّ آخر، يحرّر ويجعلنا نأمل. القدرة على الفهم هي رسالة مهمّة للإنسانيّة، إلى درجة أنّ «أرسطو» كان يرى فيها امتيازها الخاصّ، وتحقّقها الأقصى لا أكثر ولا أقلّ. إنّ التّوتّر الدّاخليّ، بين ما نحن عليه وما نعرف أنّه بإمكاننا أن نكونه، هو ولا شكّ، ضرب من الضّيق، لكنّه ينزع الرّتاج عن المعيش، ويستعيد أجمل منظوريّاته.

لا بدّ إذن، أن يجازف المرء بالتّفكير بنفسه، باستعماله عقله، حتّى يمسك، لا فقط بما هو كائن، ولكن أيضا ما يمكن أن يكون. الواقع ليس على الإطلاق الشّيء النّهائيّ، العصيّ على التّجاوز. إنّه يتضمّن في داخله تطوّره الآتي، شأنه في ذلك شأن البرعم الّذي يحمل الزّهرة والثّمرة. جدليّة الطّبيعة هذه تصلح، من باب أولى، لمستقبل البشر، ويرى فيها هيغل موضوع الصّفاء الفلسفيّ ذاته. التّفكير في الممكن، تحت ما هو كائن اليوم وفيه، هو أيضا مطلب الواقعيّة. إرادة مثل هذه للتّمييز لا علاقة لها بالامتثاليّة. على هذا النّحو، تحدث القدرة الفعليّة الّتي بحوزتنا، سواء لاستجلاء الواقع أو الفعل فيه. يجب فهم الحدود، ولا شكّ، فقد يستطيع بذلك تجاوزها. فأن يكون المرء واعيا بشروط فكر جليّ ومتطلّباته معناه أن يبني نفسه بنفسه باعتباره ذاتا، وصانع قناعاته ومبادراته.

سعادة أن يكون المرء هو هو، تماما، لا تكون حينئذ، دون أن يكتشف بأنّه يصنع الحرّيّة في ذاته. حرّيّة عتق أفكاره من حدود المعيش. حرّيّة تنفتح في مجال فعلها، وهي تكشف الممكن تحت سلبيّة الواقع الظّاهرة. حرّيّة تُخْتَبَرُ، بما هي قدرة على صنع الذّات، بالتّخلّص من كلّ ما يبدو سادّا للأفق، ومستعيدا لثقل الماضي.

التّحكّم في الذّات.

ينظر «ديكارت» إلى اكتساب هذا التّحكّم على أنّه تمرين منهجيّ. يتعلّق الأمر بممارسة نشيطة، لفكّ الرّباط بين مبدإ الرّوح والتّمثّلات أو الإدراكات الّتي تسلّط ضغطا عليها. هذا الرّعب الّذي ينتابني، ليلا، بفعل صرير باب، وهذا الهوس بخطإ ماضٍ نغّص حياتي، عليّ أن أنعتق من ذلك. وأنا قادر على ذلك باستعمال العقل. بمجرّد تحليل الصّرير، ومراجعة ظروف الخطإ المفترض، تتغيّر منزلة ما كان يشلّ قواي. عندما لم أعد خاضعا، أنا أفكّر، وهذه الحركة الدّاخليّة تسمو بي إلى درجة أعلى، ممّا كان يعذّبني. يمكنني حينئذ، أن أمرّ إلى شيء آخر.

لقد نزع «ديكارت»، إلى استبعاد كلّ فكرة عن مرض النّفس أو الاستحالة الوجوديّة للعقل، مقتنعا بالقوّة الطّبيعيّة للعقل الّتي عادت إلى ذاتها بمنهج سليم، ما عدا في فترة لافتة جدّا للانتباه من فترات تراسله مع «إليزابيت» البوهيميّة، الّتي كان يناقش معها الرّابط بين الحرّيّة والحياة الانفعاليّة. مراسِلته الشّهيرة، بفصاحتها المعهودة، وجّهت له ضربا من الاعتراض من جنس مادّيّ، أين ترجع إلى الحالات الّتي تمنع من الاستعمال الحرّ للعقل، وحتّى منع مولده. ردُّ «ديكارت»، يشبه تراجعا في صيغة تضييق له تأثير مصيريّ، يقول: «مثلما كان الأمر عندما تحدّثت عن طمأنينة ترجع برمّتها إلى حرّية الاختيار، الّتي يمكن لكلّ إنسان اكتسابها، دون عون من أحد، تلاحظين جيّدا أنّ ثمّة أمراضا، بنزعها القدرة على التّفكير، تنزع أيضا القدرة على الاستمتاع برضا عقليّ؛ وهذا يعلّمني بأنّ ما كنت قد قلته عموما، عن كلّ البشر، لا يجب أن يفهم إلاّ من قبل من يمارسون نشاط العقل بحرّيّة.» (مراسلة «إليزابيت»، رسالة 1 سبتمبر 1645)[1]. نلاحظ في مستوى الكلمات المسطّرة («كلّ النّاس») أنّ **الكونيّة المبدئيّة** (الإنسانيّة والحرّيّة تستتبع إحداهما الأخرى) ولا يترجم ذلك إلى **كونيّة فعليّة**، بما أنّ البشر، وهم على الدّوام كذلك، يمكنهم أن يحرموا فعليّا، من الاستعمال الحرّ لعقولهم. والاضطرار موضع النّظر ليس إذن، **خارجيّا** (كما هو الشّأن في حالة ممنوع سلطويّ، أو حتّى اشتراط). إنّه **داخل** الوعي نفسه وهكذا، فإنّ حضور الذّات الإتيقيّة إلى نفسها، ليجعل هذه الذّات قادرة على اختيار طريقة وجودها وحياتها، ليس معطى من الوهلة الأولى، أو هو ليس معطى بشكل دائم. يجب إذن، التّفكير هنا في الشّروط وفي الحدوث، على المستوى الاجتماعيّ، كما على المستوى النّفسيّ، وأخيرا على المستوى الفكريّ. مع ذلك، فإنّ غموض التّشخيص لا بدّ أن يؤخذ بعين الاعتبار. فـ«ديكارت»، وهو يفكّر في انفعالات النّفس، ينزع إلى إعطائها منزلة شيء يحدث للنّفس (بفعل اتّحادها بالجسد)، لكنّه يميّز هذا المقام الخارجيّ مرّات عدّة، مع التّأكيد على أنّ الوحدة الجوهريّة للنفس والجسد تكوّن «شبه كلّ واحد». إنّ النّفس تحسّ داخليّا على شاكلة تفكيرها في ما «يحدث» لها : الألم الّذي يحسّه المرء، عندما يصاب بجرح، ليس مجرّد ملاحظة شبيهة بملاحظة ربّان سفينة، عندما ينتبه، مثلا إلى أنّ القلاع ينكسر («ديكارت»، **التّأمّل الميتافيزيقيّ** السّادس).

1- Descartes, *correspondance avec Elisabeth, lettre du premier septembre 1645*, Garnier Flammarion, p. 124

إذا كان «الأنا»، بما هو ذات عاقلة - وعاطفيّة - يُكوّن مع الجسد واحدا، فإنّ الإبقاء على تمييزه ليس معناه اعتباره ملكة مستقلّة، ويمكن فهمه على أنّه علامة دالّة على وظيفة للفكر، من بين أخرى، مرتبطة به، دون أن تختلط معه (من قبيل الرّغبة والشّعور مثلا).

هل كان «ديكارت»، وهو يجيب إليزابيث، يتصوّر أنّ هذه الوظيفة يمكن أن تتغيّر في علاقة مع الحالة العامّة للكائن ؟ (وليس فقط لحالة الجسد، بما أنّه لا يحدّد نوع المرض الّذي يمكن أن يصيب الاستعمال الحرّ للعقل). إنّ رفضه لكلّ شكل من أشكال الوصاية على الحكم قاده للتّأكيد بإصرار، على الطّابع اللّا منفصم للإنسانيّة والعقل. هذا العقل، مبدأ الحرّيّة لا يمكن أن يكون، في نظره، إلاّ منيعا. تأكيد كهذا مفهوم، ولا شكّ، بعد عدّة خطابات لاهوتيّة حول العجز الإنسانيّ، وتعويضه الضّروريّ بسلطة تعلو عليه. في نفس الرّسالة، يدفع «ديكارت» بتحديد هوّيّة الإنسانيّة، والعقل والحرّيّة، إلى أبعد ما يكون إلى درجة جعلته يكتب: «نحن لا نستطيع الإجابة مطلقا عمّا نكون نحن، إلاّ أثناء ما نحن عليه، إزاء أنفسنا، وإنّه لأخفّ على المرء أن يفقد حياته من أن يفقد عقله.» (رسالة 1 سبتمبر 1645 واردة في ص 134). «ديكارت» يلامس هنا دعوة النّظريّة الرواقيّة للانتحار الّذي يقال إنّه عقليّ: هل تستحقّ منّا الحياة عناء عيشها، إن لم نستطع التّحقّق فيها، بما هي حياة إنسانيّة جديرة بهذا الاسم ؟ الحقّ في الموت بكرامة، أي حضور الوعي إلى ذاته، هو لازمة التّعطّش إلى السّعادة، ممّا يجعلنا نحبّ الحياة، لكنّنا لا نتوافق مع أيّة حياة كانت. بهذا يفتح «ديكارت» أيضا طريقا جديدة سيستعيرها من «سبينوزا»، فما كان يعتبره وضعيّة قصوى ليس إلّا، علينا أن نرى فيه سلبا، فعليّا استثنائيّا، بما هو حالة عادية. تلك حال النّاس الّذين آل أمرهم إلى نظام هذيانيّ من الخوف والتّطيّر وتقلّبات النّفس الّتي، وإن لم تتعلّق بما هو مرضيّ، تشهد على وضعيّة مّا، دون بشريّة، إن جاز القول. بالنّسبة إليهم، كما هو الحال بالنسبة إلى كلّ البشر، درب التّحرّر يدعو إلى التّفكير وإلى وضعها موضع الإنجاز.

الدّرس التاسع

فضيلة الملذّات

«مبادئ من أجل عيش هنيء»

علـى هذا النّحـو، أراد «أبيقور» نعت التّعاليم الّتي اسـتخلصها من فلسـفته، الموجّهة نحو ما يسـمح بالبهجة والهدوء معا، في رسـالته إلى مينيسي. فهو يرجع أمر اسـتعمال العقل إلى الإنسـان ليحدّد اختياراته. ويجب الانطلاق ههنا، ممّا هو موجود، ومن مألوف تجربة مشتركة. لا يمكن للحياة أن تتملّص، منذ البدء، ممّـا يعرض في الحياة اليوميّة المضطربة، مصدر التّوتّرات والأحزان. ومع ذلك، نرصد فيها بيسر، لحظات طيب العيش ومصادره.

المتعـة... يومـئ اللفظ إلى كلّ سـجلاّت الوعـي ومغامراته. متع الجسـد العذبـة والقويّة، المكثّفة اللّطيفة، في تماسّ مع الإحسـاس والانفعال. ينسـاب الماء بطيئـا وعذبا في المنعرجات العارية، وتختلج المداعبة اسـتجابة إلى اليد الّتي ابتدعتها، تنزلق الثّمرة بين الشّـفاه، وتنحني الشّـمس الهاربة من السّحب، على كلّ حركـة. إنّها مباهج، ومتع جديدة، وضروب مـن اللّطف المألوف. متعة الاتّحاد والانصهار، حرارة حميمة ولمسـة في ارتعاشـات تمزج [المشاعر] وتهيّجها. متعة النّفس، تنفتح وتسـتقبل، تهتزّ في الكلمات، وتتفسّح داخل ذاتها. إنّها متعة الأفـكار الّتي يجـاوب بعضُها بَعْضًا، والمعارف التي يكشـف بَعْضُهَا البعض الآخـر. إنّها متعة الحياة الدّاخليّة، وقد انعتقت من المكان والآن. إنّها متعة حلم وذكرى ممتعة، أمل وَعَوْدٌ إلى الطّفولة، وابتسامة مرسومة في الذّاكرة ومشروع

يتمّـم حدوده. متعة الحنين إلى البحث عن المطلق، عـن جنّة داخليّة، وعن عمل متحمّس، وعن فسحة مع الصّديق، عن حفل مهيّئ له، عن صباح يوقف الزّمن للاستمتاع به. متعة لقاء ووقفة فجئيّة، أمام منظر طبيعيّ أو لوحة خارج الزّمن.

ثَمَّـة طُمأنينة؛ ثمّ عذاب اللّذة. إنّ التّتابـع لغريب وطيّب المذاق، في الغالب. الذّاكـرة مزيـج يبقيهما تحت نظره. فهل سـنلقى فيهما من جديـد البحث عن السّـعادة؟ ترجّح. وجـود اطمئنان لا نهائيّ. لن تكون لـه على الإطلاق ألوان الحياة. ولكنّ وجهة موسومة باستمرار، بإعصار الملذّات، لن يكون لها معنى، ولا شكّ. إنّ اللّحم، وقد فاجأه الألم أو المتعة، أو الوعي المجروح، أو المترع، أو الرّغبة المستطابة في حضن الصّمت، لا تمثّل إلاّ شهادات مبعثرة. يسلّم المرء نفسه لاختراقات المتعدّد. المرء حاضر في ذاته، رغم زَهْوِه، فهو ينساق إلى ذاته، انسياقه إلى مكان آخر، غير ذاته. في الانتظار الحائر، وفي عاطفة متوقّدة لسـحر حاضر، رغم كلّ شيء، [يطرح السّؤال] كيف نعيش ؟ وماذا نفعل؟

يعرّف ‹أبيقور› الفلسـفة بما هي «نشـاط يجلب لنا الحياة السّعيدة، عن طريق الأقوال وضروب مـن البرهنة». (المرجع سيكستوس أمبريقوس، **خطاطات بيرونيّـة**)[1]. إنّ غايـة الحياة هـي بالتّأكيد، السّـعادة، غاية لم تتّضـح، في البدء، حدودهـا. يجب اللّجوء، حينئذ، إلى ما هو منزّه عن الشّـبهة. المتعة هي، في الآن نفسه، مبدأ الحياة السّـعيدة ومقصدها الثّابت. يعلن ‹لوكراس› عن معاينة هي بمثابـة برنامج. والصّيغة اللاّتينيّة لهذه العبارة جميلـة : «Voluptas dux vitae» «اللّذّة مرشـد للحياة» (**في الطبيعة**)[2]. **رسـالة إلى مينيسي** كانت قد دقّقت معنى وجه من وجوه الثّقة في صيغة دعوة: «نقول إنّ اللّذّة (hédonen) هو مبدأ الحياة السّـعيدة ومنتهاها.» فإذا كانت فلسفة السّعادة الأبيقوريّة بالإغريقيّة أوديمون (eudaimon) هي فلسـفة المتعة، وإذا كانت السّـعادة مبنيّة على اللّذّة، وتجعل منها مِحكّها، فهذا يعني أنّ الطّبيعة تعلن عن ذلك بنفسـها بوجه من الوجوه، بتبجيلها الإحسـاس. «وحتّى يبرهن عـلى أنّ المتعة غاية (télos)، يعتمد ‹أبيقور› على واقع الأحياء الّذين، بمجرّد أن يولدوا، يستمتعون بالحياة ويكرهون الألم،

Sextus Empiricus, *Esquisses pirrhoniennes* 169 V. -1

Lucrèce, *De la Nature*, II, 172.-2

وهـذا بالطّبيعة، ودون أيّ خطـاب» (**ديوجـان الـلاإرسي**[1] Diogène Laerce). الأبيقوريّـة هـي بالتأكيـد، مذهب طبيعيّ، مـن جهة أنّها تبحـث عن تعديل التّصرّف في الحياة، بناء على نزعات صريحة وشرعيّة تماما وطبيعيّة.

القاعدة الأولى هي ألاّ تؤجّل أبدا ساعة الاستمتاع بالسّعادة : « لقد ولدنا مرّة واحدة، ومن المسـتحيل أن نولد مرّتين، وسوف لن نكون خالدين أبدا: أنت، مـع ذلك، يا من لسـت ابن الغد، تؤجّل الفرح : الحيـاة تذوي بالزّمن، وكلّ واحد فينا يموت، وهو مشغول» (الحكمة الفاتيكانيّة 14). لقد انتبه الشّاعر إلى الدّعوة المتضمّنة في جمال الأشـياء، فإذا به يحمل المشعل على الفيلسوف، ويقول: «السـعادة في المرج. لنركض سريعا، ههنا. لنركض سريعا ههنا. السّـعادة في المرج. لنركض سريعا ههنا. إنّها ستغرب عنّا.» ‹بول فور› (Paul Fort)[2].

السّعادة باللّذّة

مبـدأ اللّـذّة حيـويّ، بالمعنى الحرفيّ للكلمـة. إنّه في قلب حيـاة مكتملة وسـعيدة. إنّه في عمليّة البحث عن طيـب العيش والاكتمال. نبحث عن اللّذّة، بما يسـمح بالاسـتمتاع بالحضور في العـالم، دون عذاب ولا ألم. الآتاراكسـيا (*ataraxia*) هي حالة النّفس، دون اضطراب. والآبونيا (*aponia*) هي حالة البدن، دون ألم، يفتحـان على الحـركات اللّطيفة للملذّات المتعـدّدة. وفي المقابل، فإنّ صيـغ الوجود هذه، تجذب هنا مـا يدعمها. هذه الجدليّة هـي جدليّة الحكمة السّعيدة. طالبة للّذّة وجالبة لها، رصينة ومصرّة على العيش بتمام. الوجود يؤكّد توازنه، فيصبح جُدّة نشيطة. سنستمتع بأنفسنا وبالعالم، بالحنان والصّداقة، بالنّور الّذي ينقل سرّ الظواهر، وأشياء أخرى كثيرة، أيضا.

عندمـا يتوفّر البدن على ما هو ضروريّ، وهو يسـيرٌ في آخر الأمر، يسـتمتع بتـوازن، هو مصدر الطّمأنينة وطيب العيش. يقول ‹أبيقور› إنّ لذّة الوجود بنّاءة (*catastématique*). إنّها تتوافق، في الوقت نفسـه، مع تحقّـقِ أقصى للذّات والرضا

1- Epicure, *Diogène Laerce*, livre X, 37.

2- ‹بول فور›: شـاعر فرنسيّ ولد في 1 فيفري سـنة 1872 وتوفّي سنة 20 أفريل 1960. شاعر فرنسيّ أسّس مسرح الفنّ ونظم أشعارا لحّنت وأصبحت أغاني معروفة.

الّذي يرتبط بذلك. فرح، من هذا القبيل، أساسيّ، وهو استمتاع أكثر دواما وعمقا من «الملذّات المتغيّرة» الّتي تنتج يوما بيوم. وهو لا يتعارض معها على الإطلاق، وإنّما يسمح لها في المقابل بالبروز. إنّ لذّة الحياة هي استعداد أساسيّ يسمح باستقبال مختلف الملذّات والإحساس بها في كلّ ما تجلبه. إنّها تتغذّى ههنا، داخل تفاعل خصيب: إنّ هذه الحلقة المفترضة لتؤسّس فنّ حياة بديع يسمح بتقويم السّكون والحركة، التّوتّر والارتخاء. إنّها تطبع الشّخص تماما بختمها الخاصّ في أعماق أعماقه.

وهذا يعني أنّ حرّيّة من يشعر باللّذّة هي شرط سيادته التّامّة على ذاته، وهي شرط استقلاليّته. إنّه ليس عبدا للرّغبات الّتي تضغط عليه وتلحّ، الرّغبات الّتي تتملّكه وتعذّبه. إنّه ينعم بامتلاء واكتمال يسمّيه الإغريق أوتاركيا «autarkeia». حالة اكتفاء ذاتيّ مثل هذه، هي شبه ربّانيّة، إذ قلّما يكون الإنسان متحرّرا من كلّ تبعيّة خارجيّة. إنّ الاكتفاء الذّاتيّ، موضع النّظر، لا يؤدّي بتاتا إلى الأنانيّة، لكنّه يسمح بتخليص الأفراد من أيّة تبعيّة، ويفتح السّبيل إلى التّأكيد الحرّ للصّداقة (*philia*). «تسافر المحبّة حول العالم، وتدعونا جميعا، لكي نستيقظ من أجل حياة سعيدة» (**أقوال أبيقور**)[1].

«أبيقور» ليس بعيدا كلّ البعد عن الفلاسفة القورينائيّين (cyrénaïques) الّذين «لم يخجلوا من وضع الخير الأسمى في المتعة التي تحرّك الحواسّ بأقصى قدر من الحلاوة، مع إهمال الآخر، وغياب الألم». («شيشرون»، **في غايات الخيرات والشّرور**)[2]. إنّ الفرح (*cara*) والغبطة (*eufrosune*) اعتُبرا متعتين متحرّكتين، تساهمان في السّعادة، منذ أن يعرف الحكيم كيف يستعملها بفطنة، أي أن يدعم حرّيّته وتأكيده لذاته. إنّ الفكرة الأساسيّة هي أنّ الامتلاء لا يمكن أن يستشعره المرء، إلاّ في غياب الاضطراب : إنّه يمنح حينئذ، إحساسا عظيما بطيب العيش. هو امتلاء يسير جنبا إلى جنب مع الحكمة العمليّة. وهكذا، لا يحصل المرء إلاّ على ما قصده بحقّ، لا على أثر غير مرغوب فيه لذاته.

1- *Paroles d'Epicure*, 52, Hermann, Paris, 1965, page 130.

2- Cicéron, *Des fins des biens et des maux*, II, XIII, 39.

لقد انتبه «ديكارت» جيّدا إلى معنى الإتيقا الأبيقوريّة للّذّة، وقد أزاح بوضوح، أشكال سوء الفهم الّتي استطاعت أن تكون موضوعا لها : «لم يكن «أبيقور» على خطإ، عندما اعتبر، وهو يبحث في الطّمأنينة وفي مسبّباتها أو الغاية الّتي تنزع إليها أفعالنا، أن يقول بأنّه الانتشاء بوجه عامّ، أي رضاء الرّوح : إذ، على الرّغم من أنّ معرفة واجبنا وحدها يمكن أن تضطرّنا إلى فعل أشياء جميلة، فإنّ ذلك لا يجعلنا، مع ذلك، نستمتع بأيّة طمأنينة، إن لم يجلب لنا ذلك أيّة متعة» (إلى «اليزابيت»، 18 أوت 1645). ولقد لاحظ «ديكارت»، في نفس الرّسالة، أنّه لا يمكن الخلط في هذه الإتيقا بين الانتشاء وتمجيد والفجور، إذ أنّ العقل البشريّ يسعى إلى التّمييز الجيّد بين المتع الحقيقيّة والمتع الزّائفة. وهذه حجّة ثمينة لتعرّف المتع المريرة، وخاصّة تلك الّتي تصاحبها الاضطرابات والشّرور. هي حجّة تعمل على منع اجتياح الكرب للحياة، فيغيب فيها الهدوء.

حساب الملذّات.

أمّا في خصوص مطلب الاعتدال في علاقته بالمتعة، فإنّه يقوم في الشاغل الوحيد، ألا وهو تجنّب الألم. ففي كلّ مرّة يحدث الألم، والحال أنّه غير مرغوب فيه بداهةً، يدلّ ذلك على ضرب من العَمَى. فمن يشرب حتّى الثّمالة فيمرض، يتألّم أكثر ممّا يستمتع. إنّ معرفة الذّات، وتحديدا معرفة حدودها الشّخصيّة، هي ما يجب أن ينجم عنها التأقلم مع الاعتدال. لا يتعلّق الأمر إطلاقا هنا بمحاكمة أخلاقيّة للفجور والإفراط، وإنّنا بهذه الملاحظة البسيطة الّتي لم نعرف كيف نقوم بها، لكي لا نجني من ذلك سوى المتعة لا نقيضها. إنّ الأيّام الّتي تعقب الأفراح تكون، في بعض الأحيان، عسيرة، عندما يستفيق المرء، وقد أخذت منه الآلام التي لم تكن مقصودة لذاتها مأخذها، وإنّما كانت نتيجة حتميّة للإفراط في السّهر. يفترض تجنّب الألم احتفاظ الذّاكرة بما يمكن أن يجلبه الإفراط، قصد إنارة التّصرّف فيها، مع البقاء على استعداد لقبول قيمة اللّحظة. إنّ التّخمّر في المتعة الّذي يمكن أن نسمّيه مذهب المتعة الجامحة، ليس خطيئة، بل، إن جاز القول، هو خطأ منهجيّ. لذلك، فهو لا يستدعي إطلاقا محاكمة من جنس أخلاقيّ.

انهمام الذّات بذاتها (*epimeleia heautou*) يؤدّي إلى تمارين، هي بمثابة تقنيّة لتعلّم الاستقلال، إزاء تقلّبات الحظّ، إنّه «فنّ الكينونة» (*technè toubiou*). فالمأثور العاديّ، الذي هو أيضا صيغة صداقة، هو معروف جدّا: «اهتمّ بنفسك»، وهو يتماشى مع مأثور آخر، شهير، منذ ‹سقراط› : «اعرف نفسك بنفسك». معرفة من هذا القبيل، مُسيَّرة وموجّهة توجيها جيّدا، من داخل كلّ شخص، هي الشّرط العقلانيّ لتأسيس الاهتمام بالذّات. إنّها تستهدف بالفعل الكائن الفرديّ، وهذا مهمّ للتّحكّم في الملذّات الّذي نسمّيه رصانة (بالاغريقيّة *sophrosuné*). علم كهذا، لا بدّ له أن يجمع بين معارف عامّة، وذاكرة شخصيّة، وتجربة حميمة، وتحيّن للفرصة، ووضوح للحالة الرّاهنة : وبإيجاز، لا شيء فيه مجرّد، ولا بدّ أن ينغرس في الملاحظة المتنبهة. في هذا العلم، ولاشّك، شيء من الحساب، لكن فيه أيضا بعضا من الحدس الأكثر مباشرة، والأكثر صفاء، والأقلّ تأثّرا بتلاؤمات واتّفاقات اللّحظة. لا يمكن لأيّة امتثاليّة دنيويّة أو أخلاقيّة، حينئذ، أن تكون ملائمة على الإطلاق. فإذا كنْتُ أعرف بالتّجربة، على سبيل المثال، أنّه، في فترة التّعب الشّديد، لا أستطيع أن أشرب الخمر، دون أن أعرّض نفسي إلى آلام رأس عنيفة، فإنّني سأمتنع [عن الشرب]. وفي المقابل، إذا كانت حالتي الجيّدة تسمح لي بذلك، دون مجازفة، إلى حدود كأسين كبيرين، فسأكتفي بهذا القدر: سأتمتّع، على هذا النّحو، كلّ المتعة الممكنة، بشرب هذا الخمر، وسأتجنّب الألم الّذي يجعلني أندم على المتعة ذاتها، في حال الإفراط. حساب المتع هو حساب من يُقبل على متع الحياة، لكنّه يعرف كيف يكون صارما، أو يكون ببساطة رصينا، لا بفعل وصيّة مجرّدة أو أخلاقويّة، ولكن بفعل وضوح [النّظر].

ولكي نضرب مثالا على ذلك، يمكن أن نذكر تجارب التّعفّف الّتي كان يمارسها أتباع ‹أبيقور› والرّواقيّون على حدّ السّواء. فبالنسبة إلى الفلسفة الأبيقوريّة لحساب المتع، كان الهدف منها بيان تحقيق المتعة التّامّة بالتّلبية الرّصينة للحاجات الأساسيّة، ولا يحتاج الأمر إلى أيّ شيء من ضروب الرفاهة الرّفيع والكماليّ. لم يكن يتعلّق الأمر باستبعاد كلّ طعام رفيع، بل بجعل الطّموحات العاديّة في المستوى الأفضل، لتحقيق استقلال حقيقيّ. «لا شيء أكثر من اللّازم» هي إذن، النّصيحة المعقولة. يمكن بهذا تلافي الإحباطات

الّتـي لا تفتـأ في الظّهـور، عندما يتعوّد المـرء على وفرة مجحفـة، إلى أن يأتي يوم يجد المرء نفسـه غير قادر على تحقيق اكتفائه. يذكر سـينيك في الرّسـالة 18 (الفقرة التاسـعة)[1] أنّه كان يحدث لـ«أبيقور» أن يقلّص، بمحض إرادته، نصيبه مـن الطّعام، ليعرف إلى أيّ حدّ يقلّص ذلك من المتعة. أمّا عن الرّواقيّين، فإنّهم كانـوا يريدون التّدرّب على كلّ حرمان، وتشـجيع الفكر على نبذ كلّ ما يكتسب قيمة، بمجرّد حكم ما يتّفق عليه الرّأي والعادة، وحتّى بفعل أحكام مسـبقة متداولـة. إنّ الفكرة القويّة هي أنّ الحكيم لا يمكن أن يخسر شـيئا أساسيّا، إذ هو يحتفظ به في ذاته، إن استطاع البقاء حرّا، بإلغاء فرص التّبعيّة، قدر الإمكان. إنّه علاج جيّد، ضدّ الاغتراب المعاصر المتمثل في الإشـهار. فلكي يتجنّـب المرء أن يكون تعيسـا، لكونه لا يملك متاعـا لم يكن عنده، ولو حتّى فكرة في هذا الصّباح، يجب أن يعرف كيف يتذكّر بأنّ بعض الملذّات لا وجوب لها تماما.

إيروس والاهتمام باللّذّة

يبقى الشّـكل الآسر والأسـير للّذّة الّتي يسـعى البحث عـن الملذّات إلى صيانتها. فـ«سقراط»، في نظر «كسينوفون»، كان يؤكّد على دور تصاعد اللّذّة لتبليغ الإحساس بالمتعة إلى منتهاه: «الجوع والعطش واللّذّة الجنسيّة الأفروديسيّة الأبيتوميّـة (*aphrodision epithumia*) وحـالات السّـهر، هي الأسـباب الوحيدة للمتعـة الحاصلة لنـا بالأكل والشرب وممارسـة الجنس والاسـتراحة والنّوم، عندمـا نكون قد انتظرنا هذه الحاجات وتحمّلنـا، إلى حين أصبحت التّلبية، في ذاتها، ممتعة بقدر ما هي ممكنة». (**أقوال خالدة**)[2].

إذن، فحـبّ المتعة هو أيضا، بمعنى مّا، حبّ اللّذّة. لقد كان «أوغسـطين»[3] يصف ما تضطلع به المخاطرة بالعيش، بما هي توتّر سعيد، ومصدر للمتع المأمولة على أنّها، بالأحرى، عبوديّة داخليّة. إنّنا نرغب أن نرغب، ونحبّ أن نحبّ. لقد كان يقـول عن حيـاة المتعة واللّذّة الّتـي كان يحياها، قبل تحوّلـه الدّينيّ إنّها

1- Sénèque, *La Lettre*, 18 paragraphe 9.

2- *Mémorables*, IV, 5, 9

3- «أوغسطين» Augustin

«*Amabam amore*». يعارض المسيحيّون بين الاندفاع الممتع للّذّة الإيروسيّة، وبين الحبّ، وقد تخَلّصَ من العواطف [الحسّـيّة] للبدن، وتنـزّه عنها، بهذا المعنى، في نظرهم تماما، فيسمّون ذلك آغابيا (*agapè*). إنّه حبّ، دون شرط، يعطي دون أمل في الأخـذ، وهو يتناغم لا مع المتعة، وإنّما مع الطّمأنينة الأخلاقيّة ورضا النّفس. إلاّ أنّ نفـس الحرّيّة يمكن بلوغها بتقاسـم الفرح، وتـزداد بتزايد الوعي بهذه القسـمة. إنّ المتعة الجنسيّة تغتني بالحبّ الّذي نكنّه للآخر، أو ببساطة، برغبتنا في جعلـه يسـتمتع، والاتّجاه إليـه، بما هو كائن راغـب. لا يمكن للأخلاق، حينئذ، أن تعترض على أن يكون الإيروس اسـتحواذا مهتمّا، واختزال شخص في مجرّد وسـيلة. إنّ متعة المداعبة، الخارجيّة والدّاخليّـة، تكتمل في اللّقاء الحرّ بين جسدين، وحتّى بين قلبين، إنّها تمزج الوعيَيْنِ اللّذين يتبادلان الانتباه، ضمن عاطفة تزداد بها أضعافا مضاعفة.

يذكـر «أفلاطون»، في المأدبة، أنّ الرّغبـة في الحبّ، بما هي وعي بنقص، هي استحواذ متخيّل على جسد الآخر. إيروس هو الرغبة الجيّاشة في الآخر، والتّوتّر النّابـض في الاجتماع به، والتّمتّـع بالاتّصال به، والدّافـع الاندماجيّ المؤدّي إلى أن يكونا معا، شـخصا واحدا لا غـير. إنّ المتعة المكثّفة للاتّحاد تُسْـبقُ، هي نفسـها، في تمثّل ما يجـذب، وفي التّوتّر الّذي يحرّك، حينئذ، الشـخص بكلّ جوارحه. وبإيجاز، تُسْتَبَقُ المتعة في الرّغبة، لذلك فالوعي بالنّقص، يكون، على نحو مفارق، لطيفا، نسـتبقيه إلى حدّ تمجيده. إنّ الجماع المرغوب فيه يحلم به المرء آلاف المرّات، ويدور حول نفسـه في تغيّرات لا نهائيّـة للمخيّلة، قبل أن يتحقّق فعليّـا، وهكذا تنتـشر كلّ متعة التّمثّل، في طراوة الحياة الدّاخليّة. سـيضيف «ديكارت»، أنّ هذه المتعة الأصيلة امتاز بها كائن قادر على التمثّل، لَتَشْهَدُ على الحرّيّـة الدّاخليّة، الّتي تتيح مَنح المرء لنفسـه الفرصة لكـي يتأثّر بما يلاطف، ويسـعد في الأوقات الحرّة، دون أن يكون سـجينا، كما هـو الحال عند البقاء تحت وطـأة انفعال مّا. وسـيؤكّد «كانط»، في وقت لاحـق، وضمن منظوريّة إضافيّة، دور ورقة التّين الّتي تسـمح «بجعل الميل أقوى وأدوم باستخراج مادّتها للحـواسّ». (فرضيّات حـول بدايات التّاريـخ)[1]. هنا، يفعل الخيـال في الرّغبة

1- Kant, *Conjectures sur les débuts de l'histoire*.

ويضاعفهـا أضعافـا، وهو يلعب لعب التمثّل الحرّ لموضوعـه، الّذي يزداد قيمة ورغبة فيه، بقدر ما نجعل منه صورة.

الحـبّ انفعـال. إيروس، يحيـاه المرء بما هو رغبة إيروسـيّة، وهـو متميّز عن الإحساس بالأريحيّة المتحرّر من أجل الآخر، الفيليا (*philia*)، وهما غير متناقضين بالضّرورة: فالاسـتمتاع باللّحم الحيّ ليس فيه إثم، منـذ اللّحظة الّتي يُعْتَبَرُ فيها طبيعيّـا، مثـل الأكل والشّرب. هذا مـا كان يريد التّعبير عنه، ولا شـكّ، استفزاز ديوجين الكلبيّ، لمّا كان يستمني بالسّاحة العموميّة، مردّدا إلى كلّ من كان يريد الاسـتماع إليه بأنّ المتعة الجنسيّة لم تكن أقلّ طبيعيّة من الأكل والشّرب ولم يكن، ثمّ، من يُصدم برؤية شخص يأكل على مرأى من الجميع.

الحـبّ، بما هـو وعي بالنقصـان، يتجاوز المحدوديّـة الفرديّة. إنّه يسـتدعي الإنسانيّة إلى نمط تحقّقها الخاصّ بها. إنّ أسطورة البدائيّ المخنّث – المخلوق عديم الجنـس، أو بالأحرى، الغنيّ بصفات كلا الجنسـين – يعطي للحبّ الانفعاليّ المعنى الميتافيزيقيّ، لبحثٍ عن وحدة ضائعة: المخنّث منشطر إلى جزأين، حسب إرادة «زوس»[1] (Zeus)، هـو بمثابة رمز ومرجع اكتمال. تضع الخرافة الإغريقيّة في هذا البدائيّ المخنّث (الرّجل – المرأة، حسـب ما تعنيـه الدّلالة الحرفيّة) قوّة بدئيّة لم يكن يستطيع ربّ الرّبوب إلاّ أن يمتعض منها.

إنّه يجمع بين الوجهين الأساسـيّين للحياة، وصفاتهـا المتبادلة : فمبدأ الأنوثة ومبـدأ الذّكـورة منصهـران، حينئذ، في بداهـة واقع طبيعيّ. فبعـد أن كانا مفترقين بإرادة «زوس»، يلجأ الكائنان باستمرار إلى العودة، كلّ منهما في اتّجاه الآخر، وكأنّهما مسـكونان [بهاجس] الوحدة الأولى. متشـابكان إلى حدّ لا يبدوان فيه إلاّ واحدا، يجسّمان امتلاء وجود قويّ، يكتفي بذاته.

إنّ حبّ عشـيقين منفصلين يهدف دائما إلى إعادة تشكيل هذا النّموذج، أين تمّحي كلّ مسـافة. إنّه يُعاشُ على أنّه ضرب من الوعد الرّبّانيّ، لكي يمتدّ في

1- «زوس»: ملـك الآلهـة في الأسـاطير اليونانيّة وهو ملك السّماء، يُرمز إليه بالنّسر وبـرق الصّاعقة. هو ابن كرونس Chronos وريا Rhéa، تزوّج أخته هيرا Héra، وهو أب للعديد من الآلهة والأبطال.

الماوراء، أو في ذاكرة البشر، كمثال عن وَجْدٍ لا يُهدَمُ. لقد اتجه «هيفايستوس»[1] (Héphaistos)، حسب «أفلاطون»، إلى العشيقين بهذه الكلمات: «ألم يكن أملكما أن ينصهر أحدكما مع الآخر في كائن واحد، على نحو يجعلكما لا تفترقان عن بعضكما البعض، نهارا ولا ليلا؟ وإذا كان هذا ما تأملانه جيّدا، فأنا أوافق على صهركما معا، وتحويلكما إلى كائن واحد، بشكل يجعل منكما أنتما هذين الكائنين الآن، فتصيران واحدا...» (المأدبة). لقد عبّر «ديكارت» عن شيء من هذا الإحساس بالنّقصان: «مع الاختلاف في الجنس، الّذي وضعته الطّبيعة في البشر، وفي الحيوانات أيضا، دون موجب، فإنّها وضعت أيضا بعض الانطباعات في الدّماغ، تجعل المرء يعتبر نفسه، في سنّ معيّنة، وفي وقت مّا، على أنّه مَعِيبٌ، وكأنّه لم يكن سوى نصفٍ لكلٍّ، أين يكون شخص من جنس آخر، يجب أن يكون الشّطر الآخر: بحيث يكون اكتساب هذا الشّطر متمثّلا بالتباس من الطّبيعة، وكأنّه الأعظم من بين الخيرات المتخيّلة» (**انفعالات النّفس**)[2]. ويضيف «ديكارت»، بمكر، أنّ الطّبيعة لا تجعلنا نتصوّر، على الإطلاق، بأنّنا نحتاج إلى أكثر من شطر».

البحث عن المطلق

«أفلاطون»، وهو مشغول، في البدء، بتجاوز الفناء البشريّ نحو المطلق، لم يكن ينوي أن يضع في الحسبان الرّغبة وتلبيتها مصادر للمتعة، فتكون لهما، تحت هذا العنوان، قيمة في ذاتها، ولا حاجة لها بتبرير من الخارج. لقد بحث، بالأحرى، لجعل الإيروس وسيلة للانتقال إلى الجمال المطلق، ذلك الّذي يتعالى على كلّ موضوع جميل، سواء تعلّق الأمر بأثر فنّي جميل، أو بجسد جميل أو بنفس جميلة. إنّها تجارب قويّة، علينا بتجميعها في ما يدمجها، لكي يتجاوزها، في هذا المطلق الغريب الّذي ينكشف في الأشياء، دون أن يكفّ على أن يكون هُوَ هُوَ. إيروس أسير يطلب الخلاص، في صعود يؤدّي إلى المطلق. تجاوز كهذا يختزل كلّ تجربة للجمال، وما يوافقها من استمتاع، إلى مجرّد مرحلة. يمكن أن نلاحظ، ههنا، أنّ تجربة المتعة عينها، تسمح ببلوغ حدّ من المطلق، بطريقة

1- «هيفايستوس»: إله النّار والحدادة والبراكين في الأساطير الإغريقيّة، يُرمز إليه بالحدّاد الأعرج ولكنّه مبدع العجائب والمخترعات الصّناعيّة.

2- Descartes *Les Passions de l'âme*, 90.

الوجود الّتي توحي بها إلى الإنسان الّذي يستمتع بذلك، بل وتحقّق هذا المطلق. هذا ما تؤكّده الفلسفات الّتي تجعل من المتع غاية لذاتها، وواقعا فعليّا للسّعادة. لكنّ ‹أفلاطون› لا يقول ذلك، إلاّ من منظور المتعة الوحيدة في نظره، الرضا الّذي يجلبه الجهد في إدراك المطلق.

جهد مثل هذا نعثر عليه في «هذيان العشق»، هكذا سمّاه ‹أفلاطون›، لأنّ ضربا من الحماسة المجنونة تنتزع العاشقيْن من الواقع المباشر، وتحملهما نحو الخير المطلق، بوساطة إلهة الحبّ، ‹أفروديت›[1]. العشيقان، وقد التحم أحدهما بالآخر، وصعدا نحو المطلق، «لقد أرادت لهما الآلهة السّعادة القصوى.» (**فيدوروس**)[2].

سعادة الاعتدال. وسعادة الإفراط والتفريط. الإفراط والعيب ليسا مذمومين لذاتهما، إذ أنّ هاجس الحدود لا معنى له، إلاّ بالنّظر إلى ما نريده حقيقة. لماذا يجب الحدّ من الفرح أو من المتعة، والتّراجع أمام أوامر رصانة مجرّدة، في كلّ الأحوال؟ إنّ اختراق حدود الآنيّ والوضعيّة، هو جزء من الأفراح. إنّ تجربة الانصهار للحبّ، والضّحك، ملء الشّدقين، دون حدّ، وتكرار المتعة إلى حدّ الإنهاك، تحمل الكائن إلى تخوم ذاته، فإذا بضرب من تجربة الّلانهائيّ تأتي لكي تسكنه. فيسلّم نفسه، حينئذ، لكي تخترقه ضروب من الفوران وحالات السّكر. إنّه ينقلب ويستسلم للسّلب، لكي يستيقظ، لاحقا، في حنين سعيد إلى الاندفاعات، وإلى الاجتيازات السّريعة والرّياح الثّلجيّة العاتية التي تذكي حرارة الحياة. فهل للباخرة السّكرانة أن تعود بهدوء إلى العوّامة؟

يقول ‹رامبو› :

«حلمت في ليل أخضر ذي ثلوج باهرة،
قبلات صاعدة إلى عيون البحار الهوينى،
وحركة نسغ لا مثيل له،
واستيقاظ أصفر وأزرق لفسفور غنّاء !»

1- ‹أفروديت›: إلهة الحبّ والشّهرة والجمال والبغاء والتّكاثر الجنسيّ في الأساطير اليونانيّة، وهي توازي ‹فينوس› إلهة الحبّ في الحضارة الرومانيّة.

2- Platon ; *Phèdre*, 245b

القسم الرّابع

سعادة الفعل

حكاية
الطّاعون والتّمرّد

وهـــران[1]، في قلب القرن العشرين. يتخيّل ‹ألبــير كامو› الكارثة التي تعمّ على كامل البلاد. ينتــشر الطّاعون. إنّه بمثابة مرض الأمراض، هو تجربة الألم الجذريّة الّتي تعمّ على الكلّ. شرّ بشريّ، بشريّ جدّا جدّا، ومع ذلك، يمكن أن يبــدو منبثقــا انبثاقا معتّما من الطّبيعة، ومن هشاشــتها الأصليّــة. الطّاعون، مرض خرافيّ إلى حدّ اســتطاع أن يصبح فيه رمزا للشرّ المطلق، في نظام الأشياء الطّبيعيّة، ولكنّه يرتبط أيضا بمسؤوليّة البشر. فنقص النّظافة والبؤس وضروب العنف تمنح الكارثة ســعتها. في خاتمة كتاب تعبّر فيه فلســفة السّعادة والمتعة عن نفســها، كان ‹لوكراس› يشــير إلى طاعون آخر، طاعــون أثينا، وذلك واقعــيّ بحقّ، وكان يرى فيه أيضا ضربا من أمثولة الوضع الإنســانيّ، عندما تتواجــه مع ما ليس بيدها، وتختــبر ازدواجيّة الطّبيعة. «توجــد، في البدء تماما، ذرّات لأشياء عديدة غير مفيدة، لكن، لابدّ أيضا من وجود آلاف الجراثيم من المرض والموت تســبح في الفضاء؛ وعندما تجتمع صدفة وتعكّر السماء، يصبح الهواء مريضا» (**في الطّبيعة**)[2].

يَفْــرض الفعل ذاته، حينئذ، دون شرط، ولا طلب إزاء القدر، ودون احتياج محبط للعزائم، إزاء من نتخيّل أن يكون الطّبيعة، أو الإله الّذي يسّــيرها. قبول الحيــاة، ليس رفض ما يصاحبها، وهذه الثّنائيّــة التّراجيديّة يجب الاضطلاع بها.

1- وهران مدينة في الجزائر.

2- Lucrèce *De la nature*, VI, 1098.

هل يعزى الألم للإنسان دون سواه؟ من الواضح أنّ مواجهة الطّبيب «ريو» (Rieux) [للألم] هو شاهد ضدّ القدريّة. الفعل البشريّ يُنَاشَدُ في كلّ موت معلن، وفي كلّ ألم غير محتمل. فالطّبيب يحاول استعمال لقاح جديد لأشخاص يبدو أنّ الموت ينتظرهم. إنّه يناضل للتّخفيف من الألم، إن لم يكن للشّفاء منه. في المستشفى، لا يتوقّف الدّكتور «ريو» عن تقديم الرّعاية: إنّ المستشفى مكان الدّموع والآهات، أين يبدو بؤس العالم متمركزا. الوضع الإنسانيّ يعيش ههنا، ضعفه المأساويّ وحدوده. من يستطيع أن يغذّي رؤية شاعريّة، في هذا الكون، أين تتضاعف صيحات الاستغاثة ؟ ومع ذلك، يتصرّف الطّبيب، [ينتقل] من مريض إلى مريض، ومن إنسان إلى إنسان، ومن طفل إلى طفل، وهو ليس في حاجة في ذلك إلى قصّة مطوّلة، لتبرير الشّرّ والدّعوة الأخلاقيّة للخير. لا يستدعي المرض الوهم الشّاعريّ[1] لمعركة مجيدة. إنّه يقتضي، ببساطة، «قتالا كئيبا». لا يتعلّق الأمر بأعمال كبرى، بل [يقتضي الأمر] تصرّفا، في ظرفيّة أصبح فيها الشرّ [مظهرا] يوميّا، يكاد يكون تافها، يحبط من العزائم، بل ويرسي اللاّمبالاة، لفرط الضّجر. إنّه مجاز حياة يائسة، يحيي الطّاعون فيها ضروب التّطيّر وأشكالا من الملاذات الخياليّة. لكنّه يمنح الفرصة أيضا، للبشر كي يصمدوا، ويطبعوا الإنسانيّة ببصمة البطولة العاديّة الّتي تنجلّى، دون جمل كلاميّة، ولا راحة داخليّة أو خارجيّة. الطّبيب «ريو» وصديقه «تارّو» (Tarrou) يعيشان مع الموت ويقيمان في عالم يسري فيه الشّرّ، دون أن يتوقّفا أمام المخاطر، ولا أمام ما يستدعيه الوضع من جهود يضطلعان بها، في أيّ وقت. «ما هو طبيعيّ هو الجرثومة. والباقي، الصّحّة، والسلامة، والصفاء، هي أثر للإرادة، ولإرادة لا يجب أن تلين أبدا.» وهكذا، لا يكون لليأس الكلمة الأخيرة. إنّ البشر العمليّين الّذين لا يتصلّبون إلاّ لكي يعطوا معنى لهذه الرّغبة الكاسرة في العيش هُمْ محطّة للتناوب وأوصياء على الحياة الّتي تريد الاستمرار، وهم هذا الكائن الّذي يستمرّ في التّنفس من أعماق ألمه. إتيقا اليوميّ هذه، تقول أهمّ شيء عن عظمة الإنسان الّتي يجسّدها في التّجربة الجذريّة.

1- الشّاعريّ Lyrique يقال هذا اللّفظ للدّلالة على الشّعر المغنّى في اليونان القديمة الّذي كان يُرافق إلقاءه عزف على آلة القيثارة.

لا شيء بعدئـذ، يمكنـه تبرير الّلا مبرّر : إنّ ألم عذاب طفل لا يفعل شـيئا سوى أنّه يتجاوز الفهم، فيسقط تحت وطأة التمرّد. لا يمكن قبول الوجه المشوّه الـبريء. يلحظ الطّبيب، وهو إلى جانب سرير طفـل يحتضر، الصّراخ هاربا من فمه الفاغر إلى الأبد، هذا الطفل ههنا، كان، على الأقلّ، طفلا بريئا.

وفضيحـة العـذاب العبثيّ أصبحت ظلاّ يرافـق كلّ جهد، وكلّ صراع، لتأكيد شيء مثل معنى الحياة، تمرّد. كيف نعيش، بعد ذلك، سـعادة الفعل الذي يسمح بالإحساس بطاقة الفعل وبكوننا نكبر بما نفعل؟

إنّـه حوار رهيـب ينطلق بـين الطّبيـب، ذي الطموحـات المتواضعة، وبين الكاهن الذي يكرّس الشّرّ، على أنّه لغز لا يُتجاوز، مهمّته دفع كلّ إنسـان إلى الامتثـال، وحتّى اعتبـاره عقابا أراده الله لتذكير البشر الّسـاهين عنه. إنّها عقلنـة غريبـة على طرفي نقيـض، من حبّ مجّانـيّ، دون شرط. يتعـذّب البشر، ويقيسـون بذلك ضعفهم البيّن. لكـن، هل بالإمكان أن نجعل من العذاب المفروض على هـذا النحو بيداغوجيا المطلق؟ ألا يكون من المستحسـن قبول الحياة بحلوها ومرّها، حياة يعود إلينا أمر ترتيبها، في أفضل نسبة ممكنة، من أن نـرى فيها ضعفا لا يتجاوز ؟ لقد اتّجه الأب «بانلو» (Paneloux) نحو «ريو»، بعد مـوت الطّفل، قائلا: «إنّ هذا ليبعث على التّمرّد، لأنّه يتجاوز طاقتنا. لكن، ألم يكن مقدّرا علينا أن نحبّ ما عجزنا عن فهمه.» فأجاب الدّكتور: «كلاّ يا أبَتِ. أنا لديّ نظرة أخرى عن الحبّ، سأرفض حتّى الموت أن أحبّ هذا الخلق، أين يعذّب الأطفال.»

تـصرّف الطّبيب الرّصـين، إلى حدّ مّا، يتعارض بهدوئـه الظاهر، مع [حالة] العجـز العامّ. ههنا صبر، دون أيّ طموح، سـوى إعادة الإنسـانيّ إلى ذاتها، إذ أنّ العذاب، في مستوى مّا، هو إعاقة. إنّه يتوافق مع حرمان من السّعادة يكاد لا يرحم، أين ننسـى حتّى فكرتها. فلكي نصدر حكما بشـأن البؤس الذي تشكّل على هذا النّحو، لا بدّ من العودة إلى الاحتفال بالعالم المشمس، إلى البحر الدّافئ الذي يستقبل جسد السّبّاح، وإلى المتعة الصاعدة من الحواسّ إلى الوعي. يصف «كامو» لحظة السّعادة المعكوسـة: ينتزع الدّكتور «ريو» وصديقه بارّو

نفسيهما من الجحيم، ليتقاسما، باسم الصّداقة، طعم سباحة في البحر، من أجل «متعة مستحقّة». «قبل أن يصلا بقليل، أعلنت رائحة أليود (*l'iode*) والطحلب عن البحر، ثمّ استمعا إليه. إنّه يصدر صفيرا لطيفا، عند أسفل جلاميد صخر الرّصيف... أخذا مكانهما على الصّخور قبالة البحر. لقد كانت المياه تعلو وتنحدر بهدوء. وكان هذا التنفّس الهادئ للبحر يولّد انعكاسات زيتيّة على وسط المياه، ثمّ يخفيها. لقد امتدّ الليل أمامهما، دون حدود. ‹ريو› الذي كان يتحسّس بأصابعه الوجه المجدور للصّخور، كان مفعما بسعادة غامضة» (**الطاعون**)[1]. نذكر هنا، ما كتبه ‹كامو› في **أعراس في تبسّة**[2]: «لقد كنت ألعب دوري على أحسن وجه، قمت بعملي بصفتي إنسانا، وعرفت الفرح على امتداد يوم طويل، ولم يكن يبدو لي ذلك نصرا مبينا، وإنّما هو تحقّق مؤثّر لوضع يجعل من الواجب علينا في بعض الظروف أن نكون سعداء. سنلاقي حينئذ، وحدة، ولكنّها وحدة [قبلناها] بارتياح هذه المرّة.»

Camus la Peste IV-1

Tipasa Noces Camus -2

الدّرس العاشر

إتيقا السّعادة

التّحوّل إلى السّعادة

الفلسـفة، بما هي هـمّ الوضوح، وفنّ العيش في آن، تدعو إلى تفكّر السّـعادة على أنّها شـكل من أشكال الكينونة، أو، إن أردنا القول، طريقة في العيش. إنّه المعنـى الأوّليّ للّفظ الإغريقيّ إيتوس (*ethos*)، الذي أعطى إتيقا، وهو ما احتفظ به «سـيبنوزا» لأثـره الرّئيسيّ. الإتيقا هي التّفكير في طريقـة العيش، وهي تتّجه، ولا شكّ، لأفضل طريقة في الوجود وفي العيش، حتّى يكتمل المرء ويسعد. وهكذا نرى أنّ السّـعادة هي أكثر من امتلاك حالـة مثاليّة، دفعة واحدة. إنّها تعرّف بما هي بهجة أساسيّة لضرب من المغامرة، مغامرة أناس ملتزمين بتأكيد ذواتهم.

لقـد كان «كانط» يقول إنّ الإنسـان لا يمكنه أن يقصد مباشرة نموذجا تامّا للسّعادة، ولكن يمكنه على الأقلّ، أن يجعل نفسه جديرا بالسّعادة. تُحمَل هذه الجدارة على معنيين. فهي، في المقام الأول، كرامة الإنسـان حتّى يسـتطيع على الأقلّ، طرح مسـألة السّـعادة. وهي في المقام الثانـي، الكرامة المكتملة. فعليـا بالتّصرّف الإتيقيّ، وهي طريقة لعيش مشـترك للإنسـانيّة، في علاقتها بذاتها، وفي علاقتها بالآخرين. يمكن للإتيقا، بما هي فنّ عيش مؤدّ إلى السّعادة والأخلاق، بما هي تطابق مع طريقة الوجود الشّخصيّة لظروف الحياة الاجتماعيّة والتوافق المشترك، أن يسيرا؟؟ إذن جنبا إلى جنب. «أبيقور»، فيلسوف الاستمتاع

بالعيش، و«كانط»، مفكّر فضيلة الأخلاق بما هي حرّيّة عمليّة، لن يكونا إزاء هذا الأمر، على طرفي نقيض، الواحد إزاء الآخر.

إنّ السّعادة لا تقنّن، من ناحية محتواها العمليّ، ولا حتّى من ناحية الإجراءات المؤدّية إليها. وفي المقابل، تستطيع الفلسفة المساهمة في البناء الوجوديّ للسّعادة. فَتُفْهَمُ، حينئذ، على أنّها مسار لحدوث العقل، ولشروط تصرّفٍ رشيدٍ، يسمح للرّغبة في الوجود أن يضطلع بها كلّ شخص اضطلاعا تامّا. لكن، لا بدّ من التّفكير في انشباك هذه الدّيناميّة، انطلاقا من حياة هي، قبل كلّ شيء، ضبابيّة ومشوّشة ومذبذبة وغير قابلة للتّوقّع.

أن يقول المرء أنا. الانتصار على الذّات.

هل الإنسان القادر على الاهتمام بنفسه، وتحقيق مثله الأعلى للاكتمال، من خلال حياته، هو موجود في الأصل، مهما كانت الظّروف؟ ألا يحدث هذا بالأحرى، بجهد التأكيد الذّاتيّ، والبناء الصّبور للذّات؟ إنّ الاستقلال الحقيقيّ للشخص وامتلاءَه لا يُكتسبان إلاّ في تنوّع الرّوابط وبواسطتها، ومن الوضعيّات الوجوديّة الملائمة للازدهار. لا بدّ إذن، من مضاعفة الفرص.

لقد أراد «فرويد» أن يفكّر في شروط السّعادة، بعيدا عن الملائكيّة، وقد كان منتبها إلى العوامل الدّاخليّة المعرقلة التي تخاطر بقدوم ذات نفسيّة تتصرّف في حياتها العاطفيّة، بدل أن تكون خاضعة لها. السّعادة، بالنّسبة إلى مؤلّف **قلق في الحضارة**، لا يمكن أن تكون إلاّ في التّوازن القائم بالتّدرّج، بين دوافع الرّغبة ومقتضيات الحياة الاجتماعيّة، ممّا يفترض مسارا لبناء ذات عاطفيّة، يسمح بإدماج متناسق لقطبين هما في الغالب، متضادّان. «أينما كان ألهو، عَلَيَّ أن أكون» (*wo Es war, soll Ich werden*) (**محاضرات جديدة حول التّحليل النّفسيّ**، *III*، الشّخصيّة النّفسيّة). يغطّي «ألهو» مجموع الدّوافع الأصليّة والنّزوات الأوّليّة للإنسان، وله أن يحوّلها إلى رغبات أو إلى نفور، مع الوعي بما تقصده ذاته أو ترفضه حتّى تكتمل. أمّا «الأنا» فهو تشكّل لِوِفَاق أين يدور التّكفّل بهذه الدّوافع، حسب مقتضيات الحياة الاجتماعيّة، وبشكل أشمل حسب الواقع. إنّ

الشّخصيّة النّفسيّة تتشكّل بالتّتابع الملتحف بمسحة دراميّة للتجارب الوجوديّة والتّرسّبات الحاصلة أثناءها. هذا المولد المتطوّر للذّات يجعل من هوّيتها ضربا من التّاريخ، هي بالأحرى، «هوّية سرديّة»، لا واقعا فجّا لطبيعة محدَّدَة مسبّقا لخاصّياته. الوعي هو بلا ريب، فتح، وحتّى مسار متدرّج لتَحْيين المقتضيات الخاصّة لبناء التّصرّف. فالـ**أنا** الذي عليه أن يحدث، ليس «أنا» مغشوشا، مشدودا إلى هواجسه أو إلى هيجانه، وإنّما هو الشّخص المضطلع له في الوعي المتّسع، بما هو قادر عليه، وما ينفتح له من [إمكانات]، لكي يزدهر. إنّ جهد توضيح الذّات لا بدّ أن يضطلع [بمهمّة] الرّغبة في الوجود، كما يضطلع بالثّروات التي لا يشكّ فيها في البدء، للطّبيعة البشريّة، البيّنة في كلّ سجلاّتها.

أمّا عن العقل فهو لا يتدخّل، على أنّه قوّة مكوَّنَةٌ برمّتها، مثلما تنبثق ‹مينرفا›، (Minerve) تامّة التجهيز من دماغ ‹جوبيتار› jupiter، داخل الوعي، إذ يمكن التساؤل، حينئذ، عن مأتاه. إنّه يستخرج من حركة توضيح التّجربة الإنسانيّة، كما تعاش، أوّلا، في عفويّة نزعة حفظ الذّات. إنّ جهد الاستمرار في الوجود [وهي العبارة] الثمينة لدى ‹سبينوزا›، الواردة لديه تحت الاسم اللّاتينيّ ‹كوناتوس›، (Conatus) يرجع إلى ديناميّة خاصّة. هذه العفويّة القادرة على اتّخاذ مسافة تفكّريّة، لدى كائن مثل الإنسان، تتوافق مع فهم متدرّج لمقتضيات الوضوح. لقد وصف ‹سبينوزا›، انطلاقا من التّعرّف العمليّ للخير الحقّ، في كتابه **رسالة في إصلاح العقل**، انبثاق خطاطة مسار عقليّ، انطلاقا من خيبات عديدة لحياة، هي رهينة صروف الحظّ وعطاياه الّلا مضمونة. وإذا لم يسمح ضعف الإنسان، بعد، أن يجعله يتصوّر نظام الطّبيعة الّتي يرجع إليها كلّ شيء، فإنّه لم يمنعه من «تصوّر طبيعة هي أقوى منه بكثير» ولا أن يبحث عن بلوغها، وأنّها ستكون بمثابة نموذج للاكتمال متصوّر، انطلاقا من ميولات الطّبيعة البشريّة (‹سبينوزا›، **رسالة في إصلاح الذّهن**)[1].

ثمّة، ههنا، اختيار فلسفيّ بامتياز، يعتبر الحكمة بمثابة حركة توضيح الواقع ذاتها، وتوضيح مبادئ العمل. من الآن فصاعدا، لم يبق شيء يدلّ على أنّ العقل ملكة متميّزة وموجودة مسبقا. ويمكن فهمه، على أنّه الصّرامة المميّزة

Spinoza, *Traité de la réforme de l'entendement*, trad. A. Lécrivain 2003, GF-Flammarion, 73. -1

لمثل هذه الحركة، وعلى أنّه ضرب من السّبيل التي ترسي تدريجيّا القوّة العقليّة للفكر. هو فتح للذّات بذاتها. فتح محمول إلى الرّغبة في الوجود، الّتي تعرّف ماهيّة الإنسان. («سبينواز»، **الإتيقا**)[1]، فهو لا يختلف عنها ههنا، اختلافا جوهريّا: إنّه صيغتها التّفكّريّة، المضطلعة اضطلاعا؟؟ وإتمام الوعي بالمقتضيات الضّروريّة للاكتمال. «فما هي هذه الطّبيعة ؟ سنبيّن في الوقت المناسب، أنّها، بالتأكيد، معرفة الوحدة الّتي للرّوح، مع كلّ الطّبيعة» (**رسالة في إصلاح الذّهن**)[2].

إنّ النّفس، وقد ارتبطت بجسد وحيد، أو، إن أردنا القول، بزاوية نظر فريدة، لا تنزع، بالفعل، إلاّ لتكوين أفكار ملتبسة ومشوّهَة، تتبدّى، من خلالها، السّيطرة الّتي تمارسها الأسباب الخارجيّة. لكنّ النفس، بسمّوها إلى تعقّليّة حقّ لطبيعة جامعة مفهومة، حسب قوانين، فإنّها تكوّن أفكارا حقيقيّة، تتحرّر بمقتضاها من هذه التّبعيّة، أو تخفّف من وطأتها، على الأقلّ. هذه الطّفرة في زاوية النّظر، وبفضل ديناميّتها ذاتها، تنزع في اتّجاه مثل أعلى لتعقّليّة تامّة، أين يتأتّى للنّفس العاقلة أن تحقّق ذاتها، من وجهة نظر الطّبيعة برمّتها، وكأنّها اتّحدت به. إنّه مسار نموذجيّ، يقود الحكيم إلى الكرم. ويتمثّل هذا الكرم في إرادة أن يتقدّم البشر جميعا، بالتّساوي، في هذا الاتّجاه التّحرّريّ الذي يمثّل مصدر السّعادة. إنّ اقتسام الوضوح هو، أيضا، الوعي المتّقد الدّالّ على ما يستطيعه البشر لبعضهم البعض. هي قدرة، بقدر ما هي قويّة، تكون المعرفة أتمّ، وحرّيّتها، أيضا، أفضل تأكيدا. فالسّعادة البادية والمهذّبة، على هذا النّحو، تعرّف صيغة وجود حقّه، وفنّا في العيش.

السّعادة الفاضلة

لقد ثار «سبينوزا» ضدّ التّطيّر الحزين الذي يدعو إلى كره الملذّات، بذريعة أنّها تبعد عن التّصرّف الأخلاقيّ والفكر الحقّ. فتصوّر كليهما، على أنّهما حركتان لروح بلا جسد، أمر لا يستقيم في نظره. وبالمثل، فإنّ الرّوحانيّة الدّينيّة، عندما تفهم جيّدا، لا تؤدّي، إطلاقا، إلى احتقار العالم البشريّ. فالمتعة هي، في الوقت

1- Spinoza, *Ethique III*, proposition 9, scolie.

2- Spinoza. *Traité de la réforme de l'entendement*, op. cité p. 73.

نفســه، إحساس ووعي بطيب العيش. وبداهة هذا الأمر هي ضرب من الشّاهد الصّامت على الكائن برمّته. لقد نبّه «مونتاني» إلى البعد الشّـهوانيّ للأفعال التي تلبّي الحاجة. فحالة الرّضاء التي تتبع ذلك هي ضرب من فرح الكائن بذاته، اعتـبره «أبيقـور» بانيا للسّـعادة. إنّه اكتمال وهدوء وابتهـاج لطيف لضرب من التزوّد. يتعلّق الأمر، إلى حدّ مّا، بالامتلاء الّذي يجلبه الحضور في العالم، عندما لا تشوبه شائبة، وعندما لا يكون للرّغبات المقيمة في هذا الحضور أيّ معنى، غير دفع الكائن إلى الاسـتمتاع بذاته. إنّ إنجازا للذّات، على هذا النّحو، لا ينطوي عـلى أيّ شيء لا أخلاقـي، وإنّما يـؤدّي جيّدا، بالأحـرى، إلى الفضيلة. تكمن فضيلة المتع في ازدهار الكائن، والانفتاح على الآخر الذي يعبّر عنه. إنّها عدوى مفيدة، سـتمكّن سريعا، من اقتسـام طعم السّـعادة. إنّنا بعيدون عن تطيّرات الحرمان، والانفعال الحزين، أين تتجلّى ضروب من الإعراض عن الحياة.

لقد نقد «كانط» بشدّة، أولئك الّذين يعتقدون تدعيم الفضيلة فيهم، بالعذاب الّذي ينزّلونه بأنفسـهم، كما يفعل المتديّنون النّسّـاك (أي الّذين «ينسلخون» بعيـدا عن كلّ شيء)، وأولئك الّذين ينخرطون في الاعتكاف (أي في التّوبة وفي الزّهـد الجـذريّ). إنّه يتحدّث، في هذا الموضوع، عن «الأشـكال المنقبضة للفضيلة» (**الانتروبولوجيا من وجه نظر براغماتيّة**)[1]، وهو يحذو في هذه النّقطة حذو «سبينوزا» في نقده الذي يشجب خرافة الحرمان واحتقار مختلف متع الحياة.

إنّ التّمفصل بين شـاغل الوضوح والسّـعادة هو إذن، مصيريّ، ضمن إتيقا المتعة. وسـيكون الأمـر كذلك ضمن فنّ عيـش، يتمثّل في تنميـة الحرّيّة، واستعمالها في فنّ العيش هذا الاسـتعمال السّليم. إنّ المثل الأعلى للوضوح ليُعْثَرُ عليه في قلب تصوّر الانفعالات الإنسـانيّة، لـدى «ديكارت»، كما يُعْثَرُ عليه، أيضا، ضمن شـاغله في تعريف الخير الأسمى. رسالة شهيرة وضّحت، في المقام الأوّل، إرادة تقديـر الخيرات الّتي نمتلكها حقّ قدرهـا، وتلك الّتي تنقصنا، وتجنُّـب كلّ وهـم، في هـذا الباب. لقد كتـب «ديكارت» في السّـادس من أكتوبر 1645 إلى اليزابيت، لكـي يشـير إلى خيـار اعْتُبِر حقيقيّا من قبل الرّأي العامّ، ولكـي يعيد في الرّسالة تعريف هذا الخيار تماما. [يقول في الرّسالة]: «لقد

1- Kant, *Anthropologie du point de vue pragmatique*, Vrin, page 131.

عزمت، في بعض المرّات، على الشكّ فيما إذا كان أفضل للمرء أن يكون فرحاً ومغتبطا، وهو يتخيّل الخيرات الّتي يمتلكها أعظم قدرا وأعلى رتبة ممّا هي عليه، وتجاهل تلك الّتي تنقصه أو عدم الاكتراث بها، أم الأفضل له أن يكون أكثر تدقيقا وأوسع معرفة بها، بحيث يتسنّى له إدراك قيمتها الحقيقيّة، سواء تلك التي يمتلكها أو تلك التي يفتقر إليها، فيصير بذلك أكثر حزنا. ولو كنت أرى أنّ الخير الأسمى هو الفرح، لما كان عندي مسوّغ للشكّ في أنّه ينبغي للمرء أن يجدّ في طلب ما يجعله فرحا مهما كان الثّمن، وربّما ثمّنت فظاظة أولئك الّذين يداوون كروبهم بالخمر أو يسكّنونها بالتّبغ. لكنّني أميّز بين الخير الأسمى، بما هو ممارسة للفضيلة، أو بما هو امتلاك لكلّ الخيرات التي يكون اكتسابها بمقتضى اختيارنا الحرّ (والأمر سيّان)، وبين ما ينجم عن ذلك من رضا النّفس. لذلك أعترف، وأنا أرى في معرفة الحقيقة كمالا أقصى خيرا من الجهل، حتّى وإن كان ذلك في غير صالحنا، أنّه من الأفضل أن يكون المرء أقلّ مرحا وأكثر معرفة.» وباختصار، فإنّ الوضوح أفضل من النّشوة المرتبطة بالوهم، والأكثر من هذا الفرح الذي ينجم عنها ويشتمل على شيء من المرارة، إذ لا يمكن للمرء أن يكذب حقّا على نفسه. إنّ الهروب إلى الجهل لا يؤدّي إلاّ إلى سعادة وهميّة، لا يمكنها أن توجد إلاّ على سطح الأشياء. يقول «ديكارت» أيضا: «وهكذا، فأنا لا أثمّن سعي المرء إلى خداع نفسه، متعلّلا بالتّهيّئات الزّائفة، لأنّ كلّ ما يصيبه من اللّذّة النّاجمة عنها لا يمكن أن يصيب غير سطح النّفس، هذه الّتي تشعر مع ذلك، بغمّ دفين، عندما يتبيّن لها أنّ تلك المتع وهميّة.» (نفس المرجع السّابق).

إنّ مقتضى الوضوح يسير جنبا إلى جنب، مع شاغل سعادة حقيقيّة، لا تكون وهميّة، أي لا تكون عرضيّة، بقدر ما هي هشّة، وتستعجل بذلك لترك المكان إلى اليأس. رسالة أخرى إلى اليزابيت مؤرّخة في الثّامن عشر من أوت/ أغسطس 1645 يذكّر فيها «ديكارت» بالتّصوّرات الثلاثة الكبرى القديمة للخير الأسمى، ويستخلص جانب الحقيقة فيها. وهكذا، استحضر «ديكارت» كلّا من «أبيقور» و«زينون» الرّواقيّ و«أرسطو»، وقد وجد أفكاره في كلّ نظريّة من هذه النّظريات. إنّ تأكيد الحرّيّة يلعب ههنا، دورا رئيسيّا بحقّ في مقاربة السّعادة. فالاستقلال الإتيقيّ لـ«أبيقور»، وفضيلة الحكيم الرّواقيّ الذي يعرف

كيف يبقى على مسافة من كلّ ما يقف دون حرّيته، والتّأليف الأرسطيّ بين «كلّ الكمالات التي يقدر عليها الإنسان»، تَسير جميعها في اتّجاه واحد. ويمكن لـ«ديكارت» أن يقتطف منها ما هو مفيد لتصوّره عن الكرم.

تقدير الذّات واحترام الآخر

بما أنّ الوضوح يكمن في معرفة الأشياء التي أمرها بيد الإنسان، فإنّه يستخدم ذلك في تقدير الذّات، وشاغل المسؤوليّة الموافقة لذلك. وحدها الأفعال الصادرة عن اختيار حرّ هي التي يمكن استحسانها أو استقباحها، وهي تُعزى تحت هذا العنوان، إلى صاحبها. فأن يعرف المرء أنّه ذات معناه أن يكون قادرا أن يفعل أو لا يفعل، أي التمتّع بسلطة وبمسافة. وسيذكر «ديكارت» أن أعظم رضاء في الحياة يتأتّى من حسن استخدام حرّيّة الاختيار. إنّ الاستمتاع بمثل هذه القدرة، والوعي بإيجابيّة هذه القدرة هو حرفيّا، تأكيد الذّات. «إنّ الاستعمال الحقّ للعقل هو فحص القيمة الحقيقيّة لكلّ الخيرات الّتي يبدو أنّ أمر اكتسابها، على نحو مّا، يعود إلى تصرّفنا، حتّى لا نتأخّر إطلاقا، عن إيلاء كلّ العناية في سعينا لجلب المرغوب فيها حقيقة أكثر من غيرها» (رسالة 1 سبتمبر1645). إنّ فعل الإنسان الكريم لا يأتي لسدّ ثغرة أو نقص، مثلما هو حاصل في إتيقا التّناهي الدّينيّة. إنّه ليس ردّة فعل، إذ هو يصدر عن عاطفة الحرّيّة. فبالتّأكيد، على الحرّيّة الأصليّة للبشر بما هم بشر، كانت للميتافيزيقا الدّيكارتيّة جدارة استخلاص نواة معنى يقضي على كلّ تبرير تيولوجيّ- سياسيّ للنّظام القائم. فالمرجع، في آخر المطاف، هو تمام حكم إنسانيّ صرفٍ، لا مصدر له، في ما هو عليه، إلّا ذاته. يذهب «ديكارت» إلى حدّ القول، في خصوص الحرّيّة، بأنّها تجعل الإنسان «شبيها بالله» («ديكارت»، **مبادئ الفلسفة**)[1].

يجمع الكريم بين الثّقة واتّخاذ مسافة. وتقدير الذّات، عنده، لا يثنيه، إطلاقا، عن الآخرين. على عكس ذلك تماما، الرّضاء الدّاخليّ الّذي يعود إلى الوعي بالحرّيّة هو تأثّر إيجابيّ، يشجّع على الاستعمال الجيّد لهذه الحرّيّة. إنّ النّفس

1- Descartes, *Principes de la philosophie*, I. art. 39.

حرّة في بناء أحكامها، تكتشف نفسها حرّة أيضا، لتتصرّف بحرّيّة تصرّفات شتّى. فمن الكرم بما هو شغف بالحرّيّة، إلى الفضيلة بما هي إرادة أن يريد المرء جيّدا وبصرامة. يوجد ضرب من القانون الذّاتيّ للذّات تهيّأ تدريجيّا إلى استقلاليّة قصوى، ولكن أيضا إلى الاعتراف بالاستقلال الأصيل لسائر البشر. استعداد مثل هذا يفتح على الوفاق والصّداقة، بأكثر يسر، فيخلّص البشر من كلّ تبعيّة. إنّ التّعريف الدّيكارتيّ للكرم يستحقّ، ههنا، شاهدا كاملا: «وهكذا أعتقد أنّ الكرم[1] الحقّ، الذي يجعل الإنسان يقدّر ذاته بمشروعيّة إلى أقصى ما يمكن من التّقدير، يقوم فقط، في قسم يعرف فيه أنّه يخصّه، ألا وهو التّصرّف الحرّ في إرادته، وأنّه لا يمكن أن يمدح أو يوضّح إلاّ لحسن استعماله، أو سوء استعماله لهذه الحرّيّة؛ وقسم يقوم في إحساس الإنسان، في ذاته، بعزم ثابت ودائم على حسن استعمال هذه الإرادة الحرّة، أي في ألاّ تنقصه الإرادة أبدا، لكي يبادر بتنفيذ كلّ الأشياء الّتي سيحكم أنّها الأفضل. وهذا معنى اتّباع الفضيلة تماما.» («ديكارت، **انفعالات النّفس**)[2].

السّعادة هي إذن، حرّيّة. حرّيّة يعيشها المرء، في هذا المقام، بما هي امتلاء، ويفتح على الفعل الأخلاقيّ. كونوا سعداء، لكي تكونوا متخلّقين: إنّها مبدأ أبيقوريّ. كونوا متخلّقين، لكي تكونوا سعداء : وهذا مبدأ رواقيّ. لكلا المبدأين حقيقته. يُعبّر الأوّل عن قوّة اكتمال الذّات ورهانها السّاعي إلى جعل الإحساس باحترام كلّ إنسان، مؤتمن على الإنسانيّة، أمرا ممكنا. المبدأ الثاني يدعو إلى تحقيق هذه الإنسانيّة، الحرّة في الذّات، إنسانيّة لا تتزعزع أمام الأسباب الخارجيّة، فاتحة، على نحو عادل، على كلّ ما يخصّها. وفاق من هذا القبيل مع الطّبيعة الكونيّة، كما هو الشّأن مع الطّبيعة الخاصّة للإنسانيّة، هو الفضيلة عينها، وما ينجم عن ذلك من رضا هو ما يختصّ به تأسيس السّعادة. وفي هذه الحالة أو تلك، فإنّ إنسانيّة الإنسان تعالج بكلّ نزاهة، بما هي غاية في ذاتها.

1- رأينا ترجمة اللّفظ الفرنسيّ généreux بلفظ «الكريم» لما يعنيه من رفعة النفس واستقلاليّة من كلّ النواحي الدّونيّة بما يجعله مقابلا للّئيم. كما قال ذلك المتنبي في بيته الشّهير :
إن أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللّئيم تمرّدا.
وقد خيّرنا ذلك على لفظ «نبيل» الذي استعمله جورج زيناتي لترجمة لفظ généreux من كتاب «ديكارت، **انفعالات النّفس**، المنشور بدار المنتخب العربيّ سلسلة دراسات فلسفيّة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1993.
2- Descartes, *les passions de l'âme*, III art. 153.

نلتقـي حينئذ، بالمبدإ الكانطيّ، في هذا الشّـأن، تقريبا، إذ أنّ المقتضى الإتيقيّ، عند «كانط»، يتّخذ صيغة أمر قطعيّ. يجب التّعامل مع الإنسانيّة، على أنّها غاية، والقيام بذلك بموجب واجب محض، لا بباعث الحسابات. إنّ الفائدة المحسوبة لا يمكنهـا أن تكـون منطلـق الأخلاق، حسـب «كانـط». وعلى عكس ذلك، فـإنّ فكرة مجتمع إنسـانيّ، أين يعامل النّاس بعضهـم بعضا على أنّهم غايات لأفعالهم، ستسـمح بالنّظر في شرط من الشّروط الاجتماعيّة لسعادة كلّ شـخص. إنّ فضيلة كلّ واحد لتقوم، حينئذ، في أن يُرْفَق رضاه المعتاد بالفرح الّذي ينجم عن ثقة في الغير، وفي عالم البشر الّذي تسـكنه الحياة الشّخصيّة. إنّ «عالم الغايات» الشّـهير هو نتيجة ممكنة، دون أن يكون نتيجة مباشرة للفعل الأخلاقـيّ، بما أنّ هذا الفعل يجب أن يكون منزّها. فلئن نأى «كانط» بنفسـه عن الحلقة الفاضلة للسّـعادة والفضيلة، فلأنّه قابـل، على خلاف الإغريق، بين المنفعة المحسـوبة والنّزاهة الصّرف. إنّ إثارة إتيقا الحرّيّة، عند الرّواقيّين، تسمح بتجاوز تقابل من هذا القبيل.

الآداب الثلاثة

كتب «سـيناك» (Sénèque) إلى «لوسـيليوس» (Lucilius) رسالة جديدة، هي الرّسـالة الثالثة والخمسـون. وهي تأمّلات حول التّمارين التي ترفع الإنسان إلى حدّ الكمال التّامّ الّذي يقدر عليه، ويستخلص الفيلسـوف نتيجة مذهلة في نقطة من نقاطها. إنّ الإنسان أرقى من الله نفسه، على الأقلّ، في نقطة من النّقاط. فالله، العليّ القدير هو هادئ على الدّوام من جهة تعريفه، ومعصوم من أيّ خوف كان. لكنّه كذلك بالطّبع، لا بشيء آخر. أمّا الإنسان الحكيم فهو، هادئ أيضا، لكن بقوّته الخاصّة، لا غير. يقدّم «سيناك» في كتيّب له تحت عنوان **في الحياة السّعيدة جدّا**، فكرة رفيعة جدّا عن الجَلَد الّذي تسمح الحكمة بالفعل أن تكسبه: «لا ألم، ولا أمل، ولا خشية يمكن أن تُقلّل، وإن بشكل طفيف، من سلطان الخير الأسـمى» (الفقرة 15). نذكر، بالمقارنة، الحكمة المستوحاة مـن «بوذا» (Boudha)[1] الّذي يطلب الانعدام التـامّ للإثارة، شرطا للهدوء التامّ.

1- «بوذا»: مؤسّس الدّيانة البوذيّة. عاش ما بين 558 و483 قبل الميلاد. تفرّغ للتّأمّل والبحث عن الحقيقة وزهد في كلّ مـا لـه علاقة بالحياة. لكنّه عدل عن ذلك ليحيا حيـاة معتدلة في طلب الملذّات. لكنه بقي وفيّا للدّفاع عن قيمة الحياة الرّوحيّة.

إنّها النّرفانا[1] (Nervana). اسم غريب ولطيف، له صفاء شبه ثابت لجدول بطيء وبطيء جدّا، إلى أقصى حدّ. إنّه اسم يتصادى مع العدم. يبقى أن نعرف، إن كان نزوع الحياة نحو هذا الغياب للإثارة لا ينزع هكذا إلى نفيها، أو، إن أردنا القول، ينزع إلى حدّها الأدنى، أي حدّ عطالة الحجر.

يعبّر المثل الأعلى دوما، عن شيء أكثر من الواقع المتاح، وسواء اتّجه الإنسان نحو الله، أو نحو العدم، فهو لا يستطيع تجنّب رحلة المحسوس. ومن ثمّ، كانت الحاجة إلى التّدرّب على الحرّيّة، ضمن السّجلاّت الثلاثة الكبرى، لهذه الحياة المضطربة، أين لا يتأخّر العالم عن مهاجمتها، بإحساسات وتمثّلات متعدّدة، وإغراءات ومحاولات إزاء المرغوب فيه، بحثٍّ للفعل النّشيط وللدّوافع.

أوّل أدب من بين الآداب هو الحُكْمُ، الذي نقرّر بمقتضاه المعنى الذي نعطيه للأشياء، أو بالأحرى، للتّمثّلات الّتي نكوّنها عنه. إنّه يفترض أنّ للنّفس، وقد فُهِمَتْ على أنّها مبدأ الأفكار، حرّيّة أن تحكم على النّحو الذي تراه. مبدأ مثِل هذا هو «موجّه» (*hegemonikon*)، بما أنّه يمسك بزمام الموافقة التي يعطيها أو يرفضها للتمثّلات. فهذا المجداف الملقى في الماء يبدو لي منكسرا،[2] لكنّني أحكم بأنّه ليس كذلك، ممّا يشهد على حرّيتي، إزاء الوهم. وها أنا ذا متحرّر من كلّ سلبيّة، في علاقتي بالعالم. فأن أترك نفسي عرضة للتأثّر والعدوى بانفعال أو بهوس معناه أن أتخلّى عن مطلب البقاء في ذاتي، وعلى مسافة منها. هكذا يكون الإنسان مسؤولا عمّا يتخلّى عنه... يوجد، ههنا، اكتشاف رائع: وهو الإمكانيّة الّتي لدينا لتغيير نظرتنا إلى العالم. بصقلها وتدريبها، نستطيع التحرّر من أحكام القيمة الّتي تخصّ الأشياء التي أمرها ليس بيدنا. على هذا النّحو، نهوّن من ظواهر الطّبيعة. لقد توصّل الأبيقوريّون إلى ذلك بمعرفة قوانين الطّبيعة. أمّا في الوقت الرّاهن فيكفي أن يعتبر المرء بأنّ الأشياء ليست في حدّ ذاتها فظيعة، ولا مفزعة، وأنّ صفات، من هذا القبيل، ليست سوى انعكاسات لمخاوفنا. فعندما نتّخذ مسافة من الصّفات الأنتروبومورفيّة،

1- النّرفانا: مصطلح أساسيّ في الفلسفة البوذيّة ويعني الحالة التي يتمّ فيها خلوّ المنغّصات والآلام التي تحدث بصفاء النفس.

2- لقد أورد «أبو حامد الغزالي» في كتابه **المنقذ من الضّلال** مثالا شبيها، إذ تحدّث عن العصا المنغمسة في الماء تبدو منكسرة في حين أنّها مستقيمة، للاستدلال على خطإ الحواس.

نحرّر أنفسنا من كلّ قلق، ونمنح أنفسنا فرصة إعادة اكتشاف آيات الجمال في الطّبيعة، وقد عادت إلى عُرْيِهَا البَريّ. يقول «مارك أورال»: «لو كنّا نَفْتَتِنُ بكائنات الكون، ولو كنّا أدركناها، بشكل أعمق، فلا شكّ، أنّ أيّا منها لن يبدو كمخلوق غير لطيف» (**أفكار**)[1].

إنّ أدب الحُكْم، أو الموافقة، يجعل أدب اللّذّة ممكنا. ويتمثّل هذا الأدب في رفض أن نرغب في أيّ شيء، عدا ما أصبح ممكنا أن نرغب فيه، بحكم مجموع الطّبيعة، الطّبيعة من جهة أنّها قوانين حركتها في مجموعها. هذه الإرادويّة تعتمد على الحكم وآدابه الخاصّة. فبعد توضيح حتمية الكون، يتعلّق الأمر إذن، بتعديل الرّغبات على نحو يجعلها تحدث في توافق معه. وكلّ رفض يكون عبثيا:عبثيّة من يبحث عن مسك مِقْرَنٍ[2] بعشرة جياد مندفعة بكلّ سرعة، بيديه لا غير. يذكّر سيشرون، وبشكل لافت: «يوجّه القدر من ينساق إليه إراديّا، ويجرّ من يُنكِرُهُ على نفسه.»

وأخيرا، يتمثّل أدب المشيئة في الانضمام إلى نظام الكون، مع اضطلاع المرء الفاعل بمسؤوليّته، بما هو إنسان. وبالطريقة الخاصّة التي يمكن أن يتدخّل بها، بما هو كذلك، في العالم. عليّ أن أحتفظ في ذاكرتي وفي مبادرتي بطبيعتي الخاصّة في أن أكون إنسانيّا، مع وصلها بالطّبيعة الكلّيّة. يستدعي الأمر منّي، إذن، أن أتصرّف، وفق ما يحقّق الخير لبني جلدتي، ويسهم، على هذا النّحو، في انسجام الكون.

صداقة كونيّة وكوسموبوليتيّة

جزم «شيشرون» بوجود قانون طبيعيّ تماما «للطّيبة الكونيّة» الخاصّة بتأسيس المجتمع على مرجعيّة وحدة النّوع البشريّ: «لقد أوكل إلى البشر بالطّبع، أن يتعهّدوا بعضهم بعضا، حتّى إنّ المرء يعدّ إنسانا بهذا التّعهّد، فيجب

1- *Pensées III*, 2, édition de la Pléiade, *Les Stoïciens*, Gallimard, p 1152.

2- مقرن، Attelage وهي العصا التي يربط إليها عدد من الثّيران أو الخيول لضمان تناسق سيرها لجرّ العربات أو الآلات الفلاحيّة.

ألاّ يكون الإنسان غريبا عن إنسان آخر.» (**في الخيرات والشّرور**)[1]. ومن ثمّ، يوجد مثل أعلى، بصفة توجيه تعديليّ لمجتمع الأرباح والخسائر (المرجع السّابق) «فبين الأصدقاء، يكون كلّ شيء مشتركا.» وهي طريقة لبيان ما يمكن أن يكون عليه مجال القسمة الذي ينطبق على العلاقات البَيْنْبَشَرِيّة، دون أن يشمل، ضرورة، كلّ مظاهر الحياة، إذ أنّ كلّ شخص يحتفظ بتحفّظه ويستطيع الانكفاء في الوحدة. وهذا يعني أنّ التّضامن الكوسموبوليتيّ يؤسس، على مستوى العالم برمّته، واجب التّضامن والمساعدة المتبادلة. هذه (الفيليا *Philia*) تمرّ، عبر وساطة العقل والقسمة التي تجعل اللغة ممكنة: تواصل ونقاش ودربة حواريّة على [بناء] الحكم.

في هذا المستوى تتشكّل إنسانويّة رائعة. فلا شيء إنسانيّا يكون غريبا عنّي. والتّضامن الكونيّ للنوع البشريّ له الأولويّة على كلّ أشكال الانتماء الخاصّ. نرى أنّ موافقتنا على ما أمره ليس بأيدينا يسمح لنا بالتّركيز على مهمّتنا الخاصّة، بما نحن بشر، والاضطلاع بها على أفضل وجه: إنّ العمل الإنسانيّ يتجلّى، حينئذ، في شاغل العدالة، (بالإغريقيّة، ديكايوسوناي *dikaiôsuné*) الّذي هو استحقاق لكلّ إنسان، وللإنسانيّة جمعاء. من هنا، يكون تقسيم العمل أساسيّا لسعادة الجميع، بقدر ما هو أساسيّ لسعادتي الخاصّة: «لا مبالاة، في ما يخصّ الأحداث الآتية من سبب خارجيّ. عدل في الأعمال التي تكون أنت ذاتك مصدرها.» (**أفكار**)[2]. لقد سما ‹مارك أورال›، الإمبراطور، وتلميذ العبد ‹إبيكتات›، بالآداب الثلاثة للحرّيّة، إلى نبل كوسموبوليتيّة مشرقة، تضمّ الإنسانيّة برمّتها. لقد صاغ، لأوّل مرّة في تاريخ المذهب الكونيّ الإتيقيّ والسّياسيّ، الّذي ستستوحى منه لاحقا، مشاريع التّحرّر الإنسانيّ، وإعلانات حقوق الإنسان، العبارة التالية:»من المفيد لكلّ كائن أن يتطابق مع تركيبته وطبيعته الخاصّة، وبما أنّ طبيعتي هي طبيعة كائن عاقل واجتماعيّ، ومدينتي ووطني، مثل ‹أونتونان› (Antonin)، هي روما. أمّا، من جهة أنّني إنسان، فوطني هو العالم. « (**أفكار**)[3] إنّه لموروث رائع للعصر الوثنيّ"[4].

1- Cicéron *Des biens et des maux*, III, XIV, 63.

2- *Pensées*, IX, 31, édition citée p1218

3- *Pensées*, VI, 44, p1187

4- Antiquité païenne

الخاتمة: مفارقة الممثّل

تلخّص صورة مسرح الحياة فكـرة الحكيم الرّواقيّ الّتي صنعها عن دوره بما هو إنسان. لا بدّ من لعب هذا الدّور، لكن، [مع اتّخاذ] هذه المسافة الدّاخليّة القائمة في كوننا، لا ننسى، أبدا، بأنّنا نلعب. سنتجنّب هذا الإحساس في ذواتنا بالانفعالات التي نجسّـدها، أو الإحسـاس بها إحساسـا عميقا جدّا. يذكّرنا «ديـدرو» Diderot[1] بأنّ لعـب الممثّل يأتي أوّلا من الـرّأس، لا من القلب، حتّى وإن صادف، أحيانا، أنّنا ننسـاق إلى هذا اللّعـب. يمكن للانخراط [في الدّور] أن يكـون تامّا، وصادقا، وحتّى ضروريّا، بمعنـى ما، إذ يجب ألاّ يترك شيء للصّدفـة، في مجال العمـل الذي حان أجله. لكن، يجب ألّا يؤدّي بنا أيّ فقدان للذّاكرة إلى أن نحمل أنفسـنا على محمل الجدّ، وأن نستسـلم للدّور، إلى درجة انتفاء التّمييز، بين الإنسـان والشّـخصيّة الاجتماعيّة، تمييزا ينتفي معه إنتاج آثاره الطّيبة : مثل المسـافة، والتّسـامح، ونبذ كلّ عجرفة، واحترام الآخر، بما هو نَدٌّ مهما يكن موقعه في المراتبيّة. وكما يقول «مارك أورال»، الإنسـان، وبالمناسبة الإمبراطـور: يجـب ألاّ «نتقيصر»[2]. لن يُنْسَـى هذا الدّرس. نعـرف، جيّدا، أنّ «مونتاني» يحرص، بقوّة، على ألا يستسـلم للخلط بين شخصه وبين رئيس بلديّة بوردو. وهو يقول أيضا، إنّ القميص ليس هو الجلد. هكذا يكتمل الدّور بين الهدوء والحرّيّة، وبين المسـافة والانخراط. إنّه توازن بين لا مبالاة سياديّة وعدالة فاعلة تؤسس جميعها ههنا، إتيقا سعادة رائعة.

يمكن أن نسـتخلص إيتيقيا المسـاواة من هذا التّذكير بالوضع الإنسانيّ المشـترك بين البشر، إتيقيا تؤسّـس الاحترام الكونيّ. «باسكال»، وهو يتّجه إلى العظـماء في هذا العالم، كان يحذّرهم من مغبّة النّزوع إلى اسـتعمال نفوذهم، ناسين هذه المساواة الأصليّة : «... لا بدّ أن يكون لديكم [...] فكر مزدوج، [...] فإن تصرّفتم من الخارج مع النّاس بناء على مقامكم، عليكم أن تعترفوا، بفكـر أكثر تخفٍّ، لكنّه أصدق، بـأن لا شيء لديكم، بالطّبع، أرفع ممّا هو مشترك بين النّاس. وإذا كان الفكر العامّ يرفعكم فوق مقام سواد الشّعب،

1- «ديـدرو»: فيلسـوف وكاتب فرنسيّ، عـاش بين 1713 و1784 أشرف على تأليف موسـوعة الفنون والعلوم والحرف وحرّر العديد من فصولها

2- **نتقيصر** césariser والمقصود أن نتصرّف تصرّف القياصرة.

فإنّ الفكر الثّاني ينزّلكم ويبقيكم في تساوٍ تامّ، مع جميع البشر، إذ تلك هي حالتكم الطّبيعيّة.» (**الخطاب الأوّل حول وضع العظماء.**)[1]

1- Pascal, *Premier discours sur la condition des grands*

الدّرس الحادي عشر

سعادة الفعل

حكمة الفعل

لا يمكن للسّعادة أن تُكْتَسَبَ، بما هي خير نستمتع به، دفعة واحدة. إنّها لا تحدث بضرب من التّحويل الآنيّ إلى حالة هدوء، وغياب مكدّرات، فتقطع، بلا رجعة، مع أحزان الوجود. إذ أنّ هذه الأحزان تعاند وتستمرّ، لأنّها جزء لا يتجزّأ من المغامرة الإنسانيّة، وهي تنسج الزّمن الذّي صنعت منه. العيش فنّ، إلاّ أنّه يعسر تعريفِ قواعده، وتبقى، دائما، غير كافية بالنّظر إلى تنوّع الظّروف، إذ يمكن لمبدإ في الحياة أن يكون له مدى عامّ، لكن، لا بدّ أن يتجسّد في ظروف هي دوما، فريدة، وحتّى متفرّدة. من هنا، يأتي دور الحكم، أي فعل التّفكير الذّي يستوعب هذه الفرادة، حتّى يحدّد للفعل اللّحظة المناسبة، ويرسم له الصّيغة الأكثر نجاعة. فما يسمّيه ‹أرسطو› كايروس «*kairos*»، أي الفرصة الملائمة، يشير جيّدا إلى الشّاغل الغالب في التّجسيم العينيّ للحكمة. سيقع الحديث عن حكمة عمليّة، وعن حصافة، لتعيين هذا المعنى للفرصة الملائمة، هذا الانتباه إلى أصالة كلّ ظرف، انتباها مشغولا بالأخذ بعين الاعتبار هذه الأصالة على أفضل وجه في تصرّفات الوجود. إنّ اللّفظ الإغريقيّ فرونيزيس *phronèsis*، المتواتر الاستعمال بكثرة عند ‹أرسطو›، يضمّ مثل هذه الحكمة، التّي تدخل في الحسبان مقاربة معلقنة، ومداولة داخليّة حول أفضل سبل الفعل. نترجم في الغالب، هذا إلى «الحذر،» لكنّ اللّفظ مغالط، إن هو جعلنا نعتقد

على هذا النحو، في إمكان التّعرّف إلى تـصرف، دون جرأة. فمعنى الفرصة لا يستبعد إطلاقا الشّجاعة والمبادرة.

إنّ الفعل، مع وبخصوص، هو بالضّبط الامتثال إلى أصالة اللّحظة، وإلى المستحدث في حالة مّا. الفعل هو تقديم الحجّة، في المعنى الـذّي كان يعطيه القدامى إلى هذا اللّفظ، لفظ الحذر. وليس في هذا أيّ خذلان: فهو لا يستبعد الجرأة، وإنّما يضعها موضع إنجاز، وبِتَرَوٍّ. لقد قرّر ‹تيميستوكل› (Thémistocle) الهجوم على السّفن الألف الفارسيّة بسالامينيا، (*Salaminé*)، وهو على رأس أسطول يونانيّ بثلاث مائة سفينة، لكنّه يقرن هذه المبادرة إلى خدعة استهدفت شلّ التّفوّق العدديّ للخصم. لقد أدار المعركة بطريقة حوّلت إلى الصفر التّفوّق في العدد. إنّه يعرف، إذن، كيف يتحيّن الوقت المناسب، فيستفيد من المكان والمواقع المتبادلة بين الأسطولين: لقد كان «حذره» حسابا معقولا، وفي الوقت نفسه، جسارة. فكسب النّصر على ‹اكساركاس› (Xerxès). لقد كان نصرا حاسما لإنقاذ استقلال المدن اليونانيّة. وهي كفاية إستراتيجيّة غامضة، لم تكن، وحدها، كافية. لقد كان من الضّروريّ الجمع بين عدّة عوامل. لا بدّ، في البدء، من تصميم على الفعل، الّذي تضطلع به الإرادة، بما هي ملكة الفعل أو الامتناع عن الفعل، ويسمّيها ‹أرسطو›، لهذا السّبب، "قوّة المتناقضات". لا بدّ أيضا من قدرة على المداولة الدّاخليّة، وعلى فكر يحكم، حتّى يزن ويرجّح الإيجابيّ والسّلبيّ، كما هو الحال، بالنّسبة إلى قرار الهجوم أو عدمه، والطّريقة التّي يتمّ بها. كان لا بدّ أن تتدخّل هذه الجرأة التّي تسمح باتّخاذ الإجراء الصّحيح لظرف فريد، تزامنيّا مع تركيبة المعطيات التّي تكوّنه. وممّا لا شكّ فيه، فإنّ مثل هذا الاستعداد لينمّ عن حكمة مكتسبة، هو استعداد دائم طالما صقلناه. وبالنّسبة إلى الوقائع الإنسانيّة، فإنّ جزءا من العوارض يستدعي، دوما، أخذه بعين الاعتبار، ممّا يفسح أمام المبادرة مجالها الخاصّ بها. الحروب ليست قضاء مبرما، ولا المجاعات أيضا. وحكمة الواقع هي أيضا، ابتكار للممكن. ففي جوان سنة 1914، كان السّلم، آنذاك، ممكنا، وإن لم يكن مرجّحا. وقد كانت شجاعة ‹جان جوراس› (Jean Jaures) في أن يلعب إلى الآخر، هذه الورقة، ورقة رفض الاستسلام إلى لغة السّلاح. لقد مات آن ذاك، لكنّ المثل،

من جهة أخرى، باق لا يزول، ولا وجود لحرب تحدث، على طريقة عاصفة هوجاء مفاجئة. والشرّ الذي يلحقه البشر ببعضهم البعض ليس قدرا محتوما.

القدرة على الفهم والقدرة على الفعل

علينا أن نفهم حتّى نفعل بنجاعة، إذ يوفّر لنا الفعل ذاته جُدّاتٍ مهمّة في الغالب، لكي نفهم. ثمّة شيء نموذجيّ في الجدليّة السبينوزيّة، بين قوّة الفهم وقوّة الفعل.

إنّ طريق العقل يبدأ وعرا، في اختلاف ملائم بين زمنيّة الانفعالات التّي تتلو قوّة الفعل، وبين زمنيّة الأفعال التّي تعوقها. وتلعب تجربة الحياة دورا حاسما في هذا الصّدد. إنّ انفعالات المخيّلة المشدودة إلى تلاشي الأشياء الحسّيّة، وتغيّرها المستمرّ، لَتَتْعَبُ أسرع من تلك التّي تتعلّق بأشكال التّقدّم في المعرفة، وفي تنمية القدرة على الفعل. إنّ الذّات الدّاخليّة لتغتني بالثّانية، حتّى وإن شوّشت بالأولى. فمكاسب المعرفة العقليّة تنفرد بقوّتها وثباتها: إنّها تحسم في عدم ثبات تمثّلات المخيّلة. فكلّ تقدّم في تجسيم الرّغبة في الوجود توافقه فرحة دائمة، تعزّز فعليّا قوّة الفهم. إنّ هذا ليفتح على إمكانيّات لضروب جديدة من التّقدّم، بالتّأكيد على القسم الفاعل من التّجربة الإنسانيّة، إزاء السّلبيّة النّاجمة عن هيمنة الأسباب الخارجيّة. إنّها لحلقة فاضلة،[1] تنطلق بما هي ديناميكا للتّحرّر.

إنّ اقتصادا نفسيّا حقيقيّا للفرح المحرِّر يأخذ مكانه بالتّدرّج، وينزع إلى نبذ الإتيقا الملعونة[2] للتطيّر وما يصاحبها من نفي للمتعة الحيويّة. ذلك هو العقل، في يقظته المشوّشة، بادئ الأمر. إنّه ينشأ، عندما تتناسق أولى مكاسب المعرفة والآثار الانفعاليّة التّي تتوافق مع ضروب تقدّم قوّة الفعل. إنّ هذه الأفراح الدّائمة للحرّيّة، وهي في مسارها، تبلغ من الحسن درجة تجعلها تساعد على استبعاد الانفعالات الحزينة. والعقل يكون فيها فرحا بالجملة، إذ هو يقيم علاقة

1- الحلقة الفاضلة: le cercle vertueux عبارة استعملها الكاتب للدّلالة على ما هو مقابل للحلقة المفرغة vicieux cercle

2- الاتيقا الملعونة : كلّ سلوك يتحدّد وفق منظومة مرجعيّة، والاتيقا التي تحقّق الاكتمال للإنسان وتسعده تكون فاضلة وفي المقابل، تكون السّعادة المؤدّية إلى الأحزان والشّقاء ملعونة.

صارمة مع الرّغبة، بما هي الإنسـان، ويعرف ما يصدر عنها، أي الطبيعة برمّتها. إنّ السّـعادة لتنـدرج في الطّبيعة كلّها، كما هي عنـد الرّواقيّين تقريبا. لكنّ المثل الأعلى للانسـجام مع الطّبيعة *convenientia* يأخذ، هنا، معنى الفهم الأقصى، لما يؤسّـس تأكيد الـذّات في الطّبيعة الكاملة. علينـا أن نفهم هذه الطّبيعة في إنتاجيّتها اللّا متناهيّة. إنّ المعرفة التّامّة بالأشياء تنزع إلى إخماد الإحساس بالغربة بين الإنسـان الفرد والتركيبة العامّة للكائنات التّي يوجد ضمنها. إنّها عمليّة تبطّن ديناميكيّ لما يثوي تحت العلاقة بالعالم التّي تكتمل، عندئذ.

هنالـك نصّ رائع يفسّر هـذه المنظوريّة في القضيّة الخامسـة والأربعين من الكتاب الرّابع للإتيقا، حيث يصف «سبينوزا» الجهد الذّي يبذله الإنسان، طيلة تحرّره، حتّى يضاعف من وجوه ارتباطه بالعالم الذّي يمنحه الفرصة للإحسـاس بمشـاعر بهيجة، ولتنمية قدرته على الفعـل. إنّ تنويع التّجربة وثراءها ذا الأبعاد المتعـدّدة يسـمح بالقطع مـع الاحتواء في سـلبيّة حياة راكـدة وأحاديّة البعد («سـبينوزا»، **الإتيقـا**)[1]. إنّ البناء الذّاتيّ للمعقوليّة هـو الجهد للتملّص من صدفة اللّقـاءات، ومـن الصّفة المباغتة لحياة مقـدّرة علينا. وهكـذا، يترتّب بالتّدرّج تنظيم حياة مفصولة أكثرما يكون الانفصال عن العرضيّة. عندها، يأتي الفرح (*Laetitia*) رمزا لاكتمال ذاتيّ ملتزم التزاما تامّا بالفعل، ومصدرا لهذا الاكتمال.

الانفعالات البهيجة

إنّ ديناميّـة من هذا القبيل، في شـكل خطاطة في البداية، هي التّي تسـمح بالخروج، رويدا رويدا، من نظام غيـاب العقل والخوف والاجتماعيّة المتصارعة. تكتمـل نقلة إتيقيّة حقيقيّة، تسـمح بالمرور من نظام حيـاة إلى آخر، ومضاعفة القـدرة على الفهم، والقدرة على الابتهاج والفعل تزامنيّا. إنّه فرح المرور. «الفرح هـو المرور إلى أقصى درجات الكمال.» والكمال هو التّحقّق النّاجز للكائن. مثل أعلى كهذا محايث لحياة كلّ شـخص. إنّ شروط حيـاة بَيْنبَشَريّة معقولة ووديّـة، في آن، هي متوفّرة، طالما يتقدّم هـذا «الانتقال الإتيقيّ». محبّة القريب لم

1- Spinoza, *Ethique*, IV, proposition 45, scolie, p. 263.

تعد تنبع من شـفقة ذات طبيعة دينيّة، بل تأخذ معنى في علاقة بفهم ما يمكن أن يشكّل عائقا أمام اكتماله.

الإنسـان، وقد أصبح عاقلا ومشغولا بتكوين وفاق، أين سيدخل اكتماله الشّخصيّ في علاقـة تبادليّة إيجابيّة مـع اكتمال الغير، لا يمكنـه أن يكره، بعـد ذلك، من مـازال يعيش تحت وطـأة الكراهيّة أو الضغينـة، إذ أنّ هذه الانفعـالات الحزينة تترجم ضعفه الخّاص به. إنّـه يبحث، بالأحرى، بحثا جادّا لمسـاعدته على تغيير وضعه، حتّى تختفي الأغـراض التّي تعبّر عن هذا الوضع، بمعنى أنّه «سـيبذل جهدا حتّى لا يتأثّر إنسـان آخـر، أيضا، بهذه الانفعالات» (**الإتيقا**)[1]. لأجل هذا، يجب أن يتعلّم المـرء تخيّل ما يمكن أن يصير إليه البشر المسجونون الآن، في انفعالات حزينة، لو استطاع ذكاؤهم أن يكتمل. إنّنا لا نقـاوم ضدّ المحنة وآثارها بخطب وعظيّة، ومجرّد نصائح أخلاقيّة أو فكريّة، بل بصرف الجهد لتغيير التّركيبة الاقتصاديّة والاجتماعيّة أو السّياسيّة التّي جعلتها تنشأ. إنّ العنصريّة وَ رُهَابُ الأجانب والتّعصّب، عندما تفهم بأسبابها، فإنّها تهزم بدءا، في مسـتوى هذه الأسـباب. إنّ العقل ليسـتتبع ضربا من ضروب الالتزام ضدّ الظّلم، ومع أفضل نظام ممكن للتّنظيم التّشريعيّ للمجتمع. إنّ إتيقا الحياة العقليّة، المرغوبة والمصقولة لأنفسنا، هي، كذلك، للآخرين جميعا. فالسّعادة الشّخصيّة تغتني وتتأكّد بسعادة الغير.

إنّ الـرّوح العارفة، هي روح فاعلة، من جهة أنّهـا تجعل الوعي الذّاتيّ بواقع مفهـوم فهـما جيّدا يحـلّ داخلها. لأجل هذا، لا بـدّ من جعل مبـدإ مفهوميّتها النّهائيّ بيّنا، أي المجموع الذّي يحدّدها، وأين تندمج بفاعليّة. عندما تتعلّم الرّوح بنفسـها، مع المداومة، عمّا يكون الواقع، ستسـير الأمور، وكأنّ الواقع كان يتجلّى فيها، في تمام حقيقته. لعلم مثل هذا تبعاته على الكائن: إنّه يسـمح بنمائه، وتأكيـده الفرديّ. كلّ وجود فـرديّ ينجلي، هنا، في وضح ما يعيّن موقع هذا الوجود، ويُغْني معيشه الخاصّ بهذا الوضوح الذّي هو تأكيد ذاتيّ، بقدر ما هو فهـم ذاتيّ للذّات، داخل الكلّ. الفكر هو بمثابـة انفعال إيجابيّ: فعمل العقل يحرّر الرّغبة من صيغتها السّـلبيّة. وقبل هذا المجيء، هنالك كلّ هذه الرّحلة

1- Spinoza, *Ethique*, proposition, 46, p. 264.

الوجوديّة لقوّة الفعل، متناسبة مع قوّة الفهم الّتي تنبّه بدورها. إنّها جدليّة إيجابيّة بين الرّغبة والعقل، حيث تكون نقطة الانشباك متفكّرة، انطلاقا من الحياة الانفعاليّة العفويّة: لا شيء غير ذلك يمكن افتراضه، في هذه الحالة، سوى إمكانيّة إعادة امتلاك مدروس لهذه الحياة الانفعاليّة، حسب بناء متدرّج لوضوح عقلانيّ. السّعادة هي في الأفق.

الكرم

يتمثّل الخير الحقّ (*verumbonum*) في الاستعمال الأفضل للقوّة الأصليّة للفاهمة، أي تنمية قدرتنا على الفعل، ممّا ينزع بنا إلى أن نكون أقلّ تبعيّة للأسباب الخارجيّة، قصد تأكيد الجهد *conatus* الخاصّ بنا، وتوسيع ماهيّتنا الفرديّة. يجب ألاّ تؤخذ المتعة، والنفوذ والثّروة، في مثل هذه المنظوريّة، إلاّ على أنّها مساعِدات لأفضل نظام لتحيين الجهد، ومعنى ذلك أن لا قيمة لها في ذاتها، ولا يمكنها أن تُحمل على كونها غايات في ذاتها. بعضٌ من إتيقا المتع العديدة وضروب الرّضا الّتي تشرّف مختلف سجلّات الوجود، تحتلّ موقعا في فلسفة السّعادة هذه، مناقضا كلّيّا للتّطيّر والتعفّف الّذي يحطّ من قيمة المتع الدّنيويّة، بصفة لا شرعيّة.

ومرّة أخرى، يقول «سبينوزا»: «إنّه لمن عمل الإنسان الحكيم أن يستعمل الأشياء وأن يستمتع بها قدر المستطاع (دون الوصول إلى القرف منها، فهذا لم يعد استمتاعا)، أقول إنّه لمن عمل الحكيم أن يستعمل موادّ غذائيّة ومشروبات مستطابة تؤخذ بمقادير معتدلة لصيانة قواه وإصلاحها، كما يستعمل العطور أيضا وروائح النّباتات الخضراء، والموسيقى، والألعاب الّتي تدرّب الجسد، والعروض الفنيّة، وأشياء أخرى من نفس الجنس، أين يستطيع كلّ واحد أن يستعملها، دون أن يؤذي غيره (...) هذه الطّريقة، في تنظيم الحياة، تتوافق تماما، على هذا النّحو، مع مبادئنا، ومع الممارسة المستعملة. إذن، لا توجد، إطلاقا، قاعدة حياة مثاليّة، يوصى بها، أفضل من غيرها، في كلّ الأحوال.» **(الإتيقا)**[1]

1- Spinoza, *Ethique IV*, proposition XLV Scolie.

وهكـذا يتّجه الإنسـان نحـو الحرّيّة، وهو فاهـم فهما فاعلا ما يسـمح له بالتّفرّد والاكتمال في الطّبيعة. إنّه يفكّر ويفعل *ex proprio decreto* (حسـب أمره الخاص)، ويستدير، بعزم، في اتّجاه تأكيد الحياة، التّي لا يخلط بينها وبين التّبعيّة إلى الرّغبات الغائمة، والمتع العابرة. يعرّف «سبينوزا»، مثل «أبيقور»، مذهبا للمتعة عقليّا، يسمح بالعبور خارج تقلّبات النّفس، وبتبنّي نهج في التّصرّف حقيقيّ، هو تأمّل، «لا في الموت، وإنّما في الحياة.» (**الإتيقا**)[1]. إنّه يبعد، في ضربة واحدة، كلّ تمثّل دينيّ لإله غيـور من المتع البشريّة، أو فارضا لـولاء قائم على قرابين وإماتة للجسـد: «من الأكيد أن تطيّرا شرسـا وحزينا هو وحده الذّي يمنع النّهل من المتع. فهل من سبيل أنسب في الحقيقة لإشباع الجوع والعطش من دفع الكآبة؟ [...] لا إله، ولا أحد، غير حسـود، يمكنه أن يستمتع بضعفي وعذابي، لا أحد غيره يـرى الفضيلة في دموعنـا ونحيبنا، وخوفنا، وغيرها مـن علامات عجزنا الدّاخليّ.» (**الإتيقا**)[2]. رهان حاسـم لمثل هذا التّأهيل لخيرات هذا العالم: إنّه ثروة تجربة وجوديّة متنوّعة، متّسـعة لكلّ سجلّات تحقّقها، وهي الشّرط عينه لسبب قـد تحقّـق، حاملا ذكاء من وصـل إلى أقصاه. إنّ متع العيـش الطّيب مطلوبة «حتّى يكون الجسـد برمّته قـادرا، أيضا، على كلّ مـا يمكن يكون تابعا لطبيعتـه، وأنّ النّفـس تكون، هي الأخرى، قادرة، في الوقت نفسـه، على فهم أشياء عدّة.» (**الإتيقا**، IV المرجع السّابق.)

حكمة مثل هذه تفتح، بطبيعة الحال، على شـواغل حياة اجتماعيّة وسياسيّة، تسـمح لكلّ البشر باقتسامها، واستخلاص مبدإ تضامن قوى فعل الأفراد من ذلك. وهكذا، فما يحدث من فرح، جرّاء الشّـعور بالاكتمال الشّـخصيّ، لا يمكـن إلاّ أن يزداد، لا أن يغور، بفعل تقدير قوّة فعل الآخرين. إنّ حرّيتي لا تقف عندما تبدأ حرّيّة الغير، بل، على عكس ذلك، إنّها تكتمل بقدر أفضل، عندمـا تتأكّد حرّيّة الغير أكثر. إنّ هذا التّبـادل الإيجابيّ، بما هو مبدأ التّوافق والصّداقة، أشـير إليه في صفحات رائعة، نذكّر هنا، بالصّيغ الشّهيرة فيها. «إنّ الرّضا عن الذّات (*aquiescentia in se ipso*) هو فرح ناشـئ عمّا يعتبره الإنسان قوّته الخاصّة على الفعل. لكن القوّة الحقيقيّة الخاصّة للإنسـان أو فضيلته فهي العقل

1- Spinoza, *Ethique IV*, proposition 67.

2- Spinoza, *Ethique IV*, proposition 45, scolie.

ذاته.» (**الإتيقا**)[1]. هذه الفضيلة أو العقل يمكن أن تنزاح، منذ البدء، في مختلف أطروحات الكرم، بفعل الاستتباعات الاجتماعيّة للوضوح التي تحملها. إنّه كرم في اقتسام العلم، أوّلا وبالذّات. «فمن يعيش بتوجيه من العقل يحبّ لغيره ما يحبّه لنفسه» (**الإتيقا**)[2]. الكرم، بعد ذلك، هو في موقف التّضامن الذّي يجسّد التّوافق الافتراضيّ، في رابط الصّداقة. «أفهم من الكرم الرّغبة التّي يسعى بها فرد بحكم قيادة العقل وحده أن يرافق بقيّة البشر ويربط بينه وبينهم رابط الصّداقة.» (**الإتيقا**)[3].

يدقّق ‹سبينوزا› أنّ الكرم، وقد فهم على هذا النّحو، يعود إلى قوّة النّفس (باللاتينيّة *Fortitudo*)، لدى البشر جميعا، دون تمييز. هذا الكرم يجازف بالنّفس من جهة أنّها تعرف، ويعيّن بذلك عواطف نشيطة تترجم، في عنصر المشاعر، الاستعداد العاطفيّ للفعل التّابع لفرح الفهم. لا علاقة للكرم، إطلاقا، بالشّفقة، إذ أنّه يتطلّب فهما بالأسباب. وبدل التّذمّر من الواقع، فإنّه يجاهد للفعل فيه، من خلال قوانينه الخاصّة. إنّ التّخفيف من البؤس البشريّ هو تحرير القدرة على الحكم التي فسخها هذا البؤس، والتّدخّل في مستوى الأسباب الّتي أنتجته، في آن.

تكمن ذروة النّظريّة السّبينوزيّة للكرم في الفكرة القائلة إنّ «الإنسان هو الله، بالنسبة إلى الإنسان». وهي تستحقّ اهتماما خاصّا. إنّ الصّيغة لا توحي بتقديس البشر، مهما كانوا عينيّا، بقدر ما توحي بصحوة وعي جذريّة لقيمة إنسانيّة الإنسان التّي لا تضاهيها قيمة، عندما تتجسّم هذه القيمة في البشر على شكل عقل وحرّيّة، فترسم توافقا حقيقيّا. «عندما يعيش النّاس وفق توجيه العقل فقط، فهم يفعلون، بالضرورة، ما هو طيّب، بالضّرورة، للطّبيعة البشريّة، ومن ثمّ لكلّ إنسان، أي ما يتوافق مع كلّ إنسان. وإذن، فالبشر يتوافقون فيما بينهم، دائما وضرورة، باعتبارهم يعيشون بتوجيه من العقل» (**الإتيقا**)[4].

1- Spinoza, *Ethique IV*, proposition 52.

2- Spinoza, *Ethique IV*, proposition 51.

3- Spinoza, *Ethique IV*, proposition 59, Scolie.

4- Spinoza, *Ethique IV*, Proposition 35, Démonstration.

يحلم «سبينوزا» إذن، بذكاء يعود إلى المنبع، إلى المبدإ الأوّل لكلّ شيء. ومن هذا الذّكاء، يؤمّن لكلّ إنسان الإمكانيّة في أن يستمدّ منه فرحا، لا نظير له. الأكيد أنّ الطريق وعر. إلاّ أنّه يؤدّي إلى مكان، أين نتأمّل الطّبيعة برمّتها، كلاّ عظيما يحتوي كلّ شيء، مفهوما تماما في آخر الأمر. كلّ شيء يحدث، كما لو أنّ الطّبيعة كانت قادرة على أن تتفكّر نفسها، في كلّ وعي، توصّل إلى معرفة مّا، يُمَوْقِعُهَا ويعطيها معنى. وهكذا، يستطيع كلّ إنسان أن يجعل المعرفة تحدث لديه، بقدر ما هي حيويّة، فهي ممتعة، فيشارك في الكلّ العظيم، ويتعلّم كيف يحبّه، سواء سمّاه اللّه أو الطّبيعة. إنّه يبلغ طمأنينة تتمّم رضا العيش والفرح المضاعف للمُتع. تُضاء الحياة الكونيّة، حينئذ، في كلّ واحد. إنّها منبع حبّ وسعادة.

القسم الخامس

السّعادة للجميع

حكاية

حلم ‹مانوشيان›[1]

«تزوّجي وكوني سعيدة وتذكّريني أحيانا.»

اسـمه ‹ميسّاك مانوشيان› (Missak Manouchian). أرمينيّ ولد بأداميا، في تركيا، سـنة 1906. أصبح يتيما منذ الصّغر. لقد قُتِلَ أبوه على أيدي الأتراك، وماتت أمّه أثناء مجاعة من المجاعات. تربّى في ملجإ بسوريا. ثمّ وصل إلى فرنسا. اشـتغل عاملا، وعرف البطالة، وانتمى إلى الحزب الشّيوعيّ الفرنسيّ سنة 1934. عصامـيّ. يقرأ ما يسـتطيع، ويتثقّف. يَنْظُمُ أشـعارا، ويكتب تحاليل سياسـيّة. يحتفظ بحنين نضاليّ لأرمينياه البعيدة. لقد اسـتقبلته فرنسـا. وهي الّتي سيدافع عنها ضـدّ المعتدي، في الوقت المناسـب. إنّ الحرّيّة، شرط السّـعادة، لا تتجزّأ. إن جُرِحَتْ، هنا، سـتكون هشّـة هناك، وفي كلّ مكان. إنّ هذه الكونيّة ينزاح بها ‹إيلوار› (Eluard) : «من أفق إنسان إلى أفق الجميع». في فرنسا، تحالف المعذّبون في الأرض ضدّ النّازيّين. لاجئون بولونيّون، أسـبان جمهوريّون مازالوا يحملون رضوض مقاومتهم الفاشـلة، ضدّ الفاشـيّة العالميّة. إيطاليّون يحتفظون بـروح ‹غاريبالـدي›[2] (Garibaldi). هنغاريّـون ورومانيّون وأرمينيّون أسّسـوا مجموعة المقاومين، سـمّيت بمجموعة ‹مانوشـيان›. إنّهم أبطال عاديّون. لا شيء يدفعهم إلى التّضحية، هؤلاء البشر عرفوا بعضهم بعضا، إخوة فيما بينهم، وإخوة

1- ‹مانوشـيان› : شـاعر فرنسيّ من أصل أرمينيّ، وهو قبل كلّ شيء مثقّف ملتزم انخرط في الحزب الشّـيوعيّ وأتس لجنة إنقاذ أرمينيا وأصدر جريدة في الغرض، كان رئيس تحريرها. قتل رميا بالرصاص على يدي النّازيّين.

2- ‹غاريبالدي›: ولد بنيس في فرنسا سنة 1807 وتوفّي في كابريرا بإيطاليا سنة 1882. جنرال ورجل سياسة. يعتبر أهمّ شخصيّة ساهمت في بناء إيطاليا الموحّدة.

لسائر البشر جميعا. إنّهم سينهجون هذا النّهج إلى الآخر. لقد أُوقِف «مانوشيان» في 16 نوفمبر 1943، وكتب رسالة أخيرة إلى زوجته، «مالينا» (Méliné)، في 21 فيفري 1944، قبل أن يُعدم بقليل، رميا بالرّصاص، مع كلّ مجموعته.

السّعادة. لقد كان «مانوشيان» يحلم بها، للجميع. وكان يعرف أنّ السّياسة ليس من دورها أن تقول كيف يكون النّاس سعداء، فما بالك أن تفرض عليهم نموذجا للسّعادة. بل إنّ دورها هو، بكلّ بساطة، أن تمكّن من حرّيّة واقعيّة تجعل كلّ شخص قادرا على الاكتمال، حسب اختياره. وهذا يُعدّ كثيرا بعدُ، ولا يتأتّى، دون عدالة اجتماعيّة، ودون سلم، ودون اهتمام بالصّالح العامّ. هذا لا يتأتّى، أيضا، دون ثقافة، ودون أن يتحرّر حكم كلّ شخص ووعيه. من عمق العصور، يستمدّ المثل الأعلى للأنوار، وصدى حِكم الفلاسفة بُعْدَيْهَا تماما، باكتسابهما طابعا كونيّا للبشريّة قاطبة. إنّه مثل أعلى، دون حدود. لقد خاطب «مانوشيان» الفرنسيّين الّذين كانوا قد تعاونوا مع النّازيّين قائلا: «نحن، نحن قاومنا من أجل فرنسا، ومن أجل تحرير هذا البلد. أمّا أنتم فقد بعتم ضمائركم وأنفسكم إلى العدوّ. لقد ورثتم الجنسيّة الفرنسيّة، أمّا نحن، فقد كسبناها عن جدارة.» لقد خلّد «لويس آراغون» (louis Aragan) حلم «مانوشيان» المحارب والمقاوم، «المحبّ للحياة حدّ الموت»، مستلهما من الرّسالة التي كتبها ميسّاك «مانوشيان» إلى ميلاني. ففي سنة 1955، ألقيت قصيدته «اللّافتة الحمراء» على الجمهور (بالدائرة العشرين باريس)، بمناسبة تدشين نهج مجموعة «مانوشيان». كان النّازيّون جمعوا الصّور الثلاث والعشرين للمقاومين، ضمن لافتة في لون الدّم، لجعلهم منفّرين، حتّى يبثّوا الخوف ويدفعوا إلى كراهيّة المحاربين. لقد غيّر الشّاعر وجه الشّتيمة وأعاد خلق أقوال «مانوشيان». إنّ الأمل يعلو على العذاب، ويفتح له أبواب منظوريّة عالم من العدل.«سعادة للجميع»...

«كلّ شيء كان له لون موحّد، هو لون الصّقيع...
وكان آخر شهر فيفري هو آخر أوقاتكم
وحينئذ، قال أحدكم في هدوء:
"السّعادة للجميع، السّعادة لمن ستُكْتَب له الحياة.
سأموت، دون أن أَكِنَّ في داخلي كرها للشّعب الألمانيّ."

وداعا للألم والمتعة. وداعا للزّهور،
وداعا للحياة. وداعا للضّوء والرّيح.
تزوّجي وكوني سعيدة وتذكّريني، أحيانا،
أنت الّتي ستبقين في جمال الأشياء
عندما سينتهي لاحقا كلّ شيء، سنلتقي في آريفان

شمس شتاء ساطعة تضيء الهضبة
عندما تكون الطبيعة جميلة وينفطر قلبي،
سيأتي العدل مقتفيا خطواتنا المنتصرة.
آه يا ميلانيّتي، يا حبيبتي، يا مُتيّمتي
وأوصيك بأن تعيشي وتنجبي طفلا.»

«*I have a dream*.» «إنّني أصنع حلما.» لقد كان حلم «مارتن لوثر كينغ» (Martin Luther king) حلما بالسّعادة أيضا، عندما طلب السّود الحقّ في عدم الميز، بحيث يجب ألّا يدخل لون البشرة في الاعتبار، في كلّ مرّة تتاح فرصة للاختيار، وألّا يلجأ من بيده السّلطة إلى مدّ شخص بمرآة مقرّرة «لاختلافه». مات مارتان، مات مقتولا. واليوم، في بلدان «متحضّرة»، يتسبّب مجرّد اسم في حرمان صاحبه من شغل أو سكن. وبعض البشر، مثل النّساء بالأمس الّلاتي كنّ يُحْسَبْن على «الجنس الضّعيف»، يصطدمون بسقف من زجاج.

علينا ألّا ننسى أحلام «مانوشيان»، و«لوثر كينغ».

السّعادة للجميع.

الدّرس الثاني عشر

الحرّيّة

النّوع البشريّ

يتسلّى الطفل بلعبة الارتدادات. لقد أبصر ذات يوم الماء الرّاكد لبركة يحيى فجأة، في شكل موجات زرقاء متداخلة لا تحصى ولا تعدّ. الحجارة الملقاة من الحافّة، بالتّماس مع المرآة، كانت قد قفزت ستّ مرّات. حفل بالهمس كان قد جمع الماء بالسّماء في عينيه الزائغتين، إلى حين تعود الأمور إلى نصابها. لقد كان فرحا بسيطا جدّا: استفزاز للطّبيعة، حتّى تلعب دورا سحريّا. وقد فهمت الطّبيعة ذلك حرفيّا، فكرّرت [إحداث] الموجات العارضة. لقد انبعثت الحرّيّة في التّصرّف والنّظر إلى الذّات في الأثر آنذاك، انبثقت ببساطة تامّة، وقد كانت قويّة قوّة لا شكّ فيها. سعادة أولى. سعادة في الجري والضّحك، في اللّعب الجدّيّ والعمل بكلّ سرور، في استعمال الكلام، دون حدود، في التّوقّف عند الضّحكات، وفي المشي، كما لو كان رقصا... تتنفّس الحياة انتشاء بكلّ ما هو متاح. إنّها الحرّيّة.

في محتشد، أين تساق عائلات برمّتها إلى الموت، حرص أب أن يخلّص ابنه من المعنى المفرط في البداهة، حول القهر الّذي ينظّم اليوميّ. لقد جعله يعتقد أنّ الأمر يتعلّق بضرب من المسرح، أين يلعب كلّ شخص دوره بكلّ دقّة. الإنسان هو الّذي يريد أن يقرّر في شأن المعنى، وهو الّذي يقاوم، ضمن هذا اليوم، مثلما يحدث في الثقة الطفوليّة الّتي تستسلم، هنا، لما يحدث. لكنّ

التّحويل عسير، وقد يستحيل الدّفاع عنه. إنّ المظاهر لا تتناسب جيّدا مع الوهم الّذي يغيّر وجهها.

لا بدّ للنّظر أن يتحرّر - وتنزّله سذاجة الطّفل ضمن تاريخ خياليّ – حتّى لا يكون للعبثيّ، واليوميّ والشّيطانيّ الكلمة الأخيرة. كلّ هذا، إذن، ليس إلّا لعبا، وكلّ ما يحدث يعاد النّظر إليه بهذه الطريقة، وحتّى يكون ذلك طيّبا، هكذا، بالنّسبة إلى وعي الطّفل. يتحرّر الإنسان بعد، بفضل النّظر الّذي يلقيه على الأشياء. الوعي الّذي يغيّر الوجوه هو واقعيّ، بالتّأكيد، على قدر سواد الأسلحة وشناعة كوميديا المحكوم عليهم الّذين يلعبون لعبة التّخبئة مع الموت. ومع ذلك، تتحدّى التّراجيديا هذا الهروب التّائه، تجاه المعنى. الممثّلون لن يقفوا من كبوتهم في آخر المشهد. الشّيطان يقاوم، لا ينصاع. والسّذاجة البريئة للطّفل، ومعنى اللّعب والضّحك لديه، وعيناه المشدودتان، تشهد على حياة بقيت وفيّة لوعودها. يعتقد الطّفل فيما تقوله له الإنسانيّة، وهي مازالت بعد، سيّدة نفسها. لكن، هل يمكن مغالطته حقّا، في شأن هذه العدميّة الّتي تطال البشر أكثر من غيرهم؟ إنّ النوع البشريّ عينه هو الّذي ينقلب. إنّها جريمة في حقّ الإنسانيّة، كما تراها المحاكم. الطفل لا يمكن أن يبقى مغفّلا، لمدّة طويلة. إذن، يشيع في نظرته حزن، دون حدود، هو ظلّ لما يستعصي على الفهم.

يشهد ‹روبار أونتالم› (Robert Antelme) على جحيم المحتشد قائلا: «أن يقول المرء بأنّه كان يشعر حينئذ، أنّه مطعون فيه من جهة كونه إنسانا، ومن جهة كونه عضوا من هذا النّوع، فذلك يمكن أن يبدو بمثابة شعور ارتداديّ وتفسير لاحق لما حدث. ومع ذلك، فقد كان ذلك أكثر الأحاسيس حسّيّة ومعيشة مباشرة، وهذا بالضّبط، ما كان يريده الآخرون. إنّ وضع مسألة نوعيّة الإنسان موضع نظر، تثير مطلبا بيولوجيّا، تقريبا، هو مطلب الانتماء إلى النّوع البشريّ. وهي تفيد، بعد ذلك، في تأمّل حدود هذا النّوع، ومسافته الّتي تربطه «بالطّبيعة»، وتأمّل ضرب من عزلة النّوع البشريّ، وفي الأخير، وبالخصوص، يساعد ذلك على تصوّر رؤية واضحة لوحدة الإنسانيّة الصّمّاء.» (النّوع البشريّ)[1].

1- *L'espèce humaine*, Gallimard, 1957, page 11

«الحرّيّة أوّلا وأخيرا» (‹فيكتور هيغو›)

لن يكون لأيّ فكر عن السّعادة مصداقيّة، دون انتباه إلى ما يتهدّدها، أو يقدّمها على أنّها ليست ذات قيمة. لا يمكن لمواطن العالم أن يخفي الألم والاضطهادات. هذا ما تقتضيه النّظرة الجليّة. «الحرّيّة قبل كلّ شيء» هي الخاطرة الّتي كان الجنرال ‹لاهوري› (Lahorie)، المعارض للتّجاوزات المتسلّطة للإمبراطور نابليون، كان قد ذكرها لـ‹فيكتور هيغو› (Victor Hugo) الطفل، أيّاما قلائل، قبل أن يسقط تحت رصاص فرقة تنفيذ الإعدام. جملة كانت قد أدخلت وسواسا على حياة الشّاعر ومعاركه. «يولد النّاس أحرارا ومتساوين من جهة الحقّ، ويستمرّون على هذا النّحو». المولد. الحرّيّة متأصّلة. وهذا يعني بأنّ فيها شيئا من الملكة العفويّة للطّبيعة. إنّها ليست خيرا من الخيرات يمكن تركه ثمّ العثور عليه من جديد. يذكّر ‹روسّو› بذلك. الحرّيّة هي خصيصة الإنسان. إنّها تدلّ على إنسانيّته، في أعمق أعماق الكائن. يعيشها المرء، مع طلعة الصّبح، في بساطة تنفّس الحياة. إنّها السّعادة الأولى. يجب أن نذكر ذلك لحظة يغرينا النّسيان.

الوعي بما هو معقل المبادرة هو الّذي يكون في البدء، حرّا. إنّه قلعة داخليّة، حسب الرّواقيّين، يعلنون بأنّها منيعة. لا أحد يستطيع الاستيلاء على وعيي الّذي يعيش ضياؤه الكثيف داخل نظرتي. إنّ الجهد الّذي يصرف للاحتفاظ بهذه الحرّيّة الدّاخليّة هو الدّربة الفلسفيّة بامتياز. ويتأكّد معناه في حياة المدينة، عندما يتعلّق الأمر بالتّفكير تفكيرا صائبا والتّصرف بعدل، مثلما يكون التّصرّف الشّخصيّ بحكمة.

الحريّة... يجب ألّا يغيب عنّا اللّفظ الّذي يهب الوعي للحركات الطّبيعيّة، ولهذا الجسد الّذي يكتشف لنفسه سبيلا للفسحة، ولهاتين العينين اللّتين تشربان شفافيّة الأشياء، وإلى هبّة النّسيم الّتي تنعطي وتبهج. الحرّيّة. لكن، يمكن للوعي أن يتهالك بآلام الجسد، وبالظّلم الّذي يثيرها. حرّيّة أخرى، لا بدّ منها، تخلّص من التّهديدات وضروب العنف. هي حرّيّة القول وحرّيّة الفعل، حرّيّة المشي أو البقاء مستريحا، حرّيّة العمل وبناء الذّات، ورسم طريقنا دون

وصاية. حرّيّة السّـير في الطّريق، دون قلق، ودون الانقباض الدّاخليّ الصّادر عن الاحـتراس أو الخوف. إنّنا نفكّر في هؤلاء النّسـوة المهدّدات، لأنّهنّ عبّرن عن إرادتهنّ في أن يكنّ مسـاويات للرّجال، ويرفضـن كلّ ما يعوق هذا التّطلّع. نفكّـر في اضطهاد بلد محتلّ، يكون فيها كلّ صوت حرّ نصرا. «بول إيلوار»، وفي ما وراء هذا اللّيل الحاضر لاضطهادٍ من هذا القبيل، يستحضر اللّفظ، إحياء لذكـرى كلّ ما يدلّ عليه، في اللّحظة عينهـا الّتي تكون فيها الحياة الجريحة عاجـزة عن التّفكير فيه تماما. الحياة حلوة... الحياة ههنا، واثقة وهادئة، لاقيناها تحت السّواد والجراح، تحت حدّة الآلام والأيادي المُتَقَبِّضَةِ، عند رؤية الطغاة. هِبَةٌ خفيّة، متسـترّة تسـترّ النَفَس، ولطف يد أليفة، الحياة شاهدة، إنّها حضور بسيط جدّا، يصفه «بول إيلوار» في قصيدة «الحرّيّة»:

«على الصّحّة العائدة
وعلى المجازفة الذّاهبة
وعلى الأمل، بلا ذكرى
اكتب اسمك.
وبسلطان كلمة
أعيد حياتي من جديد
ولدت لكي أعرفك
لكي أسمّيك
حرّيّة.»

الاستقلاليّة

هاهـو دُوَارُ الممكنـات يحلّ بنا. أنا حرّ. هل أجـازف؟ يمكن لقلق الحرّيّة أن يبـدو ثقيل الحمل. علينا أن نقرّر، لا ما نفعله فقط، ولكن أيضا ما نكون، وما سـنكونه. من منّا لا يحبّ أن يكون سـعيدا؟ الرّغبة في أن نكون تتوافق مـع الوضعيّات المتعدّدة للحياة. الفرح والحزن يتناوبـان، على قدر قابليّة الرّغبة للتّحقّـق أو عدم التّحقّق. تستكشـف المخيّلة، وتسـتبق، وتبحـث. هي ذاتها يمكن أن تشعر بكونها متجاوزة، عاجزة عن الإشارة إلى سبيل، لا شبهة فيها.

لقد نبّه «كانط» إلى ذلك، لا للإحباط، لكن للتّأكيد على أنّ السّعادة هي إبداع حرّ لكلّ شخص. فلا وجود لقاعدة تحدّد طبيعتها، ولا عدد العناصر الّتي تتألّف منها الحياة السّعيدة. فلكلّ شخص أن يختار، على طريقته، هذه العناصر، وأن يركّب حياته بالتّأليف بين سجلّات الاكتمال، على هواه. وحرّيّته الأساسيّة في أن يفعل ذلك، في حدّ ذاتها، من جهة أخرى منبعا للرّضا. والمهمّ أن تُتاح له فرص اكتشاف هذه السّجلّات، حتّى لا يكون اختياره، من المنطلق، انعكاسا للحدود الأوّليّة. إنّ احترام الأفراد واحترام استقلاليّتهم الإتيقيّة التّامّة، يؤدّي إلى فسح المجال لاختيار نمط حياتهم، واختيار الطّريقة الّتي يكونون فيها سعداء. لقد كان «روسّو» يقول بعد: «على الدّولة أن تجعل البشر في حالة يكونون فيها [سعداء]، إن كانوا عقلاء.» (**مقاطع سياسيّة**)[1].

عندما يصطدم المرء بصعوبة الاضطلاع بحرّيّته، ورسم طريقه، قد تراوده، في بعض المرّات، فكرة الاستسلام إلى ما يمليه أيمّة الضّمائر[2] المحدثين وتجّار الجنّة الأرضيّة. إنّه أفيون الكلمات والوعود. لقد أدّى مطلب الحرّيّة بـ«كانط» إلى رفض كلّ وصاية في السّياسة رفضا جذريّا. إنّ صيغة، من هذا القبيل، لا تفيد الأشخاص ولا الشّعوب. والصّفحة التّالية شهيرة، إذ تقول: «الحرّيّة، بما هي حرّيّة الإنسان، أعبّر فيها عن المبدإ الّذي توفّره لبناء جسد مشترك في صيغة: لا أحد يستطيع أن يجبرني على أن أكون سعيدا على طريقته (صيغة يفهم ضمنها طيب عيش سائر البشر). لكن من المتاح لكلّ واحد أن يبحث عن سعادته من خلال أفضل سبيل يراه، شريطة ألّا يضرّ حرّيّة الآخرين، في أن يتّبعوا غاية مماثلة، يمكنها أن تتوافق مع كلّ واحد بناء على قانون كلّيّ. (أي إذا لم يضرّ بحقّ الغير). إنّ حكومة مبنيّة على مبدإ الطّيبة، تجاه الشّعب هي شبيهة بطيبة أب، إزاء أبنائه، أي هي حكومة أبويّة (*imperium paternale*)، أين يكون الرّعايا إذن، مثل أطفال قُصّر، غير قادرين على التّمييز بين ما ينفعهم بحقّ، وبين ما يضرّهم، فيختزل دورهم في مجرّد انتظار سلبيّ للحكم الوحيد، هو حكم قائد الدّولة الّذي يقرّر كيف يجب أن يكونوا سعداء، وأنّه يسهر على حسن

1- Rousseau, *Fragments politiques*, VI, 8.

2- Directeurs de conscience إشارة إلى دور الأشخاص الذين يلعبون دور الدّاعية والذين يسدون النّصائح إلى المجموعات. البشريّة.

الاهتمام بسعادتهم، من منطلق طيبته وحدها: إنّ حكومة كهذه هي من أعتى أشكال الاستبداد الّتي يمكن تصوّرها. (دستور يلغي كلّ حرّيّة الرّعايا، فيصبحون بمقتضى ذلك مجرّدين من كلّ حقّ)» (**النّظريّة والتّطبيق**)[1].

يشتقّ من هذه الحرّيّة المفهومة على هذا النّحو رسم صارم لمدار القوانين، أي حقّ القوّة العموميّة في رقابة الأعمال البشريّة. لقد كان «روسّو» يقول، من قبل، إنّ الأعمال الّتي «لها أهمّيّة، بالنسبة إلى المجتمع»، هي وحدها الّتي يجب إخضاعها للقاعدة المشتركة. فالحقّ، في هذا الصّدد، لا يمكنه أن يفرض أيّ شيء على المواطنين، حتّى وإن ألزم القوّة العموميّة، لكي تكون حاضرة حضورا مرضيّا، لتضمن لكلّ شخص شروط بلوغه الحرّ للسّعادة. إنّ الهويّة الشّخصيّة هي بناء حرّ، ولا شيء له الحقّ في أن يقرّر مسبقا ما ستكون عليه مسبقا. ليس للقوانين أن تملي نماذج، ولكن عليها أن تمنع، فحسب، التّصرّفات التي لا تتوافق مع تعايش الحرّيّات. إنّ احترام الحرّيّة الإتيقيّة يفترض ألّا يفرض القانون أيّ نمط من أنماط التّحقّق الخاصّ، ولا تفضيل واحد على آخر، اللّهمّ إلّا باستثناء مبدإ المساواة. هذا يعني، على سبيل المثال، أنّ المعاشرة الحرّة لا يمكن اعتبارها أقلّ شرعيّة من الزواج، أو من الجنسانيّة المشدودة إلى الإنجاب أو إلى أيّة صيغة مخصوصة. وفي المقابل، يمنع المعيار كلّ التّصرّفات الّتي تنال من حرّيّة الغير، أو كرامته: فتقتصر العقوبة على من لا يحترم القانون المشترك. ويعرّف هذا القانون في احترام الشّأن الخاصّ.

لا وجود لسعادة حقّ إلّا في الحرّيّة. إنّها حقيقة بسيطة إلى أبعد الحدود، ومع ذلك، منسيّة في الغالب.

الانعتاق

الخطوة الأولى، على درب مغامرة الحرّيّة، هي خطوة إنسان وحيد. فالمراهق المتحرّر من الدّيوان الأبويّ (منسوبيام الرّومان *Le mancipium*) يصبح كائنا مستقلّا، على مستوى الحقّ، على الأقلّ. والمُنْعَتق، بالمعنى المدنيّ والقانونيّ، هو

1- Kant, *Théorie et pratique*, édition Vrin.

ذاك المستعدّ إلى تذوّق الرّضا، لعلمه بأنّه سيّد قراراته. إنّه سيتولّى زمام وجوده. وهو محتاج لذلك «أن يكسب لقمة عيشه»، بالمعنى الخاصّ للعبارة، أي أن يؤمّن لنفسه ما به يعيش، و ألاّ يكون تابعا لأحد. لكنّ هذا لا يصبح متاحا، إلاّ في ظلّ عالم اجتماعيّ يعلّمه العلاقة بالآخر ومتطلّباتها. هذا العالم يتصدّى له، ويساعده معا. إنّه فرصة لتأكيد الذّات. لكن، يجب فهمه، رغم ضبابيّته، وعنفه، في بعض الأحيان.

لقد كانت المدرسة مناسبة للتّدرّب على التّفكير والتّعلّم، بالانفتاح على العهود السّحيقة للتاريخ. إنّها مناسبة للتّثقيف وفتح الأفق. التّثقيف[1] هو تحويل المعطيات الخامّ للأرض، حتّى تكون مورد عيش. والأمر كذلك، بالنّسبة إلى العلاقة بالنّفس. والتّثقّف هو التّحوّل ذاتيّا، ليصبح المرء سيّد أفكاره. وحتّى يتأكّد هذا الميلاد الجديد، فإنّ الميل إلى سعادة الفهم يعاش، على أنّه ضرب من الحدث الدّاخليّ. إنّ الانعتاق الفكريّ والأخلاقيّ يعطي الانعتاق المدنيّ قوّة، لا ريب فيها في البدء، وهي منبع أفراح جديدة. الإنسان الحرّ، وقد أصبح سيّد أفكاره، يتعلّم الاستمتاع بوعيه، وبتنوّع سجلاّته. إنّه يكتشف نفسه قادرا على جعل ارتباطه بالعالم متنوّعا. وهو يميّز بين ما يعرفه وما يعتقده، وبين ما يدركه وما يتخيّله. والمجتمع الحاضر لم يعد يفرض عليه، على أنّه إقامة، دون معين ولا آفاق. إنّه انعتاق الشّخص برمّته يتواصل ويبنى.

إنّها سعادة فلسفيّة، تُمَفْصِل بين القدرة على الفهم والقدرة على الفعل. إنّ الفرد الّذي يكون سيّد نفسه ينفتح على الإنسانيّة جمعاء. لقد أكّد الحكيم الرّواقيّ على هذه الفكرة الجميلة. فالعود إلى الذّات ليس نفيا للانخراط في العالم، ولكنّه معرفة التّخلّص من النّوبات التّي تصاحبها والانفعالات التّي تروّض البشر على أن يكونوا أعداء لبعضهم البعض. سيلاقي المرء، حينئذ، الإنسانيّة جمعاء بهذا التّحرّر الدّاخليّ الذّي يخلّص من الاضطراب. عليه أن يفكّر، واضعا نفسه مكان أيّ شخص آخر، كما قال ‹كانط›. إنّ هذا الاختبار الخياليّ ليسمح بالتّمييز بين ما ينتج عن منظوريّة ذاتيّة خاصّة، وما

1-في حين أنّ التّثقيف في العربية لا يفيد خدمة الأرض، وهو يعني حرفيّا في اللّغة الفرنسيّة خدمة الأرض cultiver التّثقيف

يمكن أن يضطلع به أيّ إنسان، بغضّ النّظر عن إغراءات المكان والزّمان. أن يفكّر المرء بنفسه هو أمر يعود فعليّا إلى نفس الاقتضاء. فلكي يكون سيّد أفكاره بحقّ، لا بدّ أن يحرّر نظره، بالفعل، من أوهام اليوم، وأن يعرف إن كان بالإمكان الحكم بنفس الطّريقة، عندما ستتغيّر الأحوال. وهذا يعني، على وجه الخصوص، أن يبقى المرء في وفاق مع نفسه. هذا الوفاء هو منبع رباطة الجأش. وهو، بمعنى مّا، منبع الرّضا، من جهة ما يربطنا بأحزان العالم. إنّه على طرفي نقيض، مع انقباضات الدّغمائيّة. توجد في هذه الممارسة للحرّيّة الدّاخليّة، سعادة فكر يسمو إلى الكونيّ. لقد عرف كيف يتخلّص من وطأة الظّروف الخّاصة، والانفعالات المحدثة للاضطرابات، دون أن يكفّ، مع ذلك، على الإحساس بها. ينفتح الفكر على الأخوّة، وهو باق على وعيه، بشكل من الأشكال، بأنّه مشدود إلى مصير مفرد. إنّ الفرح بالعيش معا ليس متعارضا مع متعة المتجوّل الوحيد. ذلك هو، ولا شكّ، الدّرس الرّائع للفلسفة أيضا.

إنّ المثل الأعلى للحرّيّة لا يرتبط بأيّة فلسفة مخصوصة. فالفلسفة تعاود الدّفاع عنه وتوضيحه، دون انقطاع. إنّه صيغة مدروسة للثقافة الكونيّة. تجاهد لكي تضع مسافة بين وهم اللّحظة والأحكام المسبقة للمكان. إنّه يتأكّد، باستمرار، على أنّه فنّ عناية المرء بأفكاره الخّاصة، على نحو يجعله يتخلّص من حدود التّجربة المعيشة. من هنا، يكون مشروع التّجديد الدّائم لجلاء فاعل، جلاء لا يمكنه إلاّ أن يتوافق مع مطلب الحقّ، كلّف ذلك ما كلّف.

ولنضرب مثالا على ذلك. إن كان «ديكارت» يؤكّد على الطّابع المؤسّس للذّات المفكّرة والوعي الحرّ الذي يعرّفها، فلكي يعترض على مبدإ السّلطة الّذي اشتقّت منه العديد من المذاهب الظّلاميّة. إنّ **مبدأ العقل والفحص الحرّ** هو منبع انعتاق الأفراد والمجتمعات أيضا، يعود الفضل في قسم أساسيّ منه إلى هذه الفلسفة الّتي وسّعت في التّجربة الدّاخليّة للحرّيّة، إلى حدّ التّصرّف في الحياة. وإذا عمل «سبينوزا» على التنبيه إلى أنّ **القدرة على الفهم** تتناسب مع **القدرة على الفعل** التي تغذّيها بدورها، فلكي يذكّر بأنّ الذّات الحرّة والمتحكّمة في أفكارها لا تنبني إلاّ على الشّروط التي تساعد على اكتمالها. طريقتان نقابل

بينهما، غالبا، والحال أنّ لكلّ واحدة منهما حقيقتها، إذ تجعلان مقتضيات متساوية في الشّرعيّة بيّنة.

توجد، في المثل الأعلى للحرّيّة، فكرة **الكرم**، مثلما عرّفها «ديكارت»، واستعادها من بعده «سبينوزا»، ليجعل منها مبدأ توافق نشيط. فالإنسان، حسب هذه الفكرة، يتأكّد، بما هو كذلك، في الكيفيّة الّتي يستعمل فيها استعمالا حرّا الأشياء التي لم يخترها، في البدء، وفي شجاعة الاضطلاع بهذه الحرّيّة. ممّا ينزّله من حيث المبدأ، فوق الأعراف والمعتقدات الخاصّة، والانتماءات والمصالح الحصريّة. فيسمح له هذا التعالي باستبقاء السّيطرة على أفكاره، والاضطلاع بأيّ اعتقاد، مع [ترك] المسافة الدّاخليّة الّتي كان الرّواقيّون يجعلون منها مبدأ الحرّيّة ذاته. إنّ **الكرم**، الذي يخلّص من الذّاتيّة الضّيقة ضيقا مفرطا، يمكنه، حينئذ، أن يفتح الفرد على المجتمع. فللحرّيّة معنى، بالنّسبة إلى الآخر، كما بالنّسبة إلى الذّات نفسها. والمساواة التي تتأكّد، على هذا النّحو، تُحْيِي الرّابط الاجتماعيّ، لكي يغذّي بدوره الاكتمال الفرديّ. لقد أعطى «سبينوزا» إلى هذا الكرم تأويلا خاصّا يحقّق تضامن حرّيّات الأفراد. فالبشر يستطيعون تأمين أفضل شروط الازدهار الحرّ، لكلّ فرد من الأفراد، عندما يكونون مع بعضهم بعضا، منطلقين من تعبير الفرديّات. إنّ صحوة الوعي هذه تتغلّب على الإغراءات الوضيعة التي لا يمكن أن تغنم منها أبدا، إلاّ كراهيّة الذّات. «إنّ الغبطة الحقّ والطّمأنينة ليستا، بالنسبة إلى كلّ شخص، إلاّ هذا الاستمتاع بالخيرات، وليستا في هذا النّصر بأن يكون المرء هو وحده، دون سواه، المستمتع بهما. فأن يعتبر المرء ذاته ممتلكا لطمأنينة أعظم، فعلا، لأنّه الوحيد، في وضعية حسنة، أولأنّه يستمتع بطمأنينة أعظم، وأنّ له الحظّ الأوفر قياسا إلى الآخرين، معناه أنّه يجهل الغبطة الحقّ والطّمأنينة.»

وباختصار، أن تحبّ لغيرك ما ترضاه لنفسك، هو ذا اكتشاف منابع السّعادة، على نطاق آخر، وهو تملّص المرء كفاية من أشيائه المفضّلة وانتماءاته، حتّى يكون الكونيّ أفق الإنسانيّة ومنبعها، في آن. هذا الكرم هو أفضل ترياق ضدّ التّزمّت والتعصّب، ولكن، أيضا، ضدّ كلّ إرادة تطالب بامتيازات باسم اختيار روحانيّ خاصّ. ففي منظوريّة، مثل هذه، يعلن عن إعادة التّأسيس

اللّائيكيّ للرّابط المدنيّ والسّياسيّ، كما يعلن عن مبادئه. إنّ حرّيّة الضّمير مدعومة بالقدرة على الفهم وفرح تنمية هذه القدرة. مساواة بين الجميع، دون تمييز على أساس المعتقدات الرّوحيّة أو الإتيقيّة للحياة الشّخصيّة. كونيّة القانون المشترك والتّشريعات العامّة مرصودة للخير العامّ، دون سواه. إنّ الانعتاق اللّائيكيّ ليدمج السّجلاّت الكبرى للانعتاق البشريّ، ويتوّجها. وله جزء مرتبط بالانعتاق الاجتماعيّ الّذي يعدل بين الجميع.

العيش معا

تُكَوِّنُ الحياة الاجتماعيّةُ الإنسانيّةَ. ويمكن أن تكون منبعا للسّعادة أو التّعاسة، نظرا للتنوّع الّذي هي عليه. لقد نزّل ‹أرسطو› و‹ماركس› المدينة، في قلب الاكتمال البشريّ، وأنْكَرَا أسطورة الفرد المعزول، في البدء، والمكوِّنِ لرابط اجتماعيّ بقرار. لقد كان ‹ماركس› يسخر من «الرّوبنسونيّات»[1] الّتي كانت تتخيّل، في القرن الثامن عشر، الإنسانيّة البدائيّة، على شكل أفراد معزولين، كوّنوا بالتّدرّج رابطا اجتماعيّا، باجتماع بعضهم مع بعض. لاشّك أنّهم أخطأوا، عندما وقفوا على الدّلالة الحرفيّة، لإعادة تشكيل كان الغرض الذي وجدت من أجله سجاليّا، أكثر منه وصفيّا وتاريخيّا. لقد أراد روسو أن يضع ضربا من المعيار، بإعادة التّفكير في المجتمع، انطلاقا من خيال نظريّ، أين نتخيّل البشر أحرارا، قبل أيّ مجتمع سياسيّ، لكي يستنتج المجتمع العادل، من المقتضيات التي تؤمّن للبشر حرّيّة أساسيّة. ومع ذلك، فالتّأكيد على أنّ المنطلق الحقيقيّ كان مجموعة من الأفراد المعزولين المتفرّقين هو وهم، يمكن أن يؤدّي إلى كراهيّة للطّبيعة الحقّ للحرّيّة في المجتمع. فإذا سمح لي تقسيم العمل بالتّمتّع بشروط وجود يستحيل الحصول عليها بمفردي، وأنا معزول في الطّبيعة، فهذا يدعو إلى التّسليم بوجود تنظيم أدنى، هو الّذي يسمح بتعايش الفرديّات. إنّ الحقّ يُمْنَحُ، هنا، لتجنّب سلطان القوّة.

إنّ الحياة الجماعيّة هي واقع أصليّ، بيّن تماما. والمواطن والإنسان يغتني أحدهما من الآخر، على نحو متبادل. ولا يمكن فهم حقوق الإنسان في المجتمع، إذا ما

1- Robinsonnades : نسبة إلى ‹روبنسون كروزواي› الذي عاش في جزيرة وحيدا.

فهمنا إعادة بنائها، انطلاقا من أفراد يتمتّعون بحرّيّة طبيعيّة، متناسبة مع عزلتهم. فالأفــراد، وهم في عزلتهم [هذه]، ليس لهم، حينئذ، من حدود، لأفعالهم ســوى قواهم. وهي تتغيّر من الأفضل إلى الأســوإ، ومعها حرّيتهم، باعتبارها قدرة على الفعــل. إنّ الحيــاة الاجتماعيّة المنظّمة، وفق نظام ســياسيّ، يمكــن أن تفهم على أنّها ما يضع حدّا لمثل هذه الهشاشة، وضروب القلق النّاجمة عنها، إذ أنّ الإنسان القويّ والنّشيط، لا يوجد في الطّبيعة، إطلاقا. إنّه ليس إلاّ بطل اللّحظة الرّاهنة، إذ أنّ مرضا مّا، أو حادثا ســينال من هذه القوّة، وســيقلّص بنفس القدر الحرّيّة الّتي تعبّر عنها. يجب، حينئذ، تعريف قواعد الحياة المشــتركة، بشــكل يجعل كلّ فرد حرّا، على قدر الاستطاعة، في كنف احترام نفس الحرّيّة لدى الغير.

إنّ التّطلّــع إلى الحرّيّــة يترجم في الدّعوة إلى حقــوق المواطن، كما هو الحال في الدعوة إلى حقوق كلّ كائن بشريّ. فالمواطنون هم الذين يتّخذون ســيادة القــرار، في أن يجتمعوا، ضمن مجتمع قائم على الحقّ، ويعرّفون المبادئ المؤسِّسَــة الّتي ستسمح ببنائه.

فرح التعلّم

تقتــضي المدينة مواطنين حقيقيّــين، قادرين على التّفكير بأنفســهم، وأغنياء بإنســانيّة متحرّرة من الحدود الّتي يســعى تقسيم العمل إلى رسمها. لا بدّ لكلّ شخص أن تكون له إمكانيّة أن يصبح ما هو قادر عليه. بهذا الشكل، تتأكّد أيضا، المرجعيّة الأرفع للحكم على المظالم الحقيقيّة، والمصائب النّاجمة عنها. إنّها، ولا شــكّ، فكرة مّا عن الإنســان، متصوّرة، لا باعتبارها نموذجا، وإنّما مثلا أعــلى مرجعيّا، تدخل في الحســبان. من وجهة النّظر هذه، يؤسّــس التّعليم العامّ التّربيــة على الحرّية: «المدرســة هي المكان الذي نذهب إليــه لنتعلّم ما نجهله، أو مــا نعرفه على نحو خاطئ، حتّى نســتطيع الاســتغناء عــن المعلّم، في الوقت المناسب». (جاك مقليوني، **الفلسفة والمدرسة، معركة واحدة**)[1].

1- Jacques Muglioni, *Philosophie, école, même combat*, Paris; 1984, PUF, p. 20

وهكذا، فإنّ مشروع اكتمال ناجح لا بدّ أن يكون مسبوقا بثقافة مدرسيّة، وبعد كونيّ لانفتاحه على المجال الأرحب للنشاط الإنسانيّ. يجب أن يكون كذلك أيضا، ولا شكّ، بفضل الشّروط التي تفتح على المعارف والخبرات.

يصوّر «أفلاطون» في محاورة **المينون**، شابّا يافعا، يكتشف بنفسه حقيقة من حقائق علم الهندسة.

يجري الحال، أثناء تعلّمه، كما لو أنّه لا يتعلّم شيئا إلاّ من نفسه. من هنا، كان تمثّل المعرفة على أنّها تعرّف، وعلى أنّها تذكّر. لا شكّ أنّ العون الّذي يقدّمه المعلّم «سقراط» لازم لشدّ الانتباه إلى **معطيات المشكل** (كيف نحصل على مربّع مزدوج من مربّع معطى؟). لكنّ عمل التّذكّر لا ينجزه إلاّ ذلك الشّابّ. إنّ عقله الطّبيعيّ، وقد استثير الاستثارة الملائمة والوجهة السّليمة، اكتشف الحلّ، بما هو حقيقة من باب تحصيل الحاصل، ولم تكن تنتظر، عموما، إلاّ من يتقبّلها بالوعي. وهذا ليس التّنصيص الدّقيق للمعرفة التي سنحصل عليها، والّتي هي معلومة مسبقا. إنّها هي، بالأحرى، تمشّ ذهنيّ منتج للمعرفة الّتي تنجلي. لقد كانت مسجّلة بالقوّة في كلّ فكر. لا أحد يمكنه أن يفكّر مكاني : ذلك هو المعنى الجذريّ للتّعلم.

إنّ تحرير الحكم هو، إذن، قرين للتّعلّم، وهو الّذي يوفّر أساسا حاسما للتّربية على الحرّيّة. فالتّلميذ الّذي توصّل إلى الفهم، بفضل نفاذ ذكائه الخاصّ وحده، والانتباه الّذي صرفه لذلك، يبلغ فرحا داخليّا يجعله يكتمل. نصّ جميل لـ«سارتر» يذكّر بذلك : «يتخلّل، دوما، نشوة الفهم، فرح إحساسنا بكوننا مسؤولين عن الحقائق الّتي نكتشفها. ومهما يكن المعلّم، لا بدّ من زمن يكون فيه التّلميذ وحيدا، أمام المشكل الرّياضيّ. فإذا لم يصرف فكره إلى إدراك العلاقات، وإذا لم ينتج بنفسه الفرضيّات والخطاطات الّتي تنطبق جميعها، على أنّها شبكة على الشّكل المعنيّ والكشف عن البنيات الأساسيّة فيه، وإذا لم يحدث أخيرا إلماعة [فكر] حاسمة، ستبقى الكلمات علامات ميّتة. وسيحفظ كلّ شيء عن ظهر قلب. هل يمكن أن أشعر، أيضا، إذا ما فَحَصْتُ نفسي أنّ التّفكّر ليس نتيجة آليّة لتمشّ بيداغوجيّ، وإنّما مصدره إرادة انتباهي

وحدها، ومداومتي، ورفضي للارتخاء أو التّسرّع، وأخيرا فكري برمّته، والرّفض الجذريّ لكلّ العوامل الخارجيّة. هذا بالتّأكيد الحدس الأوّليّ لـ«ديكارت». لقد فهم، أفضل من أيّ شخص كان، أنّ أقلّ تمشّ فكريّ يلزم الفكر برمّته. إنّه فكر مستقلّ استقلالا ذاتيا، يطرح، لدى كلّ شخص في أفعاله، وفي استقلاليّته العامّة والمطلقة.» (**وضعيّات**)[1].

ينتج فرح الفهم شيئا من قبيل نموّ للكينونة، في اتّجاهين : تقدّم في تحقّق الذّات وما يتولّد عن ذلك من ثقة، وأيضا، سموّ إلى فكر أكثر جلاء وأفضل حسما. إنّ الجلاء الوجوديّ المتناسب مع القدرة على الحكم المستقلّ، يصبح ميسورا. من السّخف والخطإ، إذن، أن نعارض بين التثقّف والتّربية، اللّهمّ إلاّ إذا احتفظنا، لكلّ واحد منهما، بإحساس مشبوه. عندما يفهم التثقيف جيّدا، يكون أساسا مهمّا للحرّيّة ولاكتمال الذّات، وهما نفس الشيء، في آخر المطاف.

«جعل العقل شعبيّا»

لقد رسم «كوندورساي»[2] (Condorset) برنامج تحرّر عقليّ لكلّ البشر، وهو يتخيّل تثقيفا عموميّا قادرا على «جعل العقل شعبيّا»، قصد إعطاء كلّ حظوظه، ليس إلى المواطَنة فحسب، ولكن أيضا، إلى الاستقلال الذّاتيّ الّذي يسمح بتوجيه حياته، بتبصّر. إنّ تذوّق الحقّ ومعنى ما هو قيّم، بالنسبة إلى الإنسان، أمران مقترنان اقترانا كبيرا. والجهل هو سلطان المفاسد، بما في ذلك ما يخصّ الشأن الإتيقيّ. السّعادة، حينئذ، هي أفق، لا يمكن لأيّة صيغة مطلقة أن تكون مفروضة في هذا الشأن، لكنّ الحكم المستنير لفائدة الجميع مهمّة موكولة إلى الجمهوريّة. فتكوين الإنسان، على قدر تكوين المواطن وتثقيفه، يدخل ضمن تصوّر إنسانويّ ونقديّ للمدرسة[3]. لا يمكن للسّعادة أن تكون هدفا بيداغوجيّا، وحتّى إن كان كذلك، فلا يمكنه أن يكون، إلاّ بطريقة

1- Sartre, *Situations*, 1, Paris, Gallimard, 1947; «tel», p. 61-62

2- «كوندورساي»، مفكّر وفيلسوف ورياضيّ فرنسيّ، ولد سنة 1743 وتوفّي سنة 1794. يعدّ من الشّخصيّات المرموقة والفاعلة في عصره.

3- **المدرسة** : للمؤلّف كتاب صدر له تحت عنوان **المدرسة** *L'école* وآخر صدر تحت عنوان **اللاّئكيّة من أجل المساواة**، يطرح فيهما مسألة التّربية في علاقة بحرّيّة المعتقد وقيم الجمهورية حرّية، أخوّة، عدالة.

غير مباشرة، عن طريق مطلب ثقافة تخلّص إنسانيّة الإنسان من الحدود الّتي تثقل عليه، بحكم العوامل الاجتماعيّة. لم تبتكر المدرسة لكي تضطلع بالصّيانة العاطفيّة، وتتحوّل بذلك إلى محضنة، لكن، لكي تحرّر الحُكْمَ، حتّى يستطيع البشر أن يستغنوا، يوما مّا، عن المعلّم، تُتَصَوَّر الحرّيّة، حينئذ، على أنّها الشّرط الأساسيّ للسّعادة.

وبإيجاز، إنّ التّكوين التّامّ للشخص يمنح السّعادة كلّ حظوظها، بتأمين الاستقلال الإيتيقيّ والعقليّ. في هذا المستوى، تلتقي الفلسفة الإتيقيّة، وهي ملتفتة إلى التّعريف الجليّ لفنّ العيش، مع الحقّ، المحترم للاستقلاليّة، ومع السّياسة المنهمّة [بتوفير] الشّروط المادّيّة والاجتماعيّة، لجعل التّحرّر الإنسانيّ ممكنا، ومع التّربية التي غايتها التّحرّر العقليّ والثّقافيّ، لكلّ البشر.

الدّرس الثالث عشر

العدالة

الرّجاء

أيّـة سـعادة، عندما يغور الأفـق، ولا تكون الجدران المحيطـة بنا، إلاّ مرآة رماديّـة، تـذوب فيها الشّـمس؟ إنّ اليأس، سـواء أكان فرديّـا أو جماعيّا، هو الإحسـاس بكوننا في سجن، عنف الحدود الّتي تبدو عصيّة على التّجاوز. يجب التّخلّص منها، وعيش الثقة مجدّدا. إنّ الثّقة هي قرينة مراهَنة على المستقبل، ومثلما جعل ‹أفلاطون› ‹سـقراط› يتحدّث عن هذه المراهنة، بعد محاكمته، فهي مجازفة جميلـة نقبل الدّخول فيها. من أين يمكن أن تأتي هـذه الثّقة الأوّليّة، أو من أين تولـد من جديد؟ إنّها تولد من تذكير ممتع، يهمس به الفلاسـفة في آذان أناس منبوذين، أو فارّين من تذوّق العيش. الإنسـانيّة حرّة في أن تعيد تعريف نفسـها، إذ يمكنهـا، دائما، أن تكتمل، عـلى نحو آخر. لقد كان ‹كانط› يؤكّد على ذلـك، **في مقدّمات حـول بدايـات التّاريـخ**[1]، أين يذكر رضاء الإنسـان بمثل صحوة الوعي هذه: «إنّه يكتشف في ذاته قدرة على أن يختار لنفسه تصرّفا خاصّا به، ولا يكون مرتبطا، مثل سائر الحيوانات، بتصرّف أحاديّ» (**فلسفة التّاريخ**)[2].

إنّ ‹أرسـطو› هو، ولا ريـب، أوّل من فكّر بطريقة جذريّـة في هذه القدرة. فالإنسـانيّة، بالنسـبة إليه، توجد أوّلا، بالقوّة، قبل أن توجد بالفعل. إنّه ضرب

1- Kant *Conjectures sur les débuts de l'histoire*.

2- *La philosophie de l'histoire*, Gonthier-Médiations, Paris,. 1965, p114.

من الوعد الصّامت، تعبّر عنه نظرة طفل بكلّ عمق. كلّ إنسان يستحضر، أثناء اكتماله الحركيّ، المنابع الّتي لا ترجع إلاّ إليه وحده. وبلوغ هذا المسار يحقّقه هكذا بطريقة حيّة. إنها قوّة، وقد تحوّلت إلى الفعل. «يُقال العيش بمعنيين اثنين، العيش بالقوّة، والعيش بالفعل. وفي الحقيقة، نقول إنّ الحيوانات «ترى»[1] هو بمعنى مّا، [يشمل] كلّ الحيوانات الّتي تتمتّع بحاسّة النّظر، وتكون قادرة بالطّبع على الرؤية، حتّى وإن حدث، إن كانت الآن مغمضة العينين، وهو بمعنى آخر، دالّ على الكائنات الّتي تستعمل ملكاتها، أي تُثَبّتُ حاليا نظرها على شيء مّا...»[2]

وهكذا، ليس البشر ما يمكنهم أن يكونوا عليه، دفعة واحدة. إنّهم يتميّزون بما يسمّيه ‹روسّو› لاحق الكماليّة. إنّ «عدم اكتمالهم» هو عيّنة شرط كلّ ضروب تقدّمهم. إنّ هذه القدرة على أن يبني المرء نفسه، بشكل أكثر كمالا، هو قلب الحرّيّة. نفهم، حينئذ، أن شروط الاكتمال تكون مصيريّة، لتسمح للقدرات الكامنة للبشريّة أن تحدث في كلّ إنسان، بما في ذلك، في الحالة التي يكون فيها مستعبدا، فهو يحلم بنفسه، على الأقلّ، أنّه حرّ. يقول ‹سارتر› ذلك، بقوّة : على المرء أن يعيش وضع عبوديّته، بما هو إنسان حرّ. فالبحث عن العدالة هو طريقة لعدم الاستسلام إلى تعاسة الأزمان.

الوقت الحرّ

عودة إلى البعد الأساسيّ للوقت الحرّ، وإلى النّشاط الحرّ، للاكتمال الإنسانيّ. يميّز ‹أرسطو› بين الإنتاج (بويزيس Poïesis)، أين تكون الغاية خارجة عن النّشاط المنجز، وبين الفعل (براكسيس Praxis) الّذي تكون غايته في الفعل ذاته، ويسمح، باعتباره كذلك، بالازدهار الحرّ للإنسانيّة. وبما أنّ الإنسان ينتج ما يسمح له بالعيش، فإنّ اكتمال الذّات يفترض الإنتاج، بما هو شرطه الأوّل. لكن، يمكن تصوّر هذه التبعيّة على طريقتين. ففي المجتمعات الّتي تسود فيها رابطة هيمنة بعض البشر على آخرين، ينزع الوقت الحرّ الأساسيّ أن

1- استعمل الكاتب الجمع voient في حين لا يستقيم الأمر في اللّغة العربية لأنّ الفاعل حيوانات (جمع غير العاقل).
2- *Protreptique : fragment 14.*

يكون وقفا على الطبقة المهيمنة، حتّى وإن استطاعت الطّبقة المهيمن عليها، أن تحصل على حصّتها منه، بفضل نضالاتها. وفي المقابل، ففي مجتمعات ترفض هذا النّوع من الهيمنة، أو تلطّف منها، يعتبر النّشاط الحرّ بمثابة حقّ لكلّ إنسان، حتّى وإن بَدَا وضعه الحاليّ جاحدا لهذا الحقّ.

إنّ تحقّق الذّات، مبدئيّا، يتكوّن من عدّة سجلاّت. لقد أكّد ‹أرسطو› والفلسفة الإنسانويّة على المنزلة الّتي يحتلّها الفكر في جوقة أنماط الاكتمال. يقول ‹أرسطو›: «ولد الإنسان لأمرين :لكي يفكّر، ولكي يتصرّف من جهة كونه إلها فانياً.» إنّ التّقسيم الاجتماعيّ للعمل، المنظّم وفق روابط هيمنة اجتماعيّة، يمكنه أن يشوّش الفكرة الكامنة في كلّ إنسان، والقائلة بأنّ حلول الإنسانيّة يتطلّب وقتا حرّا يمكّن الإمكانات الغنيّة الكامنة فيه، وقد صقلت لذاتها، أن تبلغ كلّ مداها. كذلك، فهي تجعلنا نعتقد بأنّ بعض البشر، فقط، مزوّدون بالإمكانات الأكثر غِنًى. مظهر خادع مركّب، يخلط بين الوضعيّات الاجتماعيّة وإمكانيّات كلّ شخص. فأن يفكّر المرء في الشّروط الاجتماعيّة للسّعادة معناه التّحرّر من مثل هذه المظاهر الخدّاعة.

وهكذا، تشير فكرة **الوقت الحرّ** الأساسيّ (وهي بالإغريقيّة السّكولاي La *scholè* [العبارة] المحبّبة إلى ‹أرسطو›) إلى الوضع الأساسيّ للاكتمال الحرّ للبشر، وهي تمثّل الوجه المعاكس لكلّ الوضعيّات الاجتماعيّة الّتي تنزع إلى الاستغراق التّامّ للحياة في العمل المفروض: فأشكال الاستعباد، والسّخرة، أو البروليتاريا، هي وجوه شتّى ومتمايزة، لهذا الاغتراب. وفكرة نشاط حرّ، وممارسة متخلّصة من أيّ قسر خارجيّ، هذا ما يمكن أن توخي به العودة إلى السّكولاي *scholé* الحرّة، والوقت الحرّ، الّتي تظهر، حينئذ، على أنّها ضرب من التّذكير، بما يمكن أن تكون عليه الوضعيّة الّتي جعلت للبشر جميعا، حتّى يتمكّنوا من الازدهار. فأهل اليونان، وهم في الغالب سجناء الإيديولوجيا الّتي ترى في العبوديّة حقيقة متجذّرة في الطّبيعة، لم يتصوّروا هذا المثل الأعلى للوقت الحرّ، إلاّ لبعض البشر، البشر الأحرار المتميّزين عن العبيد، لكنّ هذا الحصر لا ينقص شيئا من قيمه المثل الأعلى: إنّه يظهر، بالأحرى، من أجل أن يكون، أي أن يكون حكما مسبقا يُتَجَاوز، بتصوّر ما خصّ به التّبرير الإيديولوجيّ القائم

على علاقة هيمنة بعض البشر، فيكون ملكا مشاعا لجميع البشر. أليست مهمّة الفلسفة هي، ولا شكّ، التخلّص من الأحكام المسبقة، في كلّ عصر، أحكامٍ مسبقة محفورة في التّمثّلات العاديّة للبشر.

السعادة المشتركة

لقد حدث في يوم أن أفشى «غراكشوس بابوف» (Gracchus Babeuf) فكرة السّعادة المشتركة، على أنّها مبرّر وجود [حركة] إعادة التّأسيس الثّوريّ. لقد كان ذلك، من أجل إحياء سبيل يواجه القمع، وليس لابتكار شكل جديد للتّبعيّة. لقد كان يقصد فعليّا الشّروط العامّة لسعادة كلّ شخص، وليس الإلزام بأن نكون سعداء على شاكلة واحدة. إن سياسة السّعادة، عندما تفهم على هذا النّحو، كان عليها أن توفّق بين الحرّيّة والعدالة. لقد قالها «روسّو»، بما أوتي من قوّة. لا يمكن للحرّيّة أن تكون، دون ضرب من ضروب المساواة. «ليس لأيّ مواطن، على الإطلاق، أن يكون له من الثّراء، ما يسمح له بشراء إنسان آخر، ولا يوجد أحد إطلاقا، على قدر من الفقر، إلى درجة كونه يضطرّ لبيع نفسه.» (**في العقد الاجتماعيّ**)[1].

هنالك وضعيّات فزع تؤدّي ببعض البشر إلى التّنكّر، لوعود الإنسانيّة الّتي يحملونها في ذواتهم، وكأنّه تنكّر بمحض إرادتهم. يترجم هذا التّنكّر عن يأس صامت، حتّى إنّ المرء لا يعيشه إطلاقا، كما هو، بطول المدّة. لقد أصبحت الاستقالة مظهرا يوميّا، حتّى تحوّل الظّلم إلى قدر محتوم، يقضي على منظوريّة السّعادة. يمكننا، حينئذ، أن نعتبر أنفسنا أحرارا بحقّ. بقي أنّنا لم نعد نشعر بكوننا قادرين على استغلال هذه الحرّيّة، وأنّه لم يعد لدينا الشّجاعة لذلك. ليست الحرّيّة أن نقول أو نفعل، فقط، دون منغّصات. فهي ليست حقيقيّة، إلاّ عندما تكون سلطة فعليّة، تضطلع بها الإرادة، عندما تتهيّأ لها فرصة التّجسيم. يجب أن يستبقي وعي التّطلّعات الشّرعيّة، لأيّ كائن بشريّ، مآل مثل هذه الإرادة، في كلّ كائن بشريّ.

1- J.- J. Rousseau, *du contrat social*, livre II , chap. XI.

إنّ ارتباط السّياسة بالسّعادة هي قصّة قديمة. لقد كان «أرسطو» يريد أن تهتمّ المدينة بحسن الوجود، لا بحفظ البقاء فحسب. كلّ الوضعيّات التّي تُدِيمُ لأناس كُثر، وحتّى لقلّة قليلة قمعا، أو اغترابا مُعيقا، ستكون حينئذ، مرفوضة، بما أنّها قمع أو اغتراب معيق. لا يمكن للمرء أن يكون سعيدا في كلّ الأحوال. ولا بدّ للسّياسة أن تتصرّف، على نحو يجعل كلّ إنسان قادر على الاستمتاع بالحياة، وبحياة إنسان مفهومة في تمامها. إنّ كونيّة مطلب مثل هذا يُعلن عنه، بكلّ إجلال، في إعلانات الحقوق التّي تقول، بصوت عال، ما يجب أن يعود إلى كلّ كائن بشريّ، أخذت كرامته في الاعتبار.

كلّ البشر مزوّدون باستعدادات تمكّنهم من الاكتمال. وهنا، يجد النّظام السّياسيّ شرعيته المؤسّسة، وجدول المطالب الّذي يحاسب على أساسه. وهكذا، يمكن لكلّ مواطن أن يقارن بين ما هو كائن، وما يجب أن يكون. إنّ لديه مِحكّا، لكي [يبني] أحكامه، ويكفّ عن الخضوع التّقليديّ لقدريّة الهيمنة أو الاستغلال. هذه المعرفة بالحقوق، المعلنة على الملإ برصانة، والمكتوبة للتخلّص من التّأويل الاعتباطيّ، تمثّل السّلاح العقليّ لمقاومة كلّ ضروب القمع. إنّها تكشف لا شرعيّتها، وتؤسّس للحقّ في العصيان. وهي تقدّم رفعة التّطلّع، وقفزة الحياة، بديلا عن الحزن المفروض الّذي كان يتّخذ صورة القدر. القول بأنّ السّعادة لم تعد، على الإطلاق، امتيازا، أو بالأحرى، لا يجب أن تكون كذلك، يوسّع من [دائرة] وعود الفلسفة إلى البشريّة جمعاء. تغزو السّعادة مجال السّياسة، لا لكي تفرض مهمّة غريبة بالنّسبة إليها، لكن، لكي تهبها منظوريّتها الأكثر صرامة.

لقد رأى «القدّيس غوست» (Saint Just) في ذلك مثلا أعلى، دون حدّ، مثل كلّ فتوحات الحرّيّة والعدالة: «السّعادة فكرة جديدة في أوروبا.»، إذ يتعلّق الأمر بالقطع مع التبريرات التّي تجعل من بؤس الشّعوب وحزنها واقعا مرسوما، بالطّبع، في نظام الأشياء، بقدر ما هو واقع غير قابل للتّجاوز. إنّ منظوريّة اكتمال كلّ شخص تعطي لفتوحات الحقوق السّياسيّة، وانبثاق السّيادة الشّعبيّة، ركيزة دائمة لها، وتضفي عليها معنى في آن. فمن ذا الذّي يمكنه أن يهب الحياة للمدينة، إن لم يكونوا أناسا، هم أسياد أنفسهم وازدهارهم؟

وفي المقابل، كيف لأناس مثل هؤلاء أن يوجدوا، إن لم يكن ذلك في ظرفيّة تنظيم اجتماعيّ وسياسيّ مبنيّ على العدالة؟ يمكن أن يبدو غريبا عيش نسيان السّعادة، بما هي أفق للسّياسة، على أنّه أمر مفيد في بعض الأحيان.

السّعادة المهدورة

يكتشف البشر، يوما مّا، أنّهم ليسوا سوى «موارد بشريّة». مصنع يغلق أبوابه، رغم أنّه سبق أن قدّمناه على أنّه مصنع نموذجيّ، في أرقى درجات التّقدّم: آخر صيحة للحداثة المنتجة.

لقد سبق لهؤلاء أن بنوا وأسّسوا عائلة، ونظّموا حياتهم، وتعوّدوا على معالم وأخذوا جدّاتهم. لقد ابتدعوا مسكنهم، وعقدوا روابط، وهيّؤوا مشهدا أصبح مألوفا: وباختصار، لقد كانوا يعيشون عيشة البشر، قريبا من المصنع. لقد كان الحيّ المحيط به متضامنا معه، إنسانيّا، بمعنى أنّه دافئ وبسيط. كانت الدّكاكين تبتسم، وطلعات الصّبح تعد بالشّمس. شدّت الحديقة، قرب المدرسة، انتباه الأطفال. وفي الكواليس، كان النّاس يتبادلون التّحيّة، من رصيف إلى آخر، وقد كان الطّريق موطن لقاء، تدريجيّا من الحيّ إلى المدينة، ومن المدينة إلى الجمهوريّة، ينشر العيش معا لغته الأخويّة، في الخفاء. كان النّاس يعتبرون أنفسهم شركاء لبعضهم البعض، مستعدّين لإقامة الحفلات الأكثر بهجة، مع بعضهم البعض، حفلا بلغة الحياة اليوميّة، وهذه النّظرات التّي تشعّ بثقتهم المتبادلة في بعضهم البعض. لقد كانوا، دوما، على استعداد لمؤازرة بعضهم البعض، في أبسط الأشياء وأشدّها تعقيدا. لقد تجسّد عالم مشترك بين هؤلاء.

ذات يوم، وعلى خلاف كلّ التّوقّعات، وفي اتّجاه معاكس للبيانات الزّاهيّة بالألوان [المكتوبة على ورق] مصقول، والّتي كانت تحثّ النّاس على المجيء للعمل في المصنع الأكثر ما يمكن أن تكون عليه الحداثة، مع الوعد بمستقبل مشرق بطبيعة الحال، على عكس كلّ ذلك، أعلن عن غلق المصنع. حكم لا رجعة فيه. والتّصوّر الّذي كان لها عن الرّيادة لم يستطع مقاومة العرض المغري لنقل مكان المصنع، إلى أرض فيها الأجور زهيدة. وعلى عمّال المكان

أن يرحلوا. يسـمّى هذا في اللّغة الوقحـة للكلبيّة اليوميّـة، «مرونة». رحيل... نتصوّر الأمر، على أنّه الأكثر يسرا في العالم. إلى جانب الأمتعة، إنّه شـغل محلّيّ للقرين، ومدرسة يلاقي فيها الأطفال أقرانهم ويمارسون فيها عاداتهم، ومسكن مشترى بقرض، بخس ثمنه فجأة، إذ سيكون قريبا ضمن المنطقة المجاورة لقفر صناعيّ. ستغلق الدّكاكين قريبا، وسيصبح النّهج قفرا. سيغرق الحيّ برمّته في الحرمان. يا لها من مرونة...

يضغـط النّاس على قبضة أياديهم. فهل مـازال بالإمكان رفعها، في النّضال الاستعراضيّ، أين تُعاش العزلة جماعيّا؟ أيّ رجاء، عندما يقال في كلّ مكان، إنّ العالم يسـير على هذا النّحو، وإنّه لا يمكـن أن يكون على نحو آخر؟ لقد أخـذ التّمرّد مأخذه، والجميع معا، تصاعدت الحرارة إلى أفئدتهم. سـيكون لنا ذلـك، على الأقلّ. القبضة مرفوعة، قبضة من قالـوا لا، لأنّهم قالوا، في البدء، نعم للحياة، وقبلوا هذا العمل، وتبنّوا هذا المصنع. قانون الاقتصاد المزعوم، دون ملاذّ أو بديل. إنّه قانون الرّبح يشـتغل على غرار قانون سقوط الأجسام. سقوط العاطلين عن العمل، ضحايا «التّقدّم»، ضحايا لا مفرّ منهم. إنّهم يضغطون على قبضتهم. لقد اتّخذ الخطاب العاديّ، لكلاب الحراسـة الجدد، لطف البداهات المكرّرة، بهدوء. «لا بدّ أن نعـرف كيف نتحرّك». تُضْغَطُ الأيادي، مرّات ومرّات. وريح غيم رماديّ، ليأس عالم عصفت بين واجهات مألوفة. ريح منفى، أين اجتمعت عائلة، في يوم دون شـمس، عـلى الرّصيف تنتظر. رحيل متضمّن في الحـزن. في اتّجاه أبعاد، دون ذكرى. ريح منفى، دون حدود، بينما كبار هذا العالم يشقّون السّماء، ويخطّطون لمرونتهم في قسم رجال الأعمال [من الطّائرة].

عدالة أم إحسان

لقـد كانت الحقوق المكتسـبة من قبل، ترسـم السّـيطرة الاجتماعيّة على الاقتصاد. لم يعد الزّمن، زمن شغل الأطفال، الّذي كان ‹فيكتور هيغو› يتحدّث عنه في «ميلونكوليا» «*Melancholia*». «أين يذهب كلّ هؤلاء الأطفال الّذين لا يعـرف أيّ واحد منهم طعم الابتسـامة؟» لم يعد الزّمـن على الإطلاق، زمن ورشـات يكاد الهواء فيها لا يكفي، لكـي يتنفّس العمّال. لم يعد الزّمن زمن

الشـغل الضّائع، بين عشـيّة وضحاها، ولا زمن الصّحّة في مسـتويين، ولا زمن الشّغل، دون منظوريّة. لقد كانت القوانين تعطي وجها إنسانيّا لمنطق المبادلات. يقول ‹روسّو›: «وفعلا، بما أنّ قوّة الأشياء تنزع، دائما، للقضاء على المساواة، يجب على قوّة التّشريع القانونيّ أن تنزع، دوما، إلى الحفاظ على هذه المساواة.»

وفضلا عن ذلك، فباسـم المبادرة الحرّة والمسؤوليّة، اعتبرت قوانين العدالة هذه بمثابة قوانين مسـاعَدَة، وقوانين مديونيّة أحاديّـة الجانب، ولقد ابتكرت حتّـى لغة للحطّ من قيمتها – **امتيـازات** حلّت محلّ **الحقـوق**، كما لو أنّ إعادة توزيـع الثّروات، من أجل مزيـد تثمين العمل، هو من باب الإحسـان، وكما لو أنّ القوانين الاجتماعيّة التّي فرضت على الرّأسـماليّة مسـحة إنسانيّة، لم تكن سوى «عناية إلهيّة» شبيهة بالمنّ الأسطوريّ[1] الذّي سقط من السّماء. تغيير الهيئة، والحالة هذه، يخادع. فهو يجعلنا ننسـى مصدر الحقوق. إنّها طريقة يسيرة، بالنّسبة إلى من ينتجون الثّروة، ليجعلوا أنفسـهم متضامنـين، دون عون من الخارج. إنّ الحمايـة الاجتماعيّة، كـما كان يدقّق هيغل، ليسـت، على الإطلاق، إحسـانا عرضيّا تتبرّع به سـلطةُ وصيّ. إنّه اسـتعادة الإنسـانيّة الدّقيق لما منحته قوّتها إلى ضعفها بدافع الاحتياط. فأيّام العافية التّامة تتوقّع أيّام المرض والضّعف. فيستعدّ المرء، حسب إمكانيّاته، إلى شوائب الدّهر. وهكذا، يستمتع، حسب حاجاته، بهذا التّضامن المبنيّ على هذا النّحو. إنّه صرح رائع، ينقل الكرم الفلسفيّ: وإذا بتقديـر الذّات هو انفتاح على الآخر، في مقابل منطق أَعْـطِ تُعْطَ للثّقة الطّوعيّة الفرديّـة – التّي تنسـب الاهتمام إلى المجموع. وأيضـا، في مقابل، تناقض غريب للإيديولوجيا اللّيبراليّة الاقتصاديّة الصّارمة الّتي تشـجع على المسؤوليّة الفرديّة، التّي تريد أن يضطلع كلّ شـخص بمجموع ما ينجم عن مبادرته. ومع ذلك، فالفائـزون بالصّفقـة الكبرى يخلّفون أعباء تُحَمِّلُ المجموعـة الثّمن الاجتماعيّ للبطالة أو التّلوّث. وباختصار، فهم يستمتعون بمساعدة لا تصرّح باسمها، حتّى أنّهم ينكُرون، ههنا، مبدأ المساعدة.

1- المنّ **الأسـطوريّ** ترجمـة للفظ manne : هو طعـام اليهود عندما تاهوا في الصّحراء. لقـد ثار بنو إسرائيل في صمت وعندما جاعوا في الصّحراء أنزل عليهم الله طعاما أسكت الأفواه.

في محطّة من محطّات المترو، وعلى أحد المقاعد، أخذ النّعاس شخصا ليس له مأوى قارّ، تدلّ ملامحه على أنّه إنسان مريض وبائس. وفي هذا المكان، يمكن أن نقرأ، أحيانا، على معلّقة إشهاريّة عملاقة «سنكون مخطئين، عندما نحرم أنفسنا».

الحقّ في السّعادة

يخلّص تدبير السّعادة الاكتمال البشريّ من حدوده. عندها، لا يمكننا البقاء صامتين، إزاء الظّروف الّتي تلغي حقّا المساواة في الحقوق، في حين أنّ القوانين الاقتصاديّة المزعومة تتحرّر من كلّ مقتضى اجتماعيّ. تبدو هذه القوانين القهريّة والمفروضة فوق الشكوك، وكلّ احتجاج يُجْهَضُ هنا بالخضوع لمناخ العصر. أن يَعرف المرء كيف يقول لا... عندما تأخذ تَركة العالم مجراها، يكون استحضار السّعادة المشتركة شبيها بالحنين إلى كلّ الآمال الّتي خابت. إلاّ أنّ الفكر الحرّ يجب، حينئذ، أن يجعل نفسه مباغتا، كما كان يذكّر بذلك «نيتشه».

إنّ الحديث عن الحقّ في السّعادة، هو، بادئ ذي بدء، تذكيرٌ بأنّ السّعادة هي، افتراضيّا، حاضرة في كلّ كائن، وأنّ إمكانها، كلّيٌّ، ويجب الاعتراف به. من هنا، يكون من واجب السّلطة العامّة، لا أن تصنع سعادة البشر - فهم وحدهم المهيّئون لذلك، وإنّما أن تجعل الحدوث الحرّ لهذه السّعادة أمرا ممكنا. إنّ الحقّ في السّعادة، وقد فهم على هذا النّحو، لا يمكن أن يعفي شخصا من مجهوده الخاصّ.

لقد كنّا على صواب، عندما أكّدنا على البعد الحرّ والشّخصيّ بامتياز لبلوغ السّعادة. لكن، نخطئ عندما نبحث هنا عن ذرائع للتّأكيد على أنّ السّياسة يجب ألاّ تهتمّ بالسّعادة. فمن السّهل التّركيز على كاريكاتير لاستنقاص اهتمام من هذا القبيل، وذلك بذكر [ما فعلته] الأنظمة الدّكتاتوريّة الّتي زعمت صنع سعادة البشر، بوجه من الوجوه، غصبا عنهم، وقد ولّدت، في واقع الأمر، أشكالا جديدة من الاستعباد. إنّ «تدبير السّعادة» يمكن أن ينجو من المحاكمات السّيئة، إن تمّ التشبّث بتعريفها تعريفا يتوافق مع المبادئ الأساسيّة للحقّ، والمقتضيات الاجتماعيّة الّتي تمنحها حياة حقيقيّة.

يذكر «ماركس»، في **مخطوطات 1844**، أنّ أجمل أثر فنّيّ لا معنى له، بالنّسبة إلى إنسان يتضوّر جوعا، ويؤكّد أنّ إنسانيّة الإنسان تتطلّب أنسنة الإطار الّذي يعيش فيه حتّى تكتمل، يقول: «لا توجد صيغة إنسانيّة للطّعام لدى إنسان يتضوّر جوعا، وإنّما، فقط، توجد لديه فكرة مجرّدة عن الطّعام... فالإنسان المهموم والمحتاج لا يمكن أن يعير اهتماما لأجمل مشهد.» (**مخطوطات 1844**)[1]. نحن نعرف أن «فيكتور هيغو» استبدل عبارة البؤس بعبارة البؤساء، عندما فكّر في إعطاء عنوان لأشهر رواية من رواياته. وقد عمد إلى ذلك، لأنّ البؤس، في نظره، ليس قدرا مكتوبا في نظام الأشياء البتّة. فلا وجود إلاّ لأناس بؤساء. يبدو أنّ الكلمة هي، في ذاتها، كأنّها سقطت في دائرة النّسيان، في زمن آخر، غير زماننا، مع فارق بسيط هو أنّنا قد نكون بؤساء بأشكال مختلفة. فمن زاوية ما يتيحه التّقدّم العلميّ والتّقنيّ من إمكانات للاكتمال، فإنّ عدد البؤساء الجُدد فادح، في عالم يدّعي الحداثة. ذلك أنّ منطق الاستغلال يبدو، اليوم، قد استعاد بالجغرافيا ما افتقده بالتّاريخ، بكسر المكاسب الاجتماعيّة، أينما وجدت، وبلعبة التّقسيم العالميّ للعمل، الّذي يتيح إعادة بناء شروط الاستغلال، في بلدان العالم الثالث، لما كانت له نجاعة، في أوروبّا، في القرن التّاسع عشر: أي تشغيل الأطفال، الحدّ الأدنى للحماية الاجتماعيّة أو انعدامها تماما، وأوقات عمل لا تتوافق مع ازدهار البشر.

من هنا، تكون الانتفاضة إزاء المنعرج الذي اتّخذه العالم، والتي لا يحقّ لنا الخطأ في تقديرها. وجه غريب لحداثة، دون حياء، أين تتمفصل ليبراليّة اقتصاديّة متصلّبة، مع فردانيّة حقوقية بيّنة، وتصوّر إحسانيّ وإنسانويّ لمعالجة الفقر، الكلّ يُكوّنُ خليطا لعواطف طيّبة، تجعلها الشّدائد المفرطة في الواقعيّة والمتولّدة عن هذا النّظام عديمة الجدوى، بوجه خاصّ. ظرفيّة مثل هذه تحفّز إلى قراءة فردانيّة لإعلان حقوق الإنسان والمواطن لسنة 1789، مقترنة بنظرة صوريّة للمدنيّة. إنّ الاعتراف القضائيّ الوحيد، بالحقوق، يبدو أنّه يكمن في حبّ الصّالح العامّ، أو على الأقلّ، في اختزال تأويله. ففي هذا الإطار، يمكن أن تظهر الفوارق الاجتماعيّة، وأن تحفر هُوّات، وأن يعرّض للخطر، فعليّا، الإسهام في العالم المشترك الّذي يعرفه على السّاحة، فنّ التّمثيل المسرحيّ القضائيّ،

1- Marx, *Manuscrits de 1844*, troisième manuscrit, Editions sociales, Paris, 1966, p. 94.

السّياسيّ. وبإيجاز، إنّ المجتمعات، الّتي لم يكن بحوزتها، مع ذلك، هذا القدر من الوسائل، لجعل الحياة جميلة وجيّدة للناس جميعا، أفرزت اليأس، وفي الوقت نفسه، الإحساس بالعبث الّذي يأتي على تذوّق العيش.

لقد توارى الحقّ في السّعادة، ضمن الرّذاذ الرّماديّ لصناعات بائرة، أو في الأحياء الّتي تعني، مستقبلا، عكس ما يعنيه بالضبط اللّفظ الجميل، للمدينة، ذاك المكان الّذي تكون فيه أخوّة المواطنيّة: أمكنة تركة، دون وارث، بل وأمكنة نفي. لقد آن الأوان، لكي تظهر انتفاضات جديدة.

لقد حدّثنا «فيكتور هيغو» عن «متوحّشين»، كانوا يطالبون بالعدالة، في ملحمة معارك الإنسانيّة، للسّموّ بها إلى أفضل ما هي قادرة عليه. لم يكن يبرّر عنفهم، بل كان يدعو، في ذلك، إلى يقظة وعي تنسحب، بالطّبع، على كلّ وضعيّات الظّلم الّتي تدفع إلى اليأس من السّعادة ومن الحياة ذاتها.

«متوحّشون. لنوضّح معنى هذه الكلمة. هؤلاء البشر المشاكسون، الحفاة العراة، مزمجرون، غاضبون، هراواتهم مرفوعة، رؤوسها إلى الأعلى، يجوبون أنهج باريس العتيقة، المقلوبة رأسا على عقب، أيّام بدايات الفوضى الثّوريّة، فماذا كانوا يريدون؟ لقد كانوا يريدون نهاية القمع، ونهاية الجور، ونهاية الصّراعات. يريدون الشّغل للإنسان، والتّعلّم للأطفال، واللّطف الاجتماعيّ للمرأة، والحرّيّة، والمساواة، والأخوّة، والخبز للجميع، والفكرة للجميع، جَعْل العالم فردوسا، التّقدّم؛ وهذا الشيء المقدّس، والطّيب واللّطيف، [هذا التّقدّم]، مندفعون إلى الآخر، وقد خرجوا عن طورهم، لقد كانوا يطالبون بذلك بشكل رهيب، كانوا نصف عراة، رافعين الصّولجان بأيديهم، تعلو الزّمجرة أفواههم. لقد كان هؤلاء هم المتوحّشون، نعم. لكنّهم متوحّشو الحضارة.

لقد كانوا يعلنون بضراوة، عن الحقّ؛ وكانوا يريدون إرغام الجنس البشريّ على الجنّة، حتّى وإن كان ذلك بالزّلزال والفزع. كانوا يظهرون بمظهر البرابرة، والحال أنّهم كانوا المنقذين. لقد كانوا يطالبون بالنّور، تحت جناح اللّيل. بالنّظر إلى هؤلاء البشر، الأشدّاء، نتوافق معهم في الأمر، إنّهم مُخيفون،

ولكـن أشـدّاء ومخيفون، من أجل الخـير. هنالك أناس آخرون، مبتسـمون، مطرّزة ثيابهم، ومهذّبة، ومزيّنة، ومرصّعة، وموشّاة بالحرير، وريش النّعام، بأيديهم جـوارب صفراء، وفي أرجلهم أحذيّة لمّاعة، يجلسـون إلى مناضـد موبّرة، قرب زاويـة مدفأة من رخام، يلحّون في هُدُوء على اسـتبقاء المـاضي والمحافظة عليه، ماضي القرون الوسـطى، والحقّ الإلهيّ والتّعصّب، والجهل، والعبوديّة، وعقوبة الإعدام، والحرب، وهم يمجّدون، بصوت خافت، وفي أدب، السّـيفَ والمحرقة والمشـنقة. أمّـا في ما يخصّنا، فلـو اضطررنا للاختيار، بين برابـرة الحضارة وبين حضارات البربريّة، فسنختار البرابرة.» (**البؤساء**، «بعض صفحات التّاريخ»).

اختتـــام

مرحى مرحى بالحياة

لقد أوضح ‹نيتشـه› تصـوّره للحياة، للحـب الّذي يكنّه لهـا، قائلا : «إنّ طريقتي في النّظر إلى ما هو عظيم في الإنسان هو حبُّ ما هو مقدّر(*Amor Fati*): هو ألّا يرغب المرء في شيء، غير ما هو كائنٌ، لا يرغب في شيء أمامه، أو وراءه، أو في عصـور خلت. هو ألّا يكتفي المرء بتحمّل المحتوم، وبدرجة أقلّ كتمانه حتّى على نفســه، بل أن يحبّه. فكلّ مثاليّة هي ضرب من ضروب كذب المرء على نفسه، أمام ما هو محتوم»[1].

سـنتفادى تأويلا امتثاليّا لحبّ القدر على هذا النّحو، متذكّرين بأنّ حدوث الزّهـرة محتّـم في حقيقة البرعم. ومن باب أولى، فأينما تتـاح حرّيّة الفعل بحكم الطبيعة، يصلح، على الأرجح، هذا التّصوّر الدّيناميكيّ للواقع. إنّ المجتمعات البشريّـة ليسـت خاضعة، بديهيّا، لنفـس نظام المحتوم الّذي تخضـع له الوقائع الطّبيعيّة. فالمبادرة الّتي يتّخذها، ههنا، أولئك الّذين يقرّرون إحداث ممكنات جديـدة، هي عـلى طريقتها جزء لا يتجزّأ من هذا المحتـوم. لقد كان ‹مارك أورال›، الإمبراطور الرّواقيّ الدّاعي إلى التّوافق مع نظام الطّبيعة، يتصرّف بطريقة تحوّل وظيفته الإمبراطوريّة إلى الوجهة الأصحّ. لقد أكّد ‹أرنست رينان›[2] على أنّ فلاسفة الحذر المدروس كانوا أيضا رجال سياسة، قادرين على الالتزام الصّارم

1- Nietzsche «Pourquoi je suis si avisé», 10, NRF, Gallimard, t. VIII, p. 275.

2- ‹أرناست رينان› Ernest RENAN

بتغيير العالم: «إنّ الرّواقيّين، أسياد الإمبراطوريّة، قد غيّروها، وحكموها، على امتداد أجمل مائة سنة، من تاريخ الإنسانيّة» (**تاريخ جذور المسيحيّة**)[1].

إنّ الانسجام مع الحتميّة الطّبيعيّة لا يمكن إذن، أن يستعمل دعامة «للحجّة الكسولة» الّتي تستند إلى القدر لتبرير الانتظاريّة أو السّلبيّة، إذ الطّريقة الّتي نتصرف بها تساهم في تحقّق القدر، ضمن صيرورة العالم. إنّ التّوافق مع ما هو كائن، وتعلّم محبّته هو [أمر] يسير، فعلا، على قدر معرفتنا برصد الثروات الكامنة في العالم، والتّصميم على الإسهام في حدوثها.

يمكن أن نفهم العالم مع ‹نيتشه›، على أنّه من صنع ‹ديونيزوس›[2] و‹أبولون›[3] مشتركين. ‹ديونيزوس›، هو إله النّشوة، والانصهار الكونيّ، الّذي يذكّر بأنّنا انبثقنا من حالة أصليّة لا متميّزة، وأنّنا عائدون إليها لا محالة. إنّها أيضا، القوّة الّتي تخترق الحدود وتصعّد الأفراد في الحفل المجنون الذي يجمع بينهم، في هرج ومرج يلغي الحدود والمسافات. ‹أبولون›، هو إله النّور وتمام الشّكل، متّزن، ومتوازن. والإنسان هو، في الحركة عينها، أبولونيّ وديونيزوسيّ، يريد أن يحيا ويموت، يبني ويهدم. والتّأكيد الدّينيّ للحياة، في هذه الرؤية، هو التّكفّل الصّارم بهذه الثنائيّة. فأن يعود كلّ شيء مشيّد عن قريب إلى حالة اللّا تميّز الأصليّة الّتي انبثقت عنها، فإنّ ذلك لا يرفع عنها جمالها ولا قيمتها. وأن يكون ألم الانحلال الوجه الآخر للحياة المتدفّقة، فإنّ ذلك لا يحطّ إطلاقا، من قيمة الوجود الدّنيويّ. إنّ فكرا، مثل هذا، يتنزّل على طرفي نقيض من التّعاليم الكنسيّة، الّتي تستخلص، من مثل هذا التّذكير، لعنة جذريّة، وتتحدّث عن «باطل الأباطيل»، بخصوص المغامرة الزّمنيّة للبشر.

لقد كان ‹نيتشه› ينكر ولا شكّ، الفكرة القائلة إنّ فنّ العيش يجب أن يتقوّم على أساس الاهتمام الوحيد بالسّعادة. لقد كان يذكّر بأنّ الوضع الإنسانيّ يتنزّل، ضمن التّناوب والتّوليف التّراجيديّ للحياة والموت، والتفرّد الأبولينيّ

1- Renan, *Histoire des origines du christianisme*.

2- Dionysos

3- ‹أبولون› Apollon

والّلا تميّز الدّيونيزوسيّ. الانتشـاء والمتعة الجيّاشـة هما، في هذا الشّأن، مرور أفرادٍ إلى حـدّ مّا، أو إلى أقـصى الحدود، أفرادا تعتمل في ذواتهـم، حينئذ، منابع الفرحة والألم، للفرديّة وللطّابع الّلا معرّف للصّيرورة التي تحدّهم، وتشـّقهم وتتجاوزهم، وفيهـا قُـدّر لهم أن يتيهوا. إنّ الوعي الباسـكاليّ بالتناهـي وعي قريب من وعي المفكر الّذي يمتدح المسيحيّة، يمكن أن يكون ملاذًا، خارج الوجود، وخارج التّراجيديّ المحايث له : يفترض أن تمرّر العقيدة من «البؤس لدى الإنسـان دون إلـه» إلى الرّجاء في وضع هو ولا شـكّ، تراجيديّ، لكنّه مسـجّل من جديد، ضمن أفق يتجاوزه ويتعالى عليه، منسّبا كلّ شيء في عالم البشر (هذا العالم *mundus* الّذي ذكره ‹أوغسطين›، على أنّه موطن السّقوط والضّياع).

إنّ هذا الوضع التّراجيديّ، بالنسبة إلى ‹نيتشه›، لا يحيل إلاّ إلى نفسه، والأفراح المفعمة حيويّة المحايثة له ليس لها أن تُبْخَسَ بذريعة أنّ آلاما ستعقبها، ولا بذريعة العودة إلى الخلود الذي يهيمن عليها. السّـعادة هي حينئذ، تراجيديّة، لا يمكن أن تُعـاش، إلاّ ضمن تجربة متحرّكة لكائن مآله الفناء، لكنّه خالق أسـلوبه الخـاصّ، وخالق الصّيغـة الّتي يفهم بها الإنسـانيّة. إنّ المرور إلى تخوم الانتشـاء والحبّ الذي يجمع كائنين، ضمن تجربة حميمة، للانصهار، له طعم الّلانهائيّ، لا طعم المرارة، طالما أنّنا احتفظنا بتأكيد الحياة، تأكيدا دينيّا إن أردنا القول، بما أنّ الدّين هو الّذي يتكفّل بالمطلق، ويستطيع، عندما يُفهم على هذا النّحو، أن يربط بـين البشر بروابط أخرى، غير روابط الجدليّة السّـلبيّة للضّغينة. يجب الاضطلاع بالمجازفة الجميلة للعيش، الّتي يحيطها باسـتمرار خطر الموت، وكفّ المرء عن رفض رضائه بالأشياء الّتي تحدث بذريعة أنّها فانية حقّا.

مرحى مرحى بالحياة، (*L'amor fati*) (محبّة القدر)، تفتح الطّريق أمام السّـعادة القصوى، السّـعادة الناتجة عن انخراط في الحياة برمّتها، دون شروط أو مساومة، [حيـاة] كما هي في صيرورتهـا التّراجيديّة والفرحة في آن، [حياة]، بما هي عمل إنسانيّ بقدر ما هو طبيعيّ. مرّة أخرى يقول ‹نيتشه› :

«إنّ القضيّة الأوّليّة ليست على الإطلاق، أن نعرف إن كنّا راضين عن أنفسنا أم لا، ولكن أن نعرف إن كنّا راضين عن شيء مّا، بوجه عامّ. لنفترض أنّنا قلنا

مرحى لبرهة واحدة من الزّمن، فإنّنا نكون قد قلنا مرحى، لا لأنفسنا فحسب، ولكن للوجود برمّته، إذ لا شيء يكتفي بذاته، لا في أنفسنا، ولا في الأشياء. وإذا لم تختلج نَفْسُنا سعادةً ولم ترتعش لها إلّا مرّة واحدة، ارتعاشة الوتر المشحوط، فقد كان لا بدّ من دهر كامل، لإثارة هذا الحدث الفريد. وكان لابدّ من دهر، لهذه البرهة الفريدة لمرحانا، لكي تُتَقَبَل، وتُنقذَ، وتبرّر وتتأكّد» (شذرات)[1].

مفارقة السّعادة

ترجع صعوبة العيش في سعادة إلى مفارقة، في أغلب الأحيان. نريد أن نتحرّر من صروف الحياة، ونتخيّل حينئذ، هدوءا تامّا، شبه ربّانيّ، مثل خمول آلهة «أبيقور»، إلاّ أنّ رغباتنا حاضرة فينا وتلحّ علينا. ليحيا العذاب العظيم الّذي يشير ههنا، إلى المغامرة المتجدّدة على الدّوام ! من يحتاج حينئذ، إلى هناء خالد إن كان يتوافق مع حياة غير متجسّدة، معفاة من ألم العيش، لأنّها شُفيت ببساطة من الحياة؟ إنّ الهناء الخالد، الّذي طالما قابلنا بينه وبين عذاب الحياة الدّنيويّة، ليس، على أقصى تقدير، إلاّ حالة قصوى لمنتهى السّعادة البشريّة، ولا قيمة له، في المتخيّل، إلاّ بالتّضادّ، وهو يومض الحياة، دون أن يضيئها، حقّا.

الضّحك هو خصيصة الإنسان، والدّموع أيضا. من هنا، يكون الفعل، هذه المغامرة القائمة، ههنا، نحن نعيشها، ونريدها، حتّى وإن كنّا لا نتحكّم البتّة، ظاهريّا، في أطوارها. يجب علينا أن نرضى بالنَّفَسِ الّذي يمنّه علينا الحضور في عالم جليل، عندما نعود إلى هذا الحضور، وقد أخذتَ منّا جراح الهزّات العنيفة للتّاريخ مأخذا، وركبتنا الوساوس، بفعل عنف فظيع لمجتمعات هي موعودة مبدئيّا، لخدمة الصّالح العامّ، سنضطلع حينئذ، بتراجيدياتنا، مع الوعي بأنّنا قادرون على العودة إلى أنفسنا، وإلى الاحتضان الصّامت للمناظر الّتي نحملها في ذواتنا، إلى الأبد، بمجرّد أن ينطبع جمالها فينا.

عاد «ألبير كامو» إلى تبسّة، لكي يعيش، من جديد، سعادة الحجارة المُشَمَّسَة. من خلفه دوّامات العذاب الّتي يستطيع البشر أن يعاقبوا بها أنفسهم،

1- Nietzsche, *Fragments posthumes*, 1887, 7 (38), NRF, t. XII, p. 298.

بعدما يفقدون صوابهم ومشاعرهم، في آن. يقصّ الكاتب هذا النّوع من العودة إلى المنبع، استحمام الحياة هذا، الّذي يجعله، وكأنّه ولد لنفسه من جديد :

«في هذا النّور وهذا الصّمت، سنوات من الفزع ومن الظّلمة، كانت تذوب ببطء. لقد كنت أنصت، في داخلي، إلى صوت كدت أنساه، وكأنّ قلبي، وقد سكت منذ زمن، قد استعاد نبضه رويدا رويدا. والآن، وقد استيقظ، كنت أتعرّف، من جديد، إلى الأصوات الّلا مدركة، صوتا صوتا، والّتي كانت تكوّن الصّمت: وكنت أسمع صوت العصافير، والأنفاس الخفيفة والوجيزة للبحر، على حافة الصّخور، وارتعاش الأشجار، والنّغم الأعمى للأعمدة وحفيف الأفسنتين[1] والعظايا[2] الخفّية. كنت أسمع ذلك، وأنصت أيضا إلى الموجات السّعيدة الّتي تسري في كياني. لقد كان يبدو لي أنّني عدت أخيرا، إلى المرسى، لمدّة من الزّمن، على الأقلّ، وأنّ هذه المدّة، مع ذلك، لن تنتهِيَ أبدا.» **(العودة إلى تبسّة)**.

فنّ العيش السّعيد هو أيضا تراجيديّ، بل هو، من الضروريّ، أن يكون كذلك، إذ هو يقبل، دون تململ ولا امتعاض، كلّ فرصة متاحة، ويُخْلَقُ فيها، في كلّ مرّة، يستطيع ذلك، دون أن يبحث عن استبعاد مغامرة التّألّم المرتبطة بها. هذا القبول عينه هو، في الوقت نفسه، جسارة وفنّ نستقبل ضمنه ذكرى ما هو جميل وما هو حقّ في الحياة. وهكذا، يتخلّص القبول من ضروب التّنسيب العبثيّة الّتي ينمّيها محتقرو الوضع الإنسانيّ. إنّ السّعادة الّتي تتناسب مع مقام الإنسان تصنع في ما وراء الخير والشّرّ، ولا تنزعج من نظرة ربّانيّة سترسِّبُ، داخل الإنسان، ضروبا من الضّيق البشريّ، لتحوّلها إلى قوى ردع مهدّدة.

تدمج الإتيقا، بما هي فنّ العيش، احترام الإنسانيّة، لا بما هو مطلب خارجيّ، ولكن بما هو تضامن مفهوم فهما حقّا، يجعل من الأخلاق ذاتها وساطة نحو السّعادة. إنّها تضع في الميزان، بمعنى عميق، كلّ الفلسفة، الّتي تعبّر عنها

1- **الأفسنتين:** كحول بنكهة اليانسون مستمدّة من الأعشاب الطّبية، بما فيها زهور وأوراق عشب أفسنتين الأرطماسيا.

2- **العظايا** : من الحيوانات الزّاحفة.

وتعطيها مبرّرا لوجودها. ويكون هذا، ضمن جدليّة منتبهة، أيضا، إلى البعد التّراجيديّ للوضع الإنسانيّ، قدر اهتمامها بإعطاء السّعادة كلّ حظوظها.

إنّ ميتافيزيقا تراجيديّة الحياة وفرحها هي على قدر من الجمال، بحيث إنّها تدرجُ، بهذا الشّكل، على تخوم المجازفة، فتمنع كلّ وضعية دنيئة. لذلك، يمكن لهذه الميتافيزيقا أن تلحق بإتيقا السّعادة، وحتّى بسياسة للعدالة، تجعل السّعادة أمرا ممكنا للجميع، دون فرض نموذج لذلك. إنّ الكرم والوعي التّراجيديّ - على طريقة «نيتشه»، لا على طريقة «باسكال» - يمكنهما أن يرتبطا، أيضا، ضمن مُتَعِيّة[1] معقولة، وفلسفة متعة تضطلع، ههنا، بهذه التّقلّبات. إنّ الوعي بالتّناهي، الّذي لا يتعارض، إطلاقا، مع التأكيدِ الفَرِحِ للحياة، عليه أن يمتنع عن الانفعالات الحزينة الّتي تجعل من العجز فضيلة.

وهكذا، فوضع عمل الفكر، في مساره، والشّجاعة التي ينطوي عليها أيضا، أمر لا حدّ له: يجب متابعته، بحسب العذابات اليوميّة، وضروب المعاناة التي يبدو أنّها تتهدّد الغرض المقصود، لكنّها لا تطمسه، إلّا مؤقّتا. عمل الفكر هذا الّذي هو صبر على المفهوم، وجرأة على الفهم في آن هو الفلسفة عينها. تمثّل هذه الفلسفة، حسب عبارة «هوسرّل» (Husserl)، «مهمّة لا نهائيّة»، يمكن للإنسانيّة أن تستأنفها، في كلّ حياة فرديّة تنجزها. بهذا المعنى، هي، فعلا، فنّ عيش بحقّ، يُبْتَكَر بقدر ما تُستكشفُ دوافع الجلاء الفعليّ الّتي كانت، في البدء، خفيّة. هذا يعني أنّها تخصّ المغامرة الإنسانيّة الّتي يُضْطَلَعُ بها، كما هي، بمجازفاتها وظلالها، ومُتَعِهَا وأنوارها. هذا هو المعنى الكامل لدروس السّعادة الّذي يمكن استخلاصه من التّجربة المتأمّلة، والعائدة إلى المنابع الّتي تكشف هي ثراءها. السّعادة، سعادة الفهم وسعادة حبّ الحياة.

1- متعيّة hédonisme : مذهب فلسفيّ يدعو إلى طلب المتعة ويقاوم الحرمان.

للذّكرى
طالع خير فلسفيّ

وهكذا، فقد أُعْطِيَتْ لنا الحياة، حظًا ومجازفة، في الوقت نفسه، إذ يمكن للمرء أن يحلم جيّدا بهناءٍ أبديّ، يكون أحيانا مثل هذا النّوم، دون حلم الّذي هو عدم الفرح والألم، وعدم الرّغبة والنّفور. والمثل الأعلى الأوّل هو الإحساس بالغرور الغامض الّذي توحي به منظوريّة الموت، وقد أصبحت استحواذيّة. أمّا الثاني فيأتي من وَهَن، بعد مكبّلات عدّة، أو من حكمة هي أكثر من إنسانيّة، أين يفسد كلّ ضَرب من ضروب الهيجان. نهاية الاضطرابات ونسيان التّناهي أمر يُبتدعُ، إمّا عبر الإقامات [في العالم] أو الأبديّات. يمكن للمرء أن يرغب في تأجيل آماله إلى ما هو ما ورائيّ، وحتّى تثبيت تصرّفه بالفكرة القائلة إنّه يتأكّد، في نهاية الزّمن، وسيُحاسِب إله هذا التّصرّف، أو أنّ مصير الإنسانيّة هو الذي حباه بمعناه. وهكذا، نتخيّل جُدّات ومعايير تفلت من نسبيّة الوضعيّات، ولا تدين لها في شيء. إلّا أنّ هذا الظمأ للمطلق، هل يخلّصنا من البحث عن السّعادة الحاضرة، ومن الدّوار أين تكتشف كلّ الاختيارات ظلالها وأنوارها في آن؟ يجب قبول ذلك، ثمّ الاستمرار. الحياة جميلة بانتظاراتها وذاكرتها السّعيدة، كما هي جميلة بمغالبة العذابات. تموج المياه، وليس ثمّة مرارة، على الإطلاق، يمكنها أن تحلّ بمن «يفهم الصّيغة التّامّة للوضع البشريّ ويضطلع بها». أن يفهم المرء، دون أن يكون متأكّدا مع ذلك أنّ شيئا مّا قابل للفهم، خارج قدرتنا على الفعل وإعطاء معنى، نحن بأنفسنا. يشيح سيزيف الملحد بنظره إلى الأبد عن السماء التي هجرتها الآلهة، ويجد الفرصة للاستمتاع في الإشعاع الحميم لحجر الصّوان أو للبحر، كما في لقاء نظرة مترعة بالحنان.

(أيوب) المؤمن يتخلّص من كلّ ما كان يتعلّق به، حتّى ينصرف إلى تأكيد عقيدته اللّا مشروطة، الموجّهة رأسا إلى إلهه أو إلى الحياة التي كانت من نصيبه. لقد أدمجت مغامرة السّعادة الدّوار الأوّليّ والعبث واليأس والفكرة القائلة بأن لا شيء حاصل نهائيّا، وأدمجت قوّة أشكال الثّقة الجديدة والشّجاعة المسترابة، لإعادة كلّ شيء من جديد. إنّ المهمّة، عندما تفهم على هذا النّحو، «كافية لملء قلب إنسان»، كما يذكّر بذلك سيزيف، قبل أن يأخذ من جديد صخرته، ليصعد بها المرتفع.

أن يعرف المرء كيف يكون سعيدا هذا أمر يرجع بالأساس، وفي الغالب، إلى الاهتمام الذي نوليه لمنابع الوعي. فاللّحظات الخمس لهذه السّفرة، في أرض الحكمة، سمحت بتذكّر مبادئ بسيطة، تساعد على تحديد مسلكيّة، دون ادّعاء بنسيان منعرج الحياة الذي يكون في الغالب، تراجيديّا. يتعلّق الأمر من خلالها، بأن يجعل المرء نفسه قادرا على قبول كلّ الفرص الممكنة، لكي يكون سعيدا. وها هي نقولها للتّذكير:

1- طرد المخاوف وضروب القلق الّتي تشلّ، باستعمال العقل، لفهم الظّواهر فيها. كثيرة هي المخاوف التي تُكتشف حينئذ، دون أساس. نتوصّل إلى ذلك بالفصل بين ما تسقطه انتظارات البشر على الأشياء، وبين ما هي عليه في ذاتها. إنّ التّطيّر ضباب يحجب عنّا رؤية آيات جمال الطّبيعة ووعود الحياة.

طمأنينة النّفس وصفاؤها.
أمران متاحان لكلّ إنسان.

2- تنمية فرح الفهم، يصبح بالعادة سعادة بسيطة وقويّة. هكذا تتصرّف، في ما يختصّ به الإنسان، دون سواه. ذاكرة معارف مستكشفة، تتكوّن حينئذ، وحياة الفكر تنهل منها ثراءها. لقد كنّا نسمّي «إنسانيّات» الدّراسات المكوِّنة الّتي كانت تضع أفضل ما في الثّقافة في خدمة التحرّر الفرديّ والفكريّ. ها قد أتى زمن الفكر الّذي يفرز مسرّاته الخاصّة.

مسرّة الفهم وجلاء متزايد
هما في مستطاع الجميع

3- أمام الشّكوك الّتي تخز وخزا، يتوالف الصّبر مع الشّجاعة. الصّبر، بما هو جهد لإرجاء المستعجل من الأشياء، ومن الرّغبة الملحاحة. أمّا الشّجاعة، فهي الجرأة على تأكيد الحياة ضدّ ما يؤذيها. لا بدّ للمرء أن يحافظ فعلا، على بقائه، ويعيش، عندما يُعْرِضُ العالم عن الرّغبة. فعلى المرء أن يداوم، أو بالأحرى، أن يتحمّل، في انتظار أن تتغيّر الأحوال، وأن تكلّل جهودنا بالنّجاح. لا ضرب من ضروب الكسل يمكنه الاستناد إلى القدر الّذي يستدعى الفعل البشريّ ويعيّن له دوره. لقد خصّ الإنسان باستقلاليّة شخصيّة، إزاء نوائب الدّهر الّتي يصعب توقّعها والسّيطرة عليها. لا يتعلّق الأمر، هنا أيضا، بتصوّر حكمة بطوليّة مّا، اختصّت بها نخبة محدودة العدد، بل يتعلّق الأمر بإذكاء الاستقلاليّة الفرديّة. فتمارين الحرّيّة تلعب دورا عظيما، والآداب الثلاثة الأساسيّة للتحكّم في الذّات هي، أيضا، حاسمة. فآداب الحكم تجنّب المرء فخاخ الاندفاع والحجج الواهية للمعيش. وآداب الرّغبة تحوّل الجلاء الذّهنيّ إلى قولبة للرّغبات. لقد تحفّز «ديكارت» للبحث عن مغالبة رغباته، بدل مغالبة البخت: وهكذا، فهو لا يدعو إلى أيّة قدريّة، وإنّما إلى تصرّف واقعيّ بسيط. يتعلّق الأمر بالتحرّك لمحاولة بلوغ الأشياء المتاحة، ودون أن يتراجع عن جعل نفسه بمثابة سيّد على الطّبيعة، ومالك لها، بفضل المهارة المستنيرة بالعلم. وأخيرا، فانّ آداب الفعل، الّتي تعدّل الدّوافع، هي آداب ثمينة للتّدخّل في العالم، وإحداث الآثار الّتي نريدها فيه. إنّها إيحاءات الكائن لذاته. والآداب الدّاخليّة، مثل التدرّب على الحرّيّة، هي منبع السّعادة. لقد قالت الإتيقا الرّواقيّة الرائعة ما هو أساسيّ، في هذا الشأن. إنّها لا مبالاة، على قدر الاستطاعة، في؟؟ الأشياء الّتي أمرها ليس بيدنا. وهي رباطة جأش، حتّى يفعل إنسان ما يستطيع فعله من عمل بشريّ، في الأوضاع الّتي يوجد فيها.

صبر للصّمود أمام المحتوم
وشجاعة للفعل يستبقيان طعم العيش

4- أن يعرف المرء، في كلّ الأحوال، كيف يتصرّف في الأمور الّتي أمرها بيدنا. يجب القيام بهذا الاقتضاء الشّخصيّ الّذي يؤسّسه تقدير الذّات. فالكريم يقرّر، على طريقة «ديكارت»، أن يستعمل حرّيّته والأشياءَ الّتي

تدخل تحت طائلته، على أفضل وجه. فهو نفسه لا يقدّر ذاته، إلاّ بسبب صرامة من هذا القبيل.

أن يعي المرء ما هو قادر عليه ويتصرّف
بصرامة أمران يؤسّسان تقدير الذّات والثّقة.

5- عندما يصبح التّمييز واضحا، لكلّ شخص، بين الأشياء الّتي أمرها بيدنا، والأشياء الّتي تندُّ عنّا، يعرف المرء كيف ينتظر تغيّر الأحوال، إذا ما فشلت في الوقت الرّاهن الرّغبة الجارفة في شيء مّا، ويستعمل، في الوقت نفسه، فعله، ليجعل الأحوال تتغيّر، دون نفاد صبر، ومركّزا على ما يمكن، فعلا، أن يتغيّر في هذا الاتّجاه.

المؤالفة بين فنّ الانتظار وفنّ الفعل حيث ما
نستطيع القيام بذلك يؤدّي إلى رضاء حقيقيّ.

6- أن نفهم رهان الازدهار البشريّ للآخرين ولأنفسنا، والسّعي إلى سعادة الغير بدافع العدالة، ولكن أيضا، لإعطاء السّعادة الّتي نقصدها لأنفسنا تمامها. العيش المكثّف للذّات، وهي وحيدة، يغني العيش الجماعيّ للبشر المتضامنين، ويغني العيش الجماعيّ، عودا على بدء، العلاقة بالذّات. إنّ هذه الجدليّة السّعيدة ليست شيئا آخر سوى فرح الاقتسام. الكرم تمرّدٌ، إذ هو يعرف كيف يتجاوز حدود وضعيّة مّا. الكريم، هنا، هو، على طريقة «سبينوزا»، يناضل من أجل إنسانيّة مكتملة، لا يتصوّر سعادته إلّا في صدى سعادة الآخرين. فالمدينة، وهي مشكّلة على هذا النّحو، تمنح الجميع الجزاء العادل لانهمامهم بجعلها تعيش.

أن يعرف المرء كيف ينمّي قوّة الإنسانيّة
في الآخر وفي نفسه، هو تأكيد الذّات حقّا

7- أن يضع المرء لنفسه جُدّاتٍ للسّعادة، حتّى لا يترك المجال لإهمال أيّ سجلّ من سجلاّت اكتمال الذّات، والتّحكّم في حياته، بناء على دراية بالأحوال، وبفضل قائمة من الإمكانات، مفتوحة بقدر ما يسمح به كلّ عصر. إنّ جُدَّاتِ المثل الأعلى، في خطوطها العريضة، هي مثل إعلانات الحقوق. إنّها تذكّر بتطلّعات شرعيّة، قصد تخليص مشاريع الحياة من الحدود الخاصّة بالوضعيّات الاجتماعيّة، في الأصل.

أن يعرف المرء كيف يستمتع بذاته وبالعالم وبالآخرين، وبأيّة طريقة، هو تذكير الحياة النسّاءة بثرواتها وفتح أبواب الآفاق والمنظورات

8- أن يصقل المرء المتع، وأن يعرف كيف يستغلّ الفرص ليتذوّقها، وفي ذهنه إمكان ألّا تُتَاح ثانية، أو، على الأقلّ، اعتبارها فريدة من نوعها، وعلينا الاحتفاء بها. إنّ الاشتهاء هو توجّه في الحياة، كما كتب ذلك «لوكراس». أمّا عن الرّغبات المؤجّلة أو الملبّاة، بعد حين، فيتمّ الاعتناء بها، ههنا، بذكرى تحقّقها عينه، والتّحكّم المعقلن لاستعماله، متعة الحواسّ والفنّ والرّمز والاكتشاف والإبداع والانسجام والمسرّة المشتركة، والعاطفة المتضامنة أو المتوحّدة، متعة الانتصار على الظّلم ومغالبة الشرّ.

متع الحياة المتعدّدة تنتظر أن ننهل منها وأن نصقلها فهي نسيج السّعادة

9- أن يعرف المرء كيف ينوّع سجلّات تأكيد الذّات، وأن ينتقل من واحد إلى آخر، عندما يكون ذلك مفيدا، للحفاظ على طعم العيش. موقف من هذا القبيل ليس، فحسب ضروريّا، من أجل امتلاء مثاليّ للإنسان الّذي يقال عنه « تامّ»، إنّه ضروريّ، أيضا، حتّى لا يستسلم لهجمة خيبة أمل مفروضة، في مجال مّا. نغيّر، حينئذ، من سجلّ اكتمال إلى آخر، حتّى لا نغرق في «الأحزان». «أن يمرّ المرء إلى شيء آخر»، هذا البعد المتعدّد الأبعاد للإنسانيّة هو أكثر من ثروة للكينونة. إنّه يؤسّس إمكان ملاذ، ضدّ مختلف ضروب التّعاسة الّتي تطالنا. أن أقول «أنا» هو تأكيد بأنّني لا أُخْتَزلُ في بعد من أبعادي، والاستنجاد بالكآبة الّتي تغمرني، عندما تحلّ بي خيبة أمل، في مجال من مجالات حياتي. ليس لي أن أتحمّل مسؤوليّة ما ليس أمره بيدي، لكن يمكن أن أغيّر علاقتي بالعالم، حتّى لا يؤثّر فيّ، على هذا القدر من الإيلام.

أن يعرف المرء كيف يتعامل مع مختلف سجلّات الاكتمال الّتي عرفنا كيف نصقلها، وأن نمرّ من سجلّ إلى آخر إن اقتضى الأمر، معناه أن يكون لنا على الدّوام ملاذ ومعين يجنّبنا الانحباس.

10- فرح الفعل، في أيّ ظرف كان، يقوم، في البدء، على إحساس المرء بأنّه المقرّر لما يفعل، ومن ثمّ، أيضا، المقرّر لحياته. أن يبصم الحياة ببصمته، كما يفعل بنصّ. ثمّة هذا الفرح، فرح الاستعدادات، وكأنّها أهداف مستبقة. إنّ لآداب الفعل وجه مبهج. الفعل، بما هو مغامرة، يسدّ فراغا، مثلما هو الحال لدى بعض شخصيّات «مالرو» Malreau[1]. لكنّه يحقّق في الوعي الّذي يحرّكه أكثر من مجرّد هذا التعويض. إنّه يُظهر جاهزيّة الحياة، في ذات اللحظة الّتي كنّا نوشك فيها على الشّكّ في ذلك.

هل من كلمة ختام ؟ لا حاجة لذلك، ههنا، وإلّا فلتكن كلمة سوفوكل، في **أوديب الملك**. يقول : «لا يوجد كائن فان، على الإطلاق، نرقبه بأنظارنا، حتّى دنوّ أجله. وتتوجّب علينا تهنئته، ما لم يجتز الحدّ، دون معرفة المعاناة.» يذكّر هذا، كما يدعونا إلى ملاحظة ذلك مونتاي، بأنّه لا يمكن للمرء أن يعتبر نفسه سعيدا، قبل آخر يوم في حياته. إنّه مبدأ قابل لكي يؤوّل على أنحاء عدّة. وها هو تأويل من بينها، سيمنح الشّجاعة لكلّ شخص، حتّى يقول عن نفسه إنّه سعيد، أو تعيس بالنّظر إلى وجوده. اليوم هو سعيد، وهو ليس متأكّدا حقّا أن يبقى كذلك إلى ما لا نهاية له. لكنّه يستطيع أن يقول لنفسه على الأقلّ: «أيّام السّعادة هذه هي ملك لي، بلا ريب، ولا شيء يستطيع أن يجعلها غير موجودة، وهي تترع ذاكرتي بابتسامات الحياة.»

أمّا إذا كان تعيسا اليوم، فليعوّل على أيّام أفضل، يعلّق رجاءه على ضرب من التّعويض. تخفي الحياة مفاجآت، إلى آخر نفس. هذا الرّجاء هو الوجه الآخر لمجازفة الحياة الجميلة. وقد نصحنا «ديكارت»، بالنّظر دائما إلى أشياء من الجهة الأكثر ملاءمة لنا، لا لكي نعيش في الأوهام، وإنّما لكي نصقل هذه المقاربة الرّصينة الّتي تخلّصنا، على مرّ الزمن، من الانفعالات الحزينة.

السّعادة للجميع...

1- «أندريه مالرو» : مفكّر وأديب فرنسيّ، عصاميّ التّكوين. ولد سنة 1903 وتوفّي سنة 1976 بباريس. من أبرز مؤلّفاته : الطريق الملكيّ، والوضع الإنسانيّ. وقد حقّق بهذا المؤلف الشّهرة وحصد الجوائز. ناضل ضدّ الفاشيّة، إلى جانب الإسبان سنة 1936 وانخرط في المقاومة سنة 1944 لتحرير فرنسا.

قراءات -رحلات

بعض الفسحات لتعميق نظراتنا لكلّ درس...

الدّرس الأول : ‹إبيكتات›، **الوجيز**؛ ‹سيناك›، **في الحياة السّعيدة**.

الدّرس الثاني : ‹كانط›، **تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق**؛ ‹ماركوز›، **الإنسان ذو البعد الواحد**؛ ديدرو، **تكملة لسفر بوغنفيل**.

الـدّرس الثالث : ‹سـيناك›، **رسائل إلى لوسيليونس**؛ ‹شـيشرون›، **في القدر**. ‹سبينوزا›، **رسالة في اللاهوت والسّياسة**.

الدّرس الرّابع : ‹مونتاني›، **المحاولات**، الكتاب الثالث؛ ‹روسّو›، **أحلام متجوّل وحيد**.

الدّرس الخامس : ‹باشـلار›، **شعريّة الحلم**؛ ‹كامو›، **أسطورة سيزيف**، **العودة إلى تبسّة**.

الدرس السّادس : ‹أرسطو›، **الإتيقا إلى نيقوماخوس**، الكتاب الثامن؛ ‹مونتاني›، **المحاولات**، الكتاب الأوّل؛ ‹ستاندال›، **في الحبّ**.

الدّرس السّـابع : ‹مارك أورال›، **أفكار**؛ ‹أبيقور›، **رسالة إلى ميناسي**؛ ‹أرسطو›، **الاتيقا إلى نيقوماخوس**، الكتاب العاشر.

الدّرس الثامن : ‹أفلاطون›، **ألسيبياد**؛ ‹إبيكتات›، **الوجيز**؛ ‹سيناك›، **رسائل إلى لوسيليوس** 59 و71 حتّى 74.

الدّرس التّاسـع : ‹لوكراس›، **في الطّبيعة**؛ ‹أفلاطون›، **المأدبة**؛ ‹أبيقور›، **رسالة إلى مينيسي**.

الدّرس العاشر : ‹فرويد›، **قلق في الحضارة**؛ ‹سـبينوزا›، **الاتيقا**، الكتابان الثالث والرابع؛ ‹مارك أورال›، **أفكار**.

الـدّرس الحـادي عشر : «أرسـطو»، **اتيقـا إلى نيقوماخـوس**، الكتـاب الثالث؛ «سـبينوزا»، **الاتيقـا**، الكتابـان الرابـع والخامـس؛ «كامو»، **الطّاعون**.

الدرس الثانـي عشر : «كانط»، **ما هي الأنوار؟**؛ «روسّـو»، **في العقد الاجتماعيّ**؛ «كوندورسيه»، **خطاطة لجدول تاريخيّ لتقدّم الفكر البشريّ**.

الدرس الثالث عشر : «ماركس»، **مخطوطات 1844**؛ «هيغو»، **البؤساء**؛ «ماركوز»، **الإنسان ذو البعد الواحد**.

شكر

ما كان لهذا الكتاب أن يرى النّور، لولا مبادرات ‹مونيكا لابرون› Monique Labrune و‹سوفي برلين› Sophie Berline. ويعود الفضل في إنجازه إلى حدّ كبير، للتّحفيز الدّائم والخصب لناشرتي ‹ماكسيم كاترو› Maxime Catroux. أرفع إليهنّ جميعا كلّ شكري.

أعبّر أيضا، عن كامل امتناني إلى أصدقائي ‹بيار غينينسيا› Pierre Guenincia، و‹ريني بلوت› René Plant، و‹جون بول سكوت› Jean-Paul Scot و‹برونو ستراف› Bruno Streiff الّذين قاسمتهم، في الغالب، الأشياء البسيطة والجميلة للصّداقة. امتناني أيضا إلى ‹موريس› Maurice و‹سوفي بينا-رويز› Sophie Pena-Ruiz وأيضا إلى ‹فرانسيس› Francis و‹يامينة بنقيقي› Yamina Benguigui. فحواراتنا تجد لها صدى، في صفحات عديدة من هذا الكتاب.

ثبت المصطلحات

عربي - انغليزي - فرنسي

A		
Accomplissement	Completion	اكتمال
Ame	Soul	نفس
Aspiration	Aspiration	تطلّع
Art de vivre	Lifestyle	فنّ عيش
Art de liberté	Art of Freedom	فنّ حرّية
Amour de la sagesse	Love of wisdom	محبّة الحكمة
Attentisme	Wait and see	انتظارية
Angoisse	Anxiety	قلق
Augure	prediction	التّكهّن
Attention	Attention	انتباه
B		
Bonheur	Happiness	سعادة
Bonne heure	Happy hour	ساعة سعيدة
Bon augure	Auspicious	حسن الطّالع
C		
Conscience	Consciousness	وعي
Crainte	Fear	خشية
Chair	Flesh	لحم
Condition humaine	Human condition	الوضع الإنساني
Chance	Luck	حظ
Croyance commune	Common belief	الاعتقاد الشّائع

Combat de justice	Fight for justice	معركة العدالة
Confiance native	Original confidence	ثقة أصلية
D		
Désir	Desire	رغبة
Désir de vivre	Desire to live	رغبة العيش
Destin	Destiny	قدر
Dialogue	Dialogue	حوار
Doute	Doubt	شكّ
E		
Existence	Existence	لوجود
Existence offerte	Offered existence	وجود معطى
Espérance	Hope	رجاء
Emotion intérieure	Inner emotion	عاطفة داخلية
Emotions vives	Strong emotions	انفعالات
Expérience unique	Unique experience	تجربة فريدة
Expérience vécue	Lived experience	تجربة معيشة
F		
Faculté de penser	Ability to think	ملكة
Fatalisme	Fatalism	قدرية
G		
Gai savoir	Gay science	معرفة جذلي
H		
Humanité libre	Free humanity	إنسانية حرّة
Hasard	Random	صدفة
I		
Incertitude	Uncertainty	ارتياب
Imagination	Imagination	خيال
Illusion	Illusion	وهم
Initiative	Initiative	مبادرة
Invention des sagesses	Invention of wisdom	اختراع الحكم

Infini	Infinite	لانهائي
Image	Image	صورة
J		
Joie	Joy	فرح
Jugement politique	Political Judgement	حكم سياسي
M		
Mal–être	Malaise	ضيق
Magie	Magic	سحر
Malheur	Misfortune	تعاسة
Mauvais augure	Bad Omen	نذير شؤم
Mémoire	Memory	ذاكرة
Mise à distance	Be distant	اتخاذ مسافة
Monde	World	عالم
O		
Obsession	Obsession	هوس
Obscurantisme	Obscurantism	ظلامية
Ordre de la nature	Order of nature	نظام الطبيعة
P		
Paix intérieure	Inner Peace	سلم داخليّة
Partage	Sharing	قسمة
Plénitude	Fullness	امتلاء
Présage	Omen	فأل
Puissance multiforme	Multiforme power	قوّة متنوّعة الأشكال
Perspective	Perspective	منظورية
Présence au monde	Presence in the world	حضور في العالم
Pensée	Thought	الفكر
Promesse	Promise	وعد
Patience de vivre	Patience to live	صبر العيش
Projet	Project	مشروع
Passion triste	Sad emotion	انفعال حزين

French	English	Arabic
R		
Repère	Landmark	حدّة
Réflexion	Reflection	تفكير
Réflexion vagabonde	Stray reflection	تفكير شريد
Recette de bonheur	Recipe for happiness	وصفات للسّعادة
Rêve	Dream	حلم
Risque	Risk	مجازفة
Romantisme	Romanticism	رومنطيقيّة
S		
Sagesse	Wisdom	حكمة
Sacré	Sacred	مقدّس
Sensation	Sensation	إحساس
Situation originaire	Original situation	وضعية أصيلة
Soif de vivre	Thirst for life	ضمأ العيش
Spectacle du monde	Show the world	مشهد العالم
T		
Tempête cosmique	Cosmic Storm	عاصفة كونية
Tourments	Torment	عذاب
Tarauder	tap	وخز
V		
Vie intérieure	Inner life	الحياة الدّاخليّة
Vision superstitieuse	Superstitious vision	رؤية متطيّرة
Vertige	Vertigo	دوار
Vécu	Lived	معيش
Vue apaisée	Appeased view	نظرة رصينة
Vie pratique	Practical life	حياة عمليّة
Volonté libre	Free will	إرادة حرة
Y		
Yeux De la conscience	Consciousness eyes	عينا الوعي
Yeux de la chair	Eyes of the flesh	عينا اللحم

الفهرس

القسم الرّابع
سعادة الفعل

القسم الخامس
السّعادة للجميع

الإنجاز الفني

المركز الوطني للترجمة – تونس

الطباعـــة:

أوربيس للطباعة

1، نهج العربيّة السعوديّة ـ 1002، تونس

الهاتف: 229 280 71 (216+) – الفاكس: 231 280 71 (216+)

البريد الالكتروني: orbis@gnet.tn